الباب التاسع

فى امة الاسلام و نظامها و ما يجب على اهلها ان يتخذوه فى هذه الايام و فيه ٢٩ فصلا

ولقد ذكرنا نظام الأمم الضالة والفاسقة والجاهلة والمدن الفاضلة بوجه عام مع آرائهم وأخلاقهم ونظامهم وقارنا بينها و بين هذا الكون العظيم فلنشرع الآن فى الكلام على الأمة الأسلامية بوجه خاص فى هذه الأزمان الأخيرة إذ هى التى تهمنا فقد وجب على من أوتى علما أن ينشره بين هذه الأمة التى أصبحت ولا نصير لها من العالم أجمع فان لم يقم عقلاؤها و ينشروا أفكارهم بين الملأ فهم المسئولون وحدهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من الكتمان وكل ما يشين بالانسانية ولنطبق أحوالها على نواميس الشريعة الاسلامية ونظام الكون ، ونلخص الكلام تلخيصا فنقول

الفصل الأول — فى ذكر أحوال المسلمين من القوة فى عصر النبوة والضعف الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الآن .

الفصل الثانى — فى السعادة والاختيار والعمل والتوكل

الفصل الثالث — فى توزيع الأعمال على الافراد وما حكم الشريعة فيها وذكر فروض الكفاية

الفصل الرابع — فى ذكر أنواع العلوم والصنائع التى يجب على الأمة تعلمها فى هذه الأزمان

الفصل الخامس — فى ذكر طرق التعليم وما يجب على العلماء أن يسلكوه فيه فى هذه الازمان

الفصل السادس — فى حكمة النسخ فى الآيات والأحاديث وما مناسبته لهذه الأحوال التى نحن عليها وما حكمتها بالنسبة لنا الآن وما يجب على المسلمين أن يفعلوه فى تعليمهم وسياساتهم وأحوالهم

الفصل السابع — فى وجوب استعمال العقول وترك الفضول مع انتهاج خطة الشرع

الفصل الثامن — فيما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة

الفصل التاسع — فى سياسة أور وبا واستطلاع علومها

الفصل العاشر — فى قصص القرآن والروايات وتاريخها وما ثمراتها فى الأمة وما الواجب علينا وكيف كانت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيها وما الغرض منها وما الذى طرأ عليها فى الاسلام حتى شوه وجهها

الفصل الحادى عشر — فى علو همة أفراد الأمة وتشويقهم وما خطة القرآن فى ذلك وما تنتهج الأمم لعلو شأنها مما أغفله المسلمون

الفصل الثانى عشر — فى كيفية التوصل بالقرآن الى هذه الطريقة وفهمه وما يجب على طوائف الامة من كل صنف من معرفة أيات مخصوصة

الفصل الثالث عشر — فى اقتصار المسلمين اليوم على الفقه وهكذا وان هذا من أهم أسباب الانحطاط

الفصل الرابع عشر — فى ذكر حكمة التكليف بالايمان بما غاب عنا مما ليس بمجرم وتوحيد العلوم وان الوحدة بها نظام كل شىء ووجوب مطابقة وحدة المسلمين لهذا النظام

الفصل الخامس عشر — فى خاتمة ماتقدم بذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا واستطلاع ما فى البلدان الشرقية والغربية وتقديم هذا الكتاب لعقلاء الاسلام قاطبة وهكذا من فوائد أخرى

الفصل السادس عشر — فى المقالة الأولى من المقالات الأصمعية

الفصل السابع عشر — فى المقالة الثانية منها وهو الكلام على كليات الاسلام الخ

الفصل الثامن عشر — فى المقالة الثالثة فى نظام الأزهر
الفصل التاسع عشر — فى المقالة الرابعة الاصمعية
الفصل العشرون — فى المقالة الخامسة الأصمعية
الفصل الواحد والعشرون — فى المقالة السادسة الاصمعية
الفصل الثانى والعشرون — فى المقالة السابعة الاصمعية
الفصل الثالث والعشرون — فى المقالة الثامنة
الفصل الرابع والعشرون — فى المقالة التاسعة الاصمعية
الفصل الخامس والعشرون — فى المقالة العاشرة الاصمعية
الفصل السادس والعشرون — فى المقالة الأولى الرازية
الفصل السابع والعشرون — فى المقالة الثانية الرازية
الفصل الثامن والعشرون — فى المقالة الثالثة الملقبة بالرازية حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى
الفصل التاسع والعشرون — محاورات لطيفة فى الاسلام ونظامه وأسباب انحطاطه

الفصل الأول

فى ذكر احوال المسلمين من القوة فى عصر النبوة ومن الضعف الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الان

وذلك فى ثلاث مباحث : المبحث الأول : فى أحوال أيام عصر النبوة

المبحث الثانى : فيما طرأ عليها بعد ذلك

المبحث الثالث : فيما يظهر عليها من الاستيقاظ الآن

المبحث الأول

فى قوة أمة الاسلام فى عصر النبوة وصدر الاسلام

فهاك بعض ما جاء فى كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن : فها أناذا أذكرك أيها الصديق أولا بما جاء فى (سورة الشورى) وما كان من أمر عمر رضى الله عنه ومبلغ زهده وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة فى عدله وأخلاقه الكريمة ، فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، واتبعت سنتى وسمعت نصيحتى لأنك تشير اليه الآن ، ولا تذكره ، وهذا هو مقولى . فقلت : إنما أشرت اليه لأننى فى هذا المقام كما تقدم أبحث فى أمرين : أمر المصلحين الذين نقتدى بهم . وها هو الذى ذكرته الآن . وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم ونخالفهم وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلا كما وعدتك . وقبل ذلك التفصيل أقول فى السلف الصالح قولا مجملا غير ما تقدم لتتم القدوة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ — ٤١ هجرية هو العصر الذهبى . عصر العدل والتقوى . كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة . والغيرة

الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا . وهو العصر الذى اتخذه المسلمون منوالا ينسجون عليه وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد . وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا فى حشد الأموال بأية وسيلة كانت

(بيت المال) توفى النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التى قدمناها . ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات . وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة . وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهبا وفضة . فأدهشتهم كثرتها . وتنبهوا لها . يقال أن أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بخمسمائة ألف درهم . فاستكثره عمر . وقال : أتدرى ما تقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات . فصعد عمر المنبر . وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير . فان شئتم كلنا لكم كيلا . وان شئتم عددنا لكم عداً وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين . باعتبار السابقة والقرابة من النبى ولكنه نهى عن اختزان المال . فقال له قائل : يا أمير المؤمنين . لو تركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عدة لحادث اذا حدث ؟ فزجره عمر . وقال له : تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك . وقانى الله شرها . وهى فتنة لمن بعدى . إنى لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله . وهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا .

فلما كثرت الأموال فى أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال . وحرم على المسلمين اقتناء الضياع . والزراعة . أو المزارعة . لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال . حتى إلى عبيدهم ومواليهم . أراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل . لا يمنعهم انتظار الزرع . ولا يقعدهم الترف

والقصف . فاذا اسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان فى يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته . تفرق فيهم . وهم يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه . ويفرضون له راتباً فى الديوان مثل سائر المسلمين .

والغرض الذى كان يرمى اليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدراً للمال الذى يحتاج اليه المسلمون فى إتمام الجهاد ووقفا لمصالحهم مدى الدهور أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم . ولا يمضى بضعة أجيال حتى تصير أملاكا خاصة بهم . وعمر يريد أن يبقيها محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولاتورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد . وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموى . وكان يتحدى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيما ذمى أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله . وما كان من أرض فانها من فىء الله على المسلمين وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أوصناعة أو نحوهما .

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة . فلما توفى أبو بكر . لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من غرارة . لأنه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء ، لا ينظر الى مصلحة نفسه . بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه . وذلك أربعون ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة . ثم فرضوا له مالا معينا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله . لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم . فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين . وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد والاستهلاك فى نصرة الحق مما يقدر اجتماعه فى رجل واحد ، وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التى ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله فى التاريخ ، يكفى منها تلك الفتوح التى جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال فى المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحسّ بدنو الأجل قال لابنه : إنى استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدى ، فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب) . وزهده فى الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك فى الامام على ، فقد كان مثاليا فى الزهد والعدل ، ومن أقواله : (تزوّجت بفاطمة ومالى فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ، ومالى خادم غيرها) . وجاءه فى أيام خلافته مال من أصبهان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، ليبدأ أيهم يعطى أولا ، ولم يبن على آجرة على آجرة ، ولبنة على لبنة ، وقصبة على قصبة ، وكان يأتى بحبو به من المدينة فى جراب ، وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه ، وقال : (لو كان عندى أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه) ومناقبه لا تحصى .

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد فى الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أوسبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه ، وهو لا يرى فى ذلك غبنا ، كذلك فعل بسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وأبى هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غرابة فى ذلك ، لأن العامل اذا رأى خليفته زاهداً تقيا يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك فى مصلحة الأمة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه ، وخلقه ، وخصوصا عمر ، فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حمص رجلا اسمه عمير بن سعد ، فلما انقضت السنه كتب اليه : (أقدم إلينا) فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشيا حافيا ، عكازه فى يده ، وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : ياعمير أ أجبتنا أم البلاد بلادسوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرّها بقرابها ، فقال : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل به طعامى . فقال : ما صنعت بعملك يا عمير ؟ قال : أخذت الإبل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شيء لأتيتك به ، فقال له : عد الى عملك

ولا أقتصر فى هذا المقام على ما سمعته الآن ، وأقفى بذكر المبذرين ، فأقول مستعينا بالله :

المبحث الثانى

فيما طرأ عليها بعد ذلك فى أيام بنى أمية وأيام بنى العباس وكيف أزالها التتار وفى الدولة الأندلسية وكيف أزالها فرديناند وإيزابلا فاما ما طرأ عليهم فى أيام بنى أمية وأيام بنى العباس فهاك بعض ما جاء فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة الأحقاف عند آية أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ

شيوع التبذير فى الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكا سياسيا ، فلما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها عاد الناس الى فطرتهم أيام عثمان سنة ٢٣ ـ ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديدا مثل عمر ، وكان مع ذلك أمويا ، فاعتز الأمويون

به ، وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التى كانت لهم فى الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم منهم ، فأخذ عثمان يولى الأعمال رجالا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا يأسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت فى أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبلغت غنائمهم منها (٢٫٥٠٠٫٠٠٠) دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوّجه ابنته ، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فازدادوا طمعا فى حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبى سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان فى مقدّمة الذين أبطلوا قاعدة عمر فى منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقرّوا الأرضين فى أيدى أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قوّاد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفرّ البطارقة ، أو قتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمّها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقر معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم فى البذخ واتخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف فى كتابه هذه المزارع وأنه لا مالك لها ، وليست هى من قرى أهل الذمة ، ولا للخراج ، وسأله أن يقطعه إياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله فى الشام راتبا مقداره ألف دينار فى السنة ، وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال فى تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبسا على فقراء أهل بيته فجرأه ذلك التمادى فى اقتناء الأرضين وبيعها فى أيام خلافته ، والأذن للمسلمين فى ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واختزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠ر٠٠٠) دينار و (١ر٠٠٠ر٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما (١٠٠ر٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا وإبلا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفا شائعا .

ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين ممالم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال بمقابل الايجار أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية فى هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفى حكاية أبى ذرّ الغفارى ما يغنى عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغاليا فى التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : (أنّ المسلم لا ينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله ، أو يعدّه لكريم) . وكان يقوم فى الشام ويقول : (يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) ، وما زال يقول ذلك ويكرّره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء ، فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر من شكايتهم ، لأن أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء فى دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبو ذر : إن كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين ، وإن كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين ، فعظم ذلك على معاوية فأراد أن

يوقعه فيما يوجب محاكمته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يغره بها ، ثم يتهمه باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير الى أبى ذرّ فرّقها حالا مع أنها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية فى الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ ؛ وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفقه فى ساعته ، فلم يرَ معاوية سبيلا إلا اتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبى ذرّ » ، فكتب إليه : « احمله على قتب بغير وطاء » ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بنى أمية وخروجهم من الحق ، فأخرجه عثمان من المدينة إلى الربذة بالعنف ، وظل هناك حتى مات ، فنقم المسلمون بموته على عثمان فى جملة ما نقموه عليه إلى مقتله اه

هذا ماجاء فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » وربما كان ما جاء فيه من أمر عثمان رضى الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضى الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمته ، فلنفصل الكلام فى أيام بنى أمية :

الاسراف أيام بنى أمية

وعصرهم سنة ٤١ — ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محتقرة لسواهم ، ومن أسلم من غير العرب يسمونهم الموالى

اعلم أن بنى أمية وان فتحوا البلاد شرقا وغربا فإن عمالهم أخذوا فى الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفى كلام القاضى أبى يوسف فى عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج مايبين الطرق التى كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغنى أنه قد يكون فى

حاشية العامل أو الوالى جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك التمامات ، فليسوا يحفظون مايوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أو من أموال الرعيـة ، ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى ، ويقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع فى الاسلام.

وكان شأن بنى أمية وعمالهم وجباتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه فى أيام سميه وجده لأمه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره إلى العمال بابطال تلك المظالم ، وعينها بأسمائها مفصلة ، و إبطال لعن علىّ على المنابر ، وكان أهله قد اقتنوا الضياع ، وأخذوا كثيراً منها من أهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت ، فأتاه المظلومون ، وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولو أن الحكم على ابنه أو اخوته أو أبناء عمه . فقال له بعضهم وكيف تصنع بولدك ؟ فبكى حتوا وقال : أكلهم إلى الله ، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها مظالم ، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال ، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها ، فأتته ، فقال لها : إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة

ولما رأى الموالى عدله وتقواه ، اغتنموا الفرصة ، وشكو اليه ما يقاسونه من الذل والضغط ، وكان الجرّاح بن عبد الله الحكمى عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فى الشام وفدا رجلين من العرب ، ورجلا من الموالى ، فتكلم العربيان ، والمولى ساكت ، فقال له عمر : أما أنت من الوفد ؟ قال بلى ، قال فما يمنعك من الكلام؟ فقال : يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق وصلهم قد

أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان ، فقال عمر : أحر بمثلك أن يوفد ، وكتب إلى الجرّاح : انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية ، فرغب الناس فى الإسلام ، وتسرعوا إليه ، فقيل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام تفورا من الجزية ، فامتحنهم بالختان . فكتب الجرّاح إلى عمر بذلك ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ، ولم يبعثه خاتنا

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب إليه : أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل . فكتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغنى كتابك : وقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف ضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ؛ فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه .

وقس على ذلك عماله الآخرين ، فانه عزل من لم يوافقه منهم ، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول اصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال ، وما فى بنى أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات . فقتلوه بالسم ، ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين . وإذا قالوا العمرين أرادوه وعمر بن الخطاب .

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التى قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شئونها ، ولو أتيح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه فى عهد ابن الخطاب لأمحت مظالم بنى أمية ولكنه جاء فى غير اوانه . فذهب سعيه هدراً . ولما مات عادت الأمور الى مجاريها ورافقها رد الفعل . فصارت الى أشد مما كانت عليه قبله . و بالغ العمال فى الاستبداد والعسف وشددوا فى استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين الى

الالجاء أى أن يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة . أو العامل تعززاً به من جباة الخراج كما سيأتى .

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انغماسا فى الترف . وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه : سلامة وحبابة . وحديثهما مشهور وخلفه أخوه هشام وكان بخيلا وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد ابن الحبحاب كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبدالملك سنة ١٢٦ هجرية وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر . لأن الأحوال غير ملائمة وفى أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو أمية قد انغمسوا فى الترف واللهو والخمر وأصبحوا لاينظرون إلى مايؤيد سلطانهم ولا يبالون فى انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية ، أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن ، وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية (١٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم ، وهى الذلفاء ، وأصبح العمال لاهم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع والموالى ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق فقال يزيد فى نفسه : إن العراق قد أخربها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ، أدخل على الناس الحرب[1] وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ماجاء به الحجاج لم يقبل منى ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ،

(١) كسبب : هو سلب المال

فلم يرغب فى الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أواخر أيام بنى أمية ٦٠٠ر٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم فى اختزان الأموال لأنفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسرى أمير العراق فى أيام هشام ١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم أى نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لايعزلون عاملا عن عمله إلا حاسبوه على ماعنده من المال ، وكانوا فى أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاسبونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسرى ، اذ وشى به كاتبه حيان النبطى أنه فرق ٣٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بنى أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق فى أيامهم نحو ١٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، أو ٣٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١ر٧٠٠ر٠٠٠ دينار أو ٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الأخرى مما لانعرف مقداره . انتهى

هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وذهبت كأمس الدابر ، وهذا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا المذكور فى هذه الآية .

دولة بنى العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبى يمتد من أول نشأتها سنة ١٣٢ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية . والعصر الثانى وهو عصر التقهقر والانحطاط ، ويبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهى بانقضاء الدولة العباسية .

فانظر أيها الذكى إلى إسراف الخلفاء ونسائهم ، فقد جاء فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » انهم انهمكوا فى البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى ، واتخذوا القرش ، من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة ، وابتنوا المتنزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشئوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالمطعام واللباس والرياش ، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامى ، وأطلقوا أيدى نسائهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، فى الأموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدى أن لايشرك النساء فى أمره ، ومع ذلك فان الخيزران أم الرشيد كانت هى صاحبة الأمر والنهى فى أيام الهادى وأيامه . وكان وزيره تحت أمرها . فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها فى العام (١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم . وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لاتزيد على ثلثى هذا المال . فقد ذكروا أن إيراد (روكفلر) الغنى الأمريكى الشهير نحو (١٠٫٥٠٠٫٠٠٠) جنيه فى السنة . وغلة الخيزران أكثر من (١٠٫٥٠٠٫٠٠٠) دينار وقيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم . والدينار نصف جنيه . فتكون غلة (روكفلر) نحو ثلثى غلة الخيزران . وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغابة فى الاستئثار ، فلما آنست فى ابنها الهادى معارضة لارادتها . دست اليه من قتله ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وأقطع الناس ضياعها

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى . فلا غرابة فى اقتنائها الأموال فى إبان الثروة العباسية . انما الغرابة فى اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة فى عصر الانحطاط و بيت المال فارغ . فان قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت فى الدهاليز

ونحوها نحو (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار نقداً . ومالاتقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثال . من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته (٣٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار . وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠٫٠٠٠) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق . فقد كانت غلتها (١٠٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار فى العام . تنفقها فى جواريها وهو نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والدة المقتدر (٦٠٠٫٠٠٠) دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين فى العراق وغيره من بلاد الاسلام فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من إطلاق الأيدى فى أمور الدولة كما فعل المستعين العباسى (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد اتامش وشاهك الخادم فى بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا . فكانت الأموال التى ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد (وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر) أو اذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلانى درّاً فباعه بعشرين ألف دينار أو اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء

ناهيك بما كان فى بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتى كن يتولين شئون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء وفى أعمال الدولة كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة فى أيام المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ولم يكن لأولئك القهرمانات

سبيل للانفاق لولا مافى قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم [١]

الجوارى والغلمان

وفى مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور فى داره كسره على حامله ، ولكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحا للغناء واللهو ، قالوا انه كان فى قصر الرشيد ثلثمائة جارية مابين جنكية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلا عمن كان فى قصره من الندماء والمصاحكين كالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى [٢] وابن ابى مريم المدنى [٣] وغيرهما ، وما من جارية إلا وثمنها ألف دينار ، أو عشرة آلاف دينار [٤] إلى مائة ألف دينار غير مايقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلى وهى شىء كثير ، فقد اشترى الرشيد خاتماً بمائة ألف دينار [٥] وقس على ذلك لعله مبالغة بالنسبة لنحو الرشيد .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والألوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١،٠٠٠) خصى من الروم والسودان [٦] غير مايقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقد بنى المعز داراً فى بغداد أنفق عليها ١٣،٠٠٠،٠٠٠ درهم [٧] وبنى الأمين قصوراً فى الخيزرانية أنفق عليها ٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم [٨] واصطنع فى دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة

---

(١) إن هذا القول منقول من كتاب (تاريخ التمدن الاسلامى) وقد عزاه الى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : «١» المقريزى «٢» الجزء الاول من كتاب التمدن الاسلامى «٣» ابن الأثير «٤» الفخرى «٥» ابن عساكر نسخة كرايمر «٦» كتاب الخراج لأبى يوسف «٧» اليعقوبى «٨» المستطرف «٩» المسعودى «١٠» الماوردى «١١» ابن الفقيه «١٢» الطبرى «١٣» القرمانى (٢) إعلام الناس ٩٧ (٣) الطبرى ٧٤٣ ج ٣ (٤) ترتيب الدول ١٢٦ (٥) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ (٦) الفخرى ٢٣٤ (٧) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ (٨) ابن الأثير ١١٢ ج ٦

الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمير مطايا ... لم تسخّر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابُه سِرْنَ براً ... سار فى الماء راكباً ليثَ غاب
عجب الناسُ إذ رأوك على صُو ... رة ليثٍ تمرُّ مرَّ السحاب
سبّحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العُقاب
ذات زَور ومِنسر وجَناحيـ ... ـن تشُقّ العُباب بعد العُباب
تسبِق الطيرَ فى السماء اذا ما ... تعجلوها بجيئة وذهاب

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء مايشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال فى أيام الزهو كأن الأموال تحولت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا ، ويقدمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند [١] ولكن الغالب أن تبذل الأموال فى سبيل الحصول عليها اما رأساً إلى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠ر٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠ر٠٠٠ دينار [٢] أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون فى أثناء وزارتهم أضعاف مابذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب مايحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقانى وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته فى قبول الرشوة انه ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة ، وأخذ من

(١) ابن الأثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ (٢) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦

كل واحد رشوة ، فانحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا فى بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغى ان أردتم النصفة أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير ، فهو الذى ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذى جاء فى الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقون إلى الوزير ، ففرقهم فى عدة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لايملّ من الرقاعه يولى ثم يعزل بعد ساعه
ويدنى من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعه
إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه[1]

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفى الدولة ضريبة فى كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم . على أن بعضهم ، وهو نادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفاً ، ذكر الفخرى أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠,٠٠٠ دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لاأقبلها ، ولا أثقل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها منديلا وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل إلى خزانة الديوان وصح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر[2] .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا فى أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعىّ فى الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا فى العراق ، أو فى مصر ، أو فى الأندلس فقد خلف المارداني وزير بنى طولون بمصر من الضياع الكبار ماقلما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠,٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ،

(١) الفخرى ٢٤١ (٢) الفخرى ٢١٦

وحج ٢٧ حجة أنفق فى كل منها ١٥٠٫٠٠٠ دينار[١] . ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان فى جملة أملاكه أقطاع فى الشام دخله ٣٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة ، وخلف أملاكا وضياعا وقياسر ورباعا وخيلا وبغالا ونوقا ، وغير ذلك ماقيمته ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار غير ما أنفقه فى تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٫٠٠٠ دينار وخلف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية[٢] وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمى مالم يسمع بمثله وذلك ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار عينا[٣] و ٢٥٠ أردب دراهم نقد مصر ، و ٧٥٫٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقى ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٫٠٠٠ دينار ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه ، و ٥٠٠ صندوق كسوة ماعدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد مالايحصيه عد[٤]

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقرى ، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة[٥]

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى إبان ثروتها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ، ويحتالون فى استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد ، بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها ، ليخلصوا أنفسهم من خراجها أو عشورها !

« كانت المدنية محصورة فى المدن دون القرى عملا بقاعدة التمدن فى تلك الأيام

---

(١) المقريزى ١٥٥ ج ٢ — (٢) المقريزى ٦ ج ٢

(٣) وهو فى الأصل ستمائة ألف ألف دينار ، ولابد من خطأ تطرق إلى نصه . إذ لايعقل أن يجتمع هذا المال عند واحد ، وهو يفوق مجموع خراج مصر مائة سنة ، فالارجح أن يكون المراد ستين الف ألف دينار كما قلنا ، ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير ، لأن أموال مصر قلما قدرت بالدراهم

(٤) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ (٥) نفح الطيب ١٦٨ ج ١

وهى أن تكون الثروة والأبهة حيثما يكون ولاة الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعماله ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون فى المدن ، وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مغارس لاعمارة فيها . ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن فى غير المدن

ففى هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس فى الرخاء والرغد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والأقمشة ، وفى هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة ، أو أمراؤه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود ، و بيت ماله حافلا بالنقود ، والبرامكة يبذلون المئات والألوف ، كان تجار بغداد فى نعمة وثروة ، وخصوصا باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية فى عهد الترف والبذخ فقد رأيت فى بعض ماتقدم أن جوهريا بالكرخ فى بغداد ساومه يحيى البرمكى على سفط من الجوهر بمبلغ ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فلم يبعه [١] وهو جزء مما فى حانوته فما قولك بسائر مافيه ، وهنالك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [٢] وكان فى بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة [٣]

فلما سمع صاحبى ما تقدم . قال : إن من أعظم نعم الله عز وجل على أممنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ و الفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم ، وَذاقوا حلو الزمان ومرّه ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، ويفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، ويذكرونهم بما كان منهم من الخطأ والخطل ، وهنالك يرجع

(١) الطبرى ٢٠٧ ج ٣ (٢) — ابن الاثير ٣٣ ج ٧ (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩

للأمم الإسلامية مجدهم ، ويعلو شأنهم ، ويذهب غنهم الخزى فى الحياة الدنيا .

هذا وانى أرجو أن أشرح بقول جامع فى هذه المسألة ، وهى أن (سقراط) كان يحرّم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أو يكون لهم مال ، فاذا أفضت فى ذلك وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك خير معوان على تذكير أممنا الاسلامية بعدنا . فقلت : جاء فى الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب فى الأرض » ما نصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الإسلام فى جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق والشام ؛ لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوّة ، ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم إذا بنوا بلدا فى دار الفتح أن لا يبنوه فى مكان يحول بينه و بين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزّق ، ورغبة منه فى استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم على أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرار مافيها من غلة أموال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد فى منعهم اعتمادا على الحديث القائل : « السكة (المحراث) مادخلت دار قوم إلا دخله الذل » [1] ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التى بنوها فى صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا أو معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال [2] ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يترك فى جزيرة العرب دينان [3] وأن لا يأتى الحج أحد من المشركين [4] فأخرجهم وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ (٢) الجزء الاول من كتاب تاريخ التمدن الاسلامى
(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ١ (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣

عونا لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى

كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى فى أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالألوف ، ويباعون بالعشرات اعتبر ما كان من ذلك فى الصدر الأول ، وما تبعه من الفتوح البعيدة فى أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية فى افريقية ٣٠٠ر٠٠٠ رأس من السبى ، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠ر٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبى أعظم من هذا [١] ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠ر٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم [٢] ، وقس على ذلك غنائم قتيبة فى بلاد الترك وغيرها

و بلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة فى الهند ١٠٠ر٠٠٠ نفس [٣] ، وفى وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن ينال سبى المسلمون ١٠٠ر٠٠٠ رأس غير الدواب [٤] وفى جملة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة فى السرعة كما فعلوا فى واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أو عشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين فى واقعة الارك بالأندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم [٥] والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم .

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان [٦] و بلاد البربر وغيرهما

---

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ — (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤
(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ — (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ —
(٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ (٦) المقريزى ٣١٣ ج ١

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالافرنج ، ويقال أن أول من استنبطها (سميراميس) ملكة أشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفى التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة فى أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الرومانى الشهير فى عهد يوستنيان فى القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية فى ميسيا الشهير الذى قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ماذكره فيه من القصائد ، وممن اشتهر من الخصيان فى الاسلام كافور الاخشيدى صاحب مصر واشتهر منهم فى الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان فى أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا .

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان فى دور النساء غيرة عليهن ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان فى دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه « فتح » واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع أن الشريعة الاسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة فى أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا فى أوائل أدوارهم شمالى البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت يومئذ بقبائل السلاف أو (الكلاف) والسرب والبوهيم والملات وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين فى طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة

من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فأسبانيا إلى افريقية ومنها إلى الشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد فى أيدى المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الأسود ، ولا يزال أهل جورجيا والجركس إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ، فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الآرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث ، حتى يحطوا رحالهم فى فرنسا ، ومنها ينقلونهم إلى أسبانيا (الأندلس) ، فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للتسرى وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعربها العرب صقلبى وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال ، وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة فى تاريخ الاسلام، ويرادبه الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ، وفعل الافرنج نحو ذلك أيضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ، ومنها (Esclave) فى الفرنساوية و (Sklave) فى الجرمانية و (Slave) فى الانكليزية .

مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء ، أو الأمراء كانوا لاينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى فى المدينة معدن الغناء فى ذلك العصر [1] وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم [2] وصرفهم عن أمور دينهم ، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الغرام » .

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك ، وكان يكره الغناء سمع مغنيا فى عسكره ،

(١) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ (٢) الأغانى ١٣٠ ج ٢

فطلبه ، فجاءه به ، فقال : أعد ماغنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكأنها جرجرة الفحل فى الشول ، وما أحسب أنى تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به فخصى [١]

وسليمان هو الذى أمر بخصى المخنثين فى المدينة لمثل هذا السبب ، قيل إنه كان فى بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هى تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه ، فتجاهل ، وفى الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهيه ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذى شغلت الجارية بغنائه فى الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدر الجمل فضيعت الناقة ونب التيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصى ، وسأل عن الغناء : أين أصله ؟ فقيل فى المدينة بجماعة المخنثين وهم أئمته والحذاق فيه ، فكتب إلى عامله هناك . اخص من قبلك من المخنثين المغنين ، فخصاهم [٢]

على أن المتهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجر إليه الغناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن يزيد الذى ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه : « إياكم والغناء ، فانه ينقص الحياء ، ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ، ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء ، فان الغناء رقية الزنا ، وانى لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلى من كل لذة ، وأشهى إلى من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال [٣] » اهـ

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله فى أول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة فى وسط بركة كبيرة أمام إيوانها ، وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، لكل

(١) الكامل للمبرد ٣٣٧ (٢) الأغانى ٦١ ج ٤ (٣) الاغانى ١٣٤ ج ٦

غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير ، وفى جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه[1].

وفى دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق فى بنائه ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وموه سقفه بالذهب ، ذكروا انهم لما أرادوا هدمه بذلوا فى حك الذهب من سقفه ٨٫٠٠٠ دينار[2] ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقياً إلى اليوم ، وأكثرها فى قرطبة وغرناطة ، فمنها فى قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع ببنائه عبدالرحمن الداخل فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، وبنوا القصور فى داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً ، بينها قصور فخمة ، لكل منها اسم خاص ، كالكامل والمجدد ، والحائر والروضة ، والمعشوق والمبارك ، والرستق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا فى زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفى ساحاتها ونواحيها فى تلك القنوات تؤديها إلى المصانع صورا مختلفة الأشكال من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموّه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة[3] اهـ

(١) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ (٢) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ (٣) نفح الطيب ٢١٠ ج ١

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير فى غرناطة لايزال شكله محفوظا إلى الآن ، يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمر فى أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم فى أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح ، ويقال انها سميت (الحمراء) نسبة إلى لون قرميدها ، وفى هذا القصر كانت بركة السباع ، وفى وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل

وبنى المنصور بن الأعلى قصرا فخما فى بجاية أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها فى الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التى ذكرنا أنها نصبت فى قصر المقتدر العباسى عند كلامنا عن أبنية العباسيين ، وقد نظم ابن حمديس الشاعر الأندلسى قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود . قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأنّ سكونها متحرّك ... فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... اقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعا فقدّر سردها تقديرا[1]

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسى ، فانه أنفق فى بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى فى وسطها

(١) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١

قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكبا لايفتر والمأمون قاعد فيها[١]

البذخ فى الألبسة

كان المسلمون فى صدر الاسلام يتوخون الخشونة فى العيش والتعفف بالمطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى فى الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ ، وفى رجله نعلان من ليف ، وحمائل سيفه من ليف ، وفى يده درة يستوفى الحد بها[٢] وكان عمالهم فى مثل حالهم ، إذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعمم بعمامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه[٣] ، وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً فى الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب فى أثناء ذلك ، فلما رآه فى أبهة الملك أنكرها عليه ، وقال له : أكسروية يامعاوية ؟[٤] ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدنية إلى التبسط فى العيش ، والتنعم باللباس ، وأحب الأمويون الوشى كما تقدم ، وأكثرهم رغبة فى لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٫٠٠٠ قميص وشى و ١٠٫٠٠٠ تكة حرير ، وكانت كسوته إذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل[٥] ، وفى أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشى ، وزاد المسلمون بذخا فى أيام بنى العباس ورغب أهل التجارة فى حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التى يصنع فيها .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر

(١) سراج الملوك ٥٠ (٢) الفخرى ٢٥ و ٦٦ (٣) العقد الفريد ٦ ج ١
(٤) ابن خلدون ١٦٩ ج١ (٥) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢

والخز وهو ذكر الأرانب[1] والأبريسم حرير خالص والديباج نسيج حريرى موشى ، بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطنى ثمين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والاوداري والملحم والمعلم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقاقم وغيره ، يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل واللاحف والآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها

وكان الصناع يتبارون فى اتقان هذه الصنائع ، ويغالون فى ترفيعها لما يلاقونه من البذل فى ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدى الناس ، ولا سيما الخليفة وأهل دولته ، فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لايبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقى خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من أقتنائها وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة فى البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء ، مثاله ما خلفه المكتفى بالله من الألبسة وهو:

عدد	
٤٫٠٠٠٫٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣٫٠٠٠	من الأثواب الخراسانية المروية .
٨٫٠٠٠	من الملاءات
١٣٫٠٠٠	من العمائم المروية .
١٫٨٠٠	من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٫٠٠٠	من البطائن التى تحمل من كرمان فى أنابيب القصب .
١٨٫٠٠٠	من الأبسطة الأرمنية .

(١) ألف باء ١٨٧ ح ٢

وتوفى ذو اليمينين وفى خزانته ١٫٣٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقى ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا فى تركته ألف سروال ديبقى بألف تكة حرير . اه

الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا فى خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش مايعد بالألوف من ذلك ١٠٠٫٠٠٠ قطعة خسروانى أكثرها مذهب ومراتب خسروانى وقلمونى ثمن الواحدة ٣٫٥٠٠ دينار واجلة معمولة للفيلة من الخسروانى الأحمر المذهب ، و٣٫٠٠٠ قطعة خسروانى أحمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ؛ وكل بيت يشتمل على مساندة ومخاده ومساوره ومراتبه و بسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج إليه

ومن أدلة الترف والاسراف فى هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهبا منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر ؛ و بستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر اه

أثمان الجوارى

والاستكثار من الجوارى فى أوائل الاسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن؛ ويغالون فى رفع أثمانهن ، وكانت أسعارهن تتضاعف إذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء ، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف ، أو مائة ألف دينار ، وأول من بذل فى هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون

درهم[١] (نحو ٧٠٠ر٠٠٠ دينار)، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار[٢] وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلى بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادى أن يبيعه جارية له اسمها «بذل»، فأبى، فأمر فأوقروا قاربه ذهبا، فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم[٣] أى أكثر من مليون دينار، وهذا إذا صحّ كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم فى أثمان الجوارى. وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى سلامة المغنية بعشرين ألف دينار، وبيعث الجارية «ضياء» بخمسين ألف دينار، واشترى جعفر البرمكى جارية بأربعين ألف دينار، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها «الصالحية» بعشرة آلاف دينار، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال فى اقتنائهن اهـ

سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتى خرابات البرامكة، ويبكى وينتحب طويلا، ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف فبعث فى طلبه، فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو، وبم استحق البرامكة منه ما يصنع؟ فقال الرجل وهو غير هائب: للبرامكة عندى أياد خضرة، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها، فقال: هات، فقال أنا المنذر ابن المغيرة الدمشقى، نشأت فى نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع دارى، وأملقت إلى غاية، فأشير على بقصد البرامكة، فخرجت إلى بغداد، ومعى نيف وعشرون امرأة وصبيا، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد، ثم خرجت وتركتهم جياعا لا نفقة لهم، فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زى، فجلست معهم أردد فى صدرى ما أخاطبهم به، فتحيد نفسى عن ذلّ المسألة، وإذا خادم قد أزعج القوم، فقاموا، فقمت معهم، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان، فجلسوا

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢
(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ الاغانى ١٤٥ ج ١٥

وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة خادم فى يد كل خادم منهم مجمرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فتبخروا ، وأقبل يحيى على القاضى ، وقال زوّج ابن عمى هذا بابنتى عائشة ، فخطب وعقد النكاح ، وأخذنا النثار من فتات المسك ، و بنادق العنبر ، وتماثيل الندّ ، فالتقط الناس ، والتقطت ، ثم جاءنا الخدم فى يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدى كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير فى كمه ، والصينية تحت إبطه ، ويخرج ، فبقيت وحدى ، لا أجسر أفعل ذلك ، فغمزنى بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقمت ، وجعلت أمشى وألتفت خوفا من أن تؤخذ منى ، ويحيى يلاحظنى من حيث لا أفطن ، فلما قاربت الستر رددت فيئست من الصينية ، فجئته فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فسألنى عن حالى ، فحدثته عن قصتى ، فبكى ، ثم قال علىّ بموسى ، فجاءه ، فقال : يا بنىّ هذا رجل من أولاد النعم ، قد رمته الأيام بصرفها ، فخذه إليك فأخلطه بنفسك . فأخذنى وخلع علىّ ، وأمرنى بحفظ الصينية لى ، فكنت فى ألذ عيش يومى وليلتى ، ثم استدعى أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلى هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم ، فكان يومى مثل أمس ، فأقبلوا يتداولوننى وأنا قلق بأمر عيالى ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما كان فى اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى ، فأقمت عنده يومى وليلتى ، فلما أصبحت جاءنى خادم ، فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ، وقمت والخادم يمشى بين يدى ، فأخرجنى من الدار ، فازداد مابى ، ثم أدخلنى إلى دار كأن الشمس تطلع فى جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالى يرتعون فى الديباج والستور ، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلى الخادم صكا باسم « ضيعتين جليلتين » ، وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة فى أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدنى عمرو بن مسعدة فى الضيعتين وألزمنى من خراجهما مالا يفى به دخلهما ، فكلما لحقنى

نائبة قصدت دورهم فبكيت ، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يردّ على الرجل ما استخرج منه ويقرّر خراجه على ما كان فى أيام البرامكة ، فبكى الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستأنف بك جميلا ؟ فقال : بلى ولكن هذا من بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الأيمان [١] اهـ

التهتك

وطبيعىّ فيما قدّمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شىء من التهتك والفحشاء ، وإن كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالبا فى المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم كان فى جاهلية العرب جماعة من البغايا لهنّ رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا [٢] ، ولكن ذلك شأن الحضر منهم ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبركم تكون أسباب التهتك أوفر فى المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام ، وتتوافر الثروة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الغناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط فى إبان ذلك التمدن ، فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ، ولا سيما فى العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاؤون عند الحاجة [٣] ، وتفننوا فى ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات [٤] ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم فى منع الفحشاء ، ويقاومون تيارها بما فى امكانهم [٥] ، ولما عجزوا عن كف أذاها بالقوّة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات [٦] .

---

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ح ٢ وسير الملوك ١١١ والاتليدى ١٣٢

(٢) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٣) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (٤) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ (٥) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزى ٢١٦ ج ١ (٦) المقريزى ٨٩ ج ١

وأقبح ما ظهر من التهتك فى أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم ، وظهر ذلك على الخصوص فى أيام الأمين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا فى تزيينهم وتطييبهم ، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم ، وفشا حب الغلمان فى أهل الدولة بمصر وتغزّل بهم الشعراء [١] حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدن الى التشبه بالغلمان فى اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال [٢]

وكثرة الجوارى فى بعض القصور جرهن إلى التفنن بأساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر [٣] حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء ، أو لأسباب أخر كان يجرهن إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج [٤]

ذكروا أن ابنة الأخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمى ذلك ، وكان لا يزال فى الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه ما فعلته ابنة الأخشيد استبشر . وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

فلما سمع ذلك صاحبى . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر فى آية : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدى جنودهم فأرجو أن تبين لى ثلاثة أمور : ماالذى جرى لأمم الاسلام فى الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ماجرى لملوك الاسلام فى الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ فقلت :

أولا — إن الذى جرى لأمم الاسلام فى الشرق إنما هو زوال الملك وضياع

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقريزى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧ (٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

الأمة ، وذهاب ملك العرب بتاتا ، وهذا تقدم فى « سورة الكهف » فى آية : (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) فقد جاء التتار من الشرق وعلى رأسهم جنكيز خان وخلفه ملوك منهم (هولاكو) وأذل الأمة ودمرها تدميراً لارجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جميع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لايحصره العد وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله فى زكيبة مكظوم النفس فان أردت ياصاح معرفة هذا الموضوع فاقرأه هناك[1] تحت عنوان « يأجوج ومأجوج »

يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا فى القرآن الشريف فى سورة الكهف وسورة الأنبياء قال تعالى (قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) وقال فى سورة الأنبياء (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ واقترب الوعد الحق الآية) فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا صارين صفحاً عن وجوه التفسير التى ليس لها مساس به ولنحصره فى خمسة مباحث .

المبحث الأول فى معنى لفظ يأجوج ومأجوج وأصلهم وجغرافية بلادهم .

المبحث الثانى فى افسادهم فى الأرض ويستلزم ذكر تاريخهم

المبحث الثالث فى معنى فتحت يأجوج ومأجوج وذكر خروجهم وتعيين زمنه وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك .

المبحث الرابع فى ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين .

المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق .

المبحث الأول — أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح مأخوذان من أجيج النار وهو ضوءها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم وذكر بعض المدققين فى البحث عن تأصيلهم ان أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له ترك وهو نفس الذى سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا ان المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج

(١) هذا الموضوع فى سورة الكهف منقول من هذا الكتاب فى طبعته الأولى

ومأجوج وهم كانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا تمتد بلادهم من التيبت والصين إلى المحيط المنجمد الشمالى وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان كما فى فاكهة الخلفاء وابن مسكوية فى تهذيب الأخلاق وفى رسائل اخوان الصفا فقد ذكروا ان هؤلاء هم يأجوج ومأجوج

المبحث الثانى — الكلام على افسادهم فى الأرض . وقد ذكر المؤرخون ومنهم الافرنج ان هذه الأمم كانت تغير قديماً فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدوا وقلبوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميراً وجعلوا عاليه أسفله فهم مفسدون فى الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ فقد ذكروا ان منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا فى قديم العهد فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التى كانت مقر الأنبياء وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديماً قبل نزول القرآن وكذلك ورد ذكرهم فى القرآن كما تقدم وفى بعض الأحاديث أيضاً ثم انهم لم يزالوا فى حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة إذ ظهر منهم رجل يسمى تموجين لقب نفسه جنكيز خان وقال مؤرخو الافرنج ان معناه بلغة المغول ملك العالم ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذ أعد نفسه فاتحا لكل العالم وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى فى أوائل القرن السابع من الهجرة فانه بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه أخضع الصين الشمالية أولا ثم ذهب إلى بلاد الاسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين ابن ارسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئاً وسقطت الدولة بعد حرب مكثت عشر سنين ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع مالم يسمع مثله فى تاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة

ولا صبي ولا صبية فقتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أواعا ولقد حسبوا القتلى فى مدينة خوارزم وحدها فلحق كل واحد من جموع جنكيز خان التى لاتحصى عداً أربعة وعشرون قتيلا وأحرقوا المدينة وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً فضلا عما فعلوه بسمرقند و بخارى وغيرها وفتكوا بأهل نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات كالقطط والكلاب وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى فى واقعة مرو فكانوا مليونا وثلاثماية وثلاثين ألفاً هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء وقس على ماذكرناه جميع البلاد التى سنذكرها فلقد أخضعوا بلاد الهند ومات جنكيز خان بعد قفوله من غزوها ولما ملك بعده ابنه اقطاى أغار ابن أخيه المدعو باتو على الروس سنة ٦٢٢ ودمروا بلونيا و بلاد المجر وأحرقوا وخربوا ومات اقطاى فقام مقامه جالوك فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية ثم مات جالوك وقام مقام ابن أخيه منجو فكلف أخويه كيلاى وهولاكو أن يستمروا فى طريق الفتح فيتجه الأول إلى بلاد الصين والثانى إلى الممالك الاسلامية وقد فعل كل منهما ماأمر به فأخضع كيلاى بلاد الصين وزحف هولاكو على الممالك الاسلامية ومقر الخلافة العباسية وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات فلم يفلح وأخذت بغداد عنوة فى أواسط القرن السابع من الهجرة وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهراً وهو أمر معلوم مشهور وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم وهذا الخليفة بعد ماأحضر لتسليم مالديه من الكنوز التى لاتحصى وقد ورثها عن أجداده ذبح وعلقت جثته فى ذنب حصان وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد و به انتهت الخلافة العباسية ببغداد ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة كبلاى بالصين والمغول وملك جافاتاى أخو اقطاى لتركستان وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطئ نهر فلجا وصارت الروسيا تدفع الجزية اليها زمنا

طويلا وانضمت بلاد الفرس إلى هولاكو الذى دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول إلى بلاد الشام

المبحث الثالث — قوله تعالى « حتى إذا فُتِحَت يأجوجُ ومأجوجُ » أى فتحت جهتهم على أحد تفسيرين ولقد فتحت تلك الجهة فى أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا فى التاريخ وخرج جنكيزخان وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا وقد ورد فى بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم (اتركوا الترك ما تركوكم فان أول من يسلب أمتى ملكهم بنو قنطوراء) أى الترك مع ملاحظة ما ذكرناه فى التاريخ أنه لم يسلب الأمة الاسلامية ملكها الا هؤلاء وقد ورد أيضا فى حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون فى الشام وساقتهم بخراسان فهذه إشارة الى سيرهم واتجاههم وطريق ومنتهى ملكهم إذ لم يتجاوزوا الشام إلى مصر ولا افريقيا وقد ورد أيضا أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس ومن العجيب أن جنكيزخان وقومه وذريته طافوا الأرض شرقا وغربا ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الأماكن الثلاثة فما أجلها معجزة ظاهرة ثم أن جنكيزخان هو المراد بحديث (يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها » وقد حمله بعض العلماء قديما على جنكيزخان المذكور وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره فى التاريخ قتل رسل جنكيزخان والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده فاغتاظ جنكيزخان وكتب اليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه ما معناه .

كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى وأخذتم تجارتى ومالى وهل ورد فى دينكم أو جاز فى اعتقادكم و يقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الاتقياء أو تعادوا من لاعاداكم وتكدروا صفو عيش من صادقكم وصافاكم أتحركون الفتنة النائمة وتنبهون

الشرور الكامنة أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم أوما أخبركم مخبروكم و بلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم (اتركوا الترك ما تركوكم) وكيف تؤذون الجار. وتسيئون الجوار ونبيكم قدأوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهده أوصابه ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه (الا أن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعى الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر ما بطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج . وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولابد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله فى بريته فان به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب انتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان — وانظر كيف كان صريحا بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان وهذا مصداق مارواه البخارى بسنده عن ام حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب ابنة جحش . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بأصبعه الابهام والتى تليها قالت زينب ابنة جحش فقلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون فقال نعم إذا كثر الخبث . ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ الى القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخره وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب أن هؤلاء الاقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم .(انظر هذا المقام فى تفسير سورة الكهف فان هذا السد أصبح مما كشف حديثاً)

وصار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد فى المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التى لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ماجاورها من بلاد خوارزم وهذه من أجل المعجزات

ثم إنه كان بين بلاد جنكيزخان ومملكة خوارزم مملكة تسمى انذار كأنها حد فاصل بين الدولتين أوسد بين الأمتين فغزاهم الملك السلجوقى واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر . وابتهجت القلوب بهذا الفتح وكان إذ ذاك

فى نيسابور عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الارض بدموعهما فسئلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله فقالا وأنتم تعدون هذا الثلم فتحاً وتتصورون هذا الفساد صلحاً وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج ونحن نقيم العزاء على الاسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين (ولتعلمن نبأه بعد حين) فهذا تصريح من هذين العالمين بما أردناه ونص فى فحواه ولاضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره وانظر كيف ظهر صدق كلامهما فى حينه كما قدمناه وظهر التتر وأفنوا المسلمين وماج الناس بعضهم فى بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فراراً وكذلك أهل أوربا

المبحث الرابع — قوله تعالى (من كل حدب ينسلون) الحدب ما ارتفع من الأرض و ينسلون أى يسرعون فى النزول من الآكام والتلال المرتفعة وهذه الحالة منطبقة تماما على قوم جنكيزخان المتقدمين فانهم باجماع مؤرخى العرب والأفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدبها كما ذكرنا

المبحث الخامس — قوله تعالى واقترب الوعد الحق أى القيامة و يؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى . (ونُفخَ فى الصُورِ فجمعْنَاهُم جمعاً) فى مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة ولكن هذا لا يدلنا على أنه لافاصل بينه و بين الساعة ألا ترى قوله تعالى (اقتربَت الساعَةُ وانشقَّ القمر) وقوله صلى الله عليه وسلم « بعثت انا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى ومع ذلك فقد مضى نيف وثلثمائة وألف سنة فهكذا قال فى آية يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فكلاهما اقتراب . ورب قائل يقول أين الاقتراب فى الموضعين قلنا معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناوله الاحصاء وما بقى من عمر الأرض الطبيعى قدره يسير جدا بالنسبة لذلك ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بعداً و يعده الله الباقى الدائم قريباً قال تعالى : (إنَّهُمْ يَرونهُ بَعيداً ونَرَاه قَرِيباً) فآلاف السنين لا تنافى القرب مهما امتدت وطالت بنسبتها الى الزمن كله إذ من البديهى أن الآلاف لا تذكر فى جانب الملايين ولذلك ورد فى حديث أبى سعيد الخدرى

رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ليحجن البيت وليعتمرن بعدخروج يأجوج ومأجوج وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا و يعبدون الله عز وجل وأما صفاتهم المشهورة فى القصص و بعض الآثار فكثير منها لاأصل له أو ضعيف الرواية وليؤول الصحيح منها أن خالف حقيقة هذه الأمم على قاعدة وجوب تأويل الدليل النقلى ليوافق العقلى الذى قطع ببرهانه فاذا صح أن الأرض اكتشفت بتمامها وأن الربع الشمالى لم يبق فيه احتمال لوجودأمة مجهولة وجب المصير الى ماقلناه فى فى هذا المبحث أو نحوه هذا ما عن لى الآن وهذا ما كنت أجبت به عن سؤال الأديب الهندى فى حينه من أمد غير بعيد فى مجلة الهلال فى آخر القرن التاسع عشر

ثم قارنت بين حديث البخارى المار وهو قوله عليه الصلاة والسلام « ويل للعرب من شر قد اقترب قد فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج الخ » فيما ذكرناه مع اضطرابه وخوفه الشديد و بين كلام علماء الجغرافيا فى نحو القرن الثالث والرابع فزاد يقينى بما كتبت ورأيت ان هذه البلاد كانت معروفة عندهم باسم يأجوج ومأجوج وزاد استغرابى جداً لمعجزة ظاهرة واضحة قد خفى رسمها عنا وكيف تحقق هذا القول فى الخارج وجاء مصداقا للقرآن والحديث فالحق أقول أن هذا النبى والكتاب المنزل عليه لمايدهش العقول وكيف رأينا تلك الجهة تسمى باسم يأجوج ومأجوج فى كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ولكنه اجمال لايشفى غليلا ولايؤخذ حجة لاجماله ولقد فصل فى رسائل قديمة الفت فى نحو القرن الثالث والرابع وذكر فيها أن أمة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالى الى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعا وكانوا كفاتحين للعالم كله فكانوا أشبه بأهل أوربا الآن فكانهم أخلفوهم فى عملهم وفتوحاتهم وسيطرتهم على العالم ومن المقرر أن بينهم نسباً ورحماً فانظر كيف أصبحت دولتهم الآن فى قبضة الصين بل هم الجزء العظيم منهم وها هى منشوريا تتجاذبها الروسيا والصين و بلادهم

تبلغ فى العرض نحو ثلاث وعشرين درجة كما رأيت وتلك البلاد تسكن الاقليم الرابع والخامس والسادس والسابع من الاقاليم التى اعتبرها الاقدمون هى الحدود المعروفة لاقسام الأرض وهى مبنية على مقادير العرض الذى لا يتغير بتغير الأيام والأمم وتداول السنين مما اختطه الملوك الأقدمون والحكماء الغابرون والأنبياء السابقون الذين طافوا الربع المسكون من الأرض وغابت عنهم أمريكا والاقيانوسية لبعد المواصلة وشقة السفر وحيلولة الجبال والبحار وذلك مثل الاسكندر الرومى اليونانى وتبع الحميرى وأفريدون النبطى وأزدشير بن بابكان الفارسى وسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام الاسرائيلى وغيرهم ولما عثرت على هذا علمت علماً يقيناً أننا معاشر المسلمين الآن والدولة الاسلامية أما فى حال الهرم وهى وقت نسيان كل معقول ومنقول وأما أطفال ولدهم شيخ كبير فهم يبحثون على آثاره .

فيا عجبا كيف كانت هذه البلاد معروفة باسمها وصفتها ودرجاتها عرضا وطولا ونحن لا نعلم منها شيئا ، وكيف يخبر نبينا الصادق بهذا الأمر ويحصل فى الوجود ونجهله نحن

ولعمرى أنها لمعجزة ظاهرة واضحة ولقد كان الأقدمون يجعلون علم الجغرافيا مما يجب النظر اليه فى الكون مثل قوله تعالى (وفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ) بل لو لم يكن للنبى معجزة سوى هذه التى ظهرت بالتاريخ والجغرافيا لوفت بالمراد وانى لأعجب من ان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ويل للعرب من شر قد اقترب الخ ثم ان هؤلاء أزالوا دولة العرب وانتهت الدولة العباسية بقتل المعتصم آخر ملوكها وبقى خليفة رسمى فى مصر وعند قرب الألف من السنين زال حكمهم مرة واحدة وتفرق الاسلام شذر مذر وما حفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب ، وأما أولئك التتار فهم كونوا أغلب المسلمين فى الهند والصين وأغلب آسيا فكما ورثوا أرضهم وديارهم ورثوا دينهم وهذه المسئلة وان كانت بسيطة فعلاقتها بعلم العمران أمر عظيم جداً والحق ان علم الحديث أوضح كيف تخرب الدول وعبر عنها بأشراط

الساعة وسماها العلماء الأشراط الصغرى إذ الكبرى بخراب الأرض كلها والصغرى بأبادة أمة أو أمم فاذا جاءت الطامة الكبرى زالت الأمم من الوجود

ولقد أوضح الرسول الصادق أموراً كثيرة لايسع المقام ذكرها الآن ولنقصر عنان القلم ففيما ذكرناه عبرة وتذكرة انتهى الكلام على المقام الأول

ثانيا — ان الذى جرى لأمراء الأندلس هو الذى جرى لملوك العباسيين فى الشرق ، فانظر ماجاء فى كتاب (غادة الأندلس) المؤلف حديثاً فى عصرنا ، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (برّاقا) قابل الأذفونش فى رومه فى الفاتيكان ، وجاء أيضاً معهما دوق فينيزيا فقال له ابن اذفونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوروبا وشاورهم فى استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدا لنا » . فقال براق : « إن الأسد لايصاد إلابالمكر والخديعة ، وقديستعين الصيادون بالخمر ، ولايفل الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقاً فى أقل من لمح البصر . فقال البراق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريتهم ، ولقد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب ، فهم يخدعون بسهولة بالظواهر المموّهة ، فاجعلوا بينكم و بينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لرهبانكم طريقا بها يبثون التعاليم بين أطفالهم ، فان لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون الحمية الدينية التى تحببهم فى الحرب ، فأما حرية التعليم فانها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحب معلميهم ، و يبتعدون عن محبة وطنهم ، فأما حرية التجارة فهى التى تضعضع شيئاً فشيئاً تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة الخمر ، فهى الآن محرمة ، فمتى شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعفت منهم العقول والجسوم ، وفشا بينهم الشر ، وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم ، فيساقون كالأغنام ، ولاتنس ياحضرة الدوق أن التأنق فى النعمة والبذخ ، والاسراف فى الشهوات ، و إهمال سير

الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية

فلمعت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس . وشكر برّاقا على إخلاصه . وفى الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا و بارونات أوربا ببرّاق وتحادثوا ملياً وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين إلى أمراء الاسلام بالاندلس فوصلت شروط طلب الهدنة إلى مالك ابن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليطلة و بلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، فحضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى ابن أبى عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس تعال أفراسهم ذهب إبريز ، فنزلوا جميعا برصافة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصراً فخماً تحيط به الحدائق والجنات ، قد جعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقر العين منه ناظر بهج الجوانب لو مشى لاختالا

فقبلوا شروط الصلح فعارضهم قيس بن مصعب و بقى الأمراء فى ضيافة مالك ابن عباد شهراً :

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولائم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن بنى عامر صاحب بلنسية فانه بقى مع الأمير يقضيان الزمن فى اللهو والصيد والخمر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم ، فانحطت الدولة بذلك ، وزاد فى افسادها تلك المعاهدة ، فانتشر الرهبان فى أنحاء الأندلس وأخذوا يبثون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون فى أوقات خاصة للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين ، وكانت متنزها جميلا يؤمّه العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : لقد جددوا فى عام هذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاما لمن

شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى إذ أنقصت تعاليمها تماماً إلا ما يختص بالشريعة) فأقبل العرب على تلك المدارس، واختلطوا بالقسيسين والرهبان وتعلموا لغاتهم وجاروهم فى عوائدهم وأخلاقهم ؛ وزاد الأمر فى بلنسية فان المبشرين والمعلمين تدخلوا فى كل شىء لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافرى) أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة » .

ولقد لعب برّاق بن عمار دوراً مهما هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية المسمى (جندل ابن حمود) لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسر خفى فى نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطاباً من البابا وعده فيه بأنه يؤمله أن يجعله ملكا مستقلا بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته فى أى وقت شاء . ثم أن برّاقا وفّى بعهده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة فى قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى « شيل » يرافقه فى أيام الصيد ، وأخذ برّاق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته يا برّاق ؟ فقال اختبره إن شئت فقال مالك لتتبارزا فان غلبته فكفاه خزيا و إن غلبك جعلته من قواد جيشنا ، فتبارزا وتظاهر برّاق بأنه مغلوب ، فتكدر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برّاق وشجاعته وجعل البطريق قائداً وقرّبه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة فى البلاد ، ولا سيما الخمر

قسيس يخص شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أتاك نبأ ذلك القسيس الذى لم يكتف بالخمر الوارد من أنحاء أوربا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمراً ، وحلف أن لا يبيعها إلا لأكرم الناس عليه ،

وهم المتعلمون من أبناء المسلمين فى مدارس هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

(١) فشربوا الخمر نهاراً جهاراً .

(٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .

(٣) وحقروا عوائد آبائهم .

(٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .

(٥) وأهملت تعاليم البلاد .

(٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة فى حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك متهتكين متصابين فى عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء فان المعتصم بن صمادح صاحب المرية عشق فتاة رومية واغتصبها من أبيها فاستجار أبوها بجندل بن حمود ، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب ما لا يليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سبباً فى الحرب بينهما فطلب ابن حمود من دوق فينيزيا والبابا و بارونا ته نجدة على خصمه ، ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفناً تحمل جنداً تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صمادح ، وخربوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقام لهم ابن حمود الولائم ، وملوك الاسلام هناك ساكتون لا يبدون حراكا حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المرية ، وهذه أول نتيجة للمعاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قص القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفرق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم وتفريق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التى أنفق عليها البابا ٤٨٥ وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين)

وفى اليوم الرابع من جمادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحصين بن جعفر (وهو أحد القواد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن

عبد العزيز يراسل الفرنجة ، وأنه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحصين الوزير وكلمه فى ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ما سمعه عنه ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يساره واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الأنكار لايفيده أخبره بالحقيقة محتجاً بأن ملوك الاسلام قوم ظالمون لايبالون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لابقاء له ، والملوك يقتلون الناس ظلماً ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فبم نقاتلهم نحن ؟

فغضب الحصين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون المثل السوء فى الخيانة والجبن ، و إذا ظننت أن ابن (أذفونش) يعطيك نوالا فأنت مخدوع ، فجزاؤك كجزاء سابور ذى الأكتاف للنضرة بنت الضيزن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك الذل من العدو . وتمادى ابن ذى النون فى ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة فى نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أبيها والسيدة الجميلة بحضرة زوجها ، فيترك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملاكه

وقد قال ابن زياد : إن الذين قتلوا فى (بلنسية) ظلماً بسبب الدفاع عن العرض ١٣ ألفا ، والذين قبلوا لاباتهم الدخول فى دين الغير ٣٠ ألفاً ، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .

وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عدياً خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهز جيشاً لاسترجاعها ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقة) و (مينورقه) فاضطر أن يبقى الجند فى قرطبة للدفاع عنها . ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم أن ابن أذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر بأحراق ابن ذى النون ، و يقول المؤرخون أنه إنما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يخون عدوه .

مصير براق بن عمار

ذلك الماكر الخبيث الذى مكث زماناً معظماً فى قرطبة عند مالك ابن عباد حتى

سقطت بلنسية ، وحضر قواد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا لمالك ، فطلب براق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ؛ فأرسله إلى الأمراء ليجتمعوا لمقاومة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن الأذفونش إلى جندل ابن حمود ووعده بالنصر على بقية ملوك الطوائف ؛ وأنه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفى شهر شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نرسل لك أسطولا تزحف بجنودك على قرطبة من جهة الغرب ؛ ففرح جندل بهذا الخطاب ثم توجه براق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح ؛ فسلم كتابا معه من ابن الاذفونش إلى القنبطور أى القائد ؛ وفيه : « إننا سنرسل لك ٢٠ مركبا فيها جندو يحضر ابن مردينش معاهدنا أمير اقليمه قاضى كادية معاهدنا فيكون تحت رأيك ٢٥٫٠٠٠ مقاتل ؛ ففتح أشبيلية فى شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيراً على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة فى الوقت الذى تغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت امره القائد (كولى) تبيح أشبيلية ، حلا لجنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل بن حمود الذى ظن أنه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة فأما عسكره فلما لم يرجع إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم فقتلوهم تقتيلا فنادوا الأمان

أما مالك بن عباد فانه بقى فى سرقسطه ذليلا لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن الأذفونش فانه جلس فى قصر الامارة ، واستحضر خمسين بكراً من الأشراف وقسمها وقسم الدور على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموى بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما براق الخائن فقد قتل أيضا بأمر الدوق وإلى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس اه

وجاء فى كتاب تاريخ العرب فى الأندلس للاستاذ حسن مراد ما يلى :

مما شيد عظمة الدولة لأموية الفتوحات الاسلامية لذلك العهد التى جعلت للاسلام عالما مترامى الأطراف نشر فيه مدنية وعلما ودينا جديدا ونقصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس و إذا ماراجعنا ماتقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس و يرجع فضل ذلك إلى جرأة طارق و إقدام موسى بن نصير ثم لانلبث أن نرى عودة هذين القائدين ومصير الأندلس الى الولاة وكان خروج موسى عام ٩٦ هـ واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفى تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامة ومما يلفت الأنظار :

تعدد الولاة وظهور العصبيات وهذه عادة العرب إذا ما استقر بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدى حتما الى تفرق الكلمة وضعف القوة ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا فى فتح الأندلس وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارا أشداء مخلصين وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا بتلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الاسلامية

كان من الطبيعى أن تؤدى تلك الحال الى الفوضى والثورات الداخلية وليس أدل على ذلك مما كان من أمر صميل وأبى الخطار وثورة جند الشام ومصير الأمارة الى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين وانقسام الناس على بعضهم مما جعل المؤرخين يقولون أن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس أو عديم الوجود وما كان للأمويين فى آخر سنيهم بالمشرق أن يعيروا الأندلس أى اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف

و بينما كان الأندلس تسير فى حالتها هذه دبر الأمويون بها نقل الامارة إلى

أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام واستعان بجند اليمن و بعض البربر ودخل عبد الرحمن الأندلس وانتصر على يوسف وصارت له الامارة

فشيد ملكا للأمويين دام ثلاثمائة من السنين ويقسم بحسب حالته إلى عصر التأسيس ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف فنرى الداخل يخضع الثورات بقوة السيف ويغزو الشمال حيث كان المسيحيون وتطلبت اليه الظروف أن يبنى ملكا على حكم استبدادى المكانة الأولى فيه للسيف وتبعه على سياسته من خَلفه ولما كان هذا النوع الحكومى لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهورا وإذا ما أغمد ثاروا وعملوا على استرجاع حرياتهم

تعددت الثورات فى عصر الداخل نفسه وتآمر عليه بعض رجاله وأهله ولكنه انتصر عليهم وأهم ما نجده فى عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الاندلس وانتشاره فيها مما أدى الى تطلع الفقهاء الى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك فاتخذوا من حلم هشام وطيبة خلقه فرصة ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشىء مما أرادوا قاد يحيى ابن يحيى وعيسى بن دينار وغيرهما طلبة العلم وحرضا الغوغاء على الثورة فقامت فتنة كادت تسقط أمارة الحكم ولكنه انتصر بقوته وعاقب الخارجين أشد العقاب

وبموت الحكم بن هشام وانتقال الامارة الى ابنه عبد الرحمن الثانى يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد بن عبد الرحمن ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبد الرحمن وكاد ذلك العصر ينتهى بسقوط ملك الأمويين بالأندلس وأسباب ذلك الضعف ترجع إلى :

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ونصر الخصى فتسربت الفوضى إلى البلاد فأدرك ما كان من خطئه وأسرع إلى إصلاح مافسد

(٢) وفى عهد محمد بن عبد الرحمن الذى أصبح أميرا على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالى بقصر الخلافة كره الناس الامارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطله نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا وما لبث أن بسط موسى الثانى نفوذه على أرجونة والاقاليم الشمالية وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث ولا شك فى أن تدخل المسيحيين فى أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجاد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة قرطبة وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون باقليم ريا على مقاتلة الامارة الأسلامية ولقد سببت حروبه ضعفا شديدا لها ونتج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الامارة

(٣) كانت امارة المنذر أقصر من أن تدفع شرا أو تعيد الى الامارة عظمتها الأولى ولما آل الملك الى عبدالله ابن محمد ساءت الحال جدا : قامت العصبيات و بلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الامارة فعمت الفوضى وأصبح ملك الأمويين على قاب قوسين أو أدنى من السقوط وفى هذه الحال مات عبد الله بن محمد وخدم بلاده بذلك أجل خدمة اذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمر العصر الذهبى مدة الناصر والحكم الثانى المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبدالملك المظفر وعبد الرحمن المأمون وفى ذلك العصر خلقت الأندلس خلقا جديدا : تبدل ضعفها إلى قوة فأخضعت الثورات وأعيدت الولايات المستقلة إلى الطاعة وسارت الجيوش الى بلاد المسيحيين شمالى الأندلس وأذلتها ولم ينل منها الفاطميون مأربا وسارت البلاد فى طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة . و إذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد فانه أساء الى الأسرة الأموية بطعنها طعنة نجلاء فى صميم فؤادها وذلك بما كان من أمره مع هشام الثانى حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر

فلما عجز ثانى الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل وانتقلت البلاد الى عصر يعرف بعصر الفوضى

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموى بالأندلس إلى سقوطه الأخير ومميزات هذا العصر

(ا) تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابه على الخلافة واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة الى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لادراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة

(ج) ظهور دولة بنى حمود بمالقه وانتقال الخلافة اليها وصارت لعلى بن حمود أولا ثم لأخيه القاسم بن حمود ثم ليحيى بن على بن حمود ثم للقاسم ثانية ثم ليحيى لثانى مرة ولكنهم لم يفلحوا فى الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الامارات الى الانفصال عن قرطبة واعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف ففى عهد المستعين المروانى اقتصرت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاثة مدن حولها ثم كانت خلافة المرتضى ثم المستظهر ثم المستكفى ثم هشام الثالث ثم أمية وضعف أمرهم أدى بالناس الى التفكير فى اسقاط الأسرة الأموية نهائيا وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور

(٥) ولابد أن نضيف الى ماتقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائى نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم وانتهاز كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ويقول لينبول أن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ اهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر

(٦) ونختم جملة الأسباب بما كان من تغير كلى للخلق العربى مما أدى بهم إلى

نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والانغماس فى الترف والنعيم وكيد بعضهم لبعض وقعودهم عن نصرة بعضهم لبعض

لم يغن قيام حكم ملوك الطوائف شيئاً : كثرة عددهم دل على ضعفهم وصغر ملكهم وتنافسهم أدى إلى حرب متواصلة بينهم ذهبت بريحهم وكانت حالتهم خير أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد وفرضوا الجزية على الاسلام وأذلوا الناس وكان خلاص المسلمين على أيدى المرابطين لزمن محدود ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمر طويلا وفى آخر عهد الاسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بنى الأحمر بغرناطة فشيدت أثرا باقيا ومجدا دونه لها التاريخ فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابتها الفتن الداخلية وكانت المسيحية وصلت الى عظمة قوتها على يد فرديناند وايزابلا فاسقطا المعقل الأخير من المعاقل الاسلامية وبادت دولة الأسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للمدنية والحضارة انتهى الكلام على الأمر الثانى

ثالثا — الكلام على خراب الاندلس كما خربت بغداد والمملكة العباسية جاء فى تاريخ العرب لسديو مانصه :المبحث الرابع : فى إعدام النصارى سلطنة غرناطة من بحيث جزيرة أسبانيا

تنازع السلطنة يوسف الرابع الحمار ومحمد السابع فاستمد أحدهما دولة قسطيلة الاسلامية فأمدته بجنود نصروا على خصمه فى صحارى غرناطة سنة ١٤٣٢ فكان ذلك الاتقاد الثانى للحروب بين مسلمى أسبانيا ومراكش وأما ما كان من سادات أهل قسطيلة ومشايخ العرب الذين يودون إظهار انبأس والشهامة الحربية من الغارات على بلاد الأعداء فكانت منازلات لم تستدع حربا عامة بين هاتين الأمتين

وتولى سلطنة غرناطه سنة ١٤٦٥ السلطان حسن المعروف بالشجاعة وحب الوطن لكن رماه أهل غرناطة بالتكبر والقسوة وتغلب حب جارية نصرانية على عقله مع اختياره ولدها أن يكون خليفته دون ولده أبى عبد الله بن السلطانة زوريا فكان بينهما عداوة ازدادبها ضعف هذه المملكة سنة ١٤٧٦ بخلاف مملكة قسطيلة فان عظماءها

وان أوصلوا هنرى الرابع إلى أقصى درجات الحطة والمذلة لكنهم انقادوا بعد وفاته سنة ١٤٧٤ لابنته ايزابله المتزوجة فرديننند ملك مملكة نوارة والوارث لملك مملكة أراغون ثم كان لهذين الزوجين سنة ١٤٧٩ التصرف فى الممالك الثلاث كيف شاءا طلبا من السلطان حسن الجزية التى كان والده يؤديها فأبى قائلا للسفراء اذهبوا فقولوا لأسيادكم ان غرناطة ليس لديها ذهب ولكن حديد لأعدائها ثم دهم مدينة زهرة وأخذها سنة ١٤٨٠ فأخذ أهل قسطيلة مدينة الحما المعضدة لغرناطة التى سار عقب ذلك لأخذها فالتهبت نيران الحرب الداخلية

وعزل أصحاب الامير أبى عبد الله اباه حسنا عن السلطنة وولوا ابنه فاظهر للناس نصرته على نصارى قسطيلة فى واقعة لقصة المقتضية أنه أولى بالسلطنة من ولده ولم يجد ذلك نفعا فأقام بريف غرناطة ثم عاد إلى السلطنة يسيرا ووقع ابنه عبد الله الجبان فى أيدى نصارى قسطيلة وهم يحاربون مع فتور همتهم وأطلقوه سنة ١٤٨٤ لعلمهم ان عزله أباه يساعدهم على بلوغ مآربهم أكثر من النصر على أبيه الذى ألزم بخلع السلطنة على عمه المعروف بالزجال واحتقر أبناء الوطن أبا عبد الله فترجى فرديننند أن ينصره فأجابه وأغار حالا على مملكة غرناطة فأخذ مدائن الويجا وهزم الرجال أمام مدينة لورقة فتنازل عبد الله عن غرناطة سنة ١٤٨٦ لفرديننند الذى رخص لابى عبدالله أن يدهم جميع مملكة الزجال فحاصر أبو عبد الله ملاغة وأخذها ثم وجه عساكره إلى مدائن المرية وبازه ووراً فبذل الزجال وسعه فى القتال حتى يئس فأمر الناس أن يسلموا نصارى اسبانيا وسلم هو مملكته إلى فرديننند الذى أعطاه بدل ذلك اقطاعات واسعة بسائر مملكته سنة ١٤٩٠ وألحق أهل غرناطة برعاياه فى الاعتبار وحفظ الحرية والاموال والاعلان بشعائر الدين والخراج الذى كان يؤخذ منهم سابقا ورأوا من سلوكه دلائل الهدو الدائم فانقاد لحكمه من حلفوا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى تنفد وسائلهم الحربية لكن بعض المسلمين حرض على الغدر بالنصارى وشهروا السلاح وحصنوا غرناطة مصرين أن يموتوا تحت أطلالها فهرب الملك الزجال إلى افريقيا فتمثل فرديننند

فى تاسع مايو سنة ١٤٩١ بمائتين ألفا أمام أسوارها ووكل عبد الله رؤساء رجاله فى المدافعة عن تلك المدينة التى قاسى الأهوال فى حصارها نساؤها وأطفالها وشيوخها وتنافس جميع أهلها فى صد العدو وبنت الملكة ايزابلة هناك مدينة سنتافية إعلانا بانها لا ترحل قبل فتح غرناطة وقطع فرديننند اختلاط أهل غرناطة بغيرهم حتى ضاق بهم الامر فخرجوا على النصارى مخاطرين بأنفسهم فهزمهم النصارى بجوار أسوار المدينة وطلب فرديننند من أبى عبدالله أن يسلمه المدينة بعد شهرين إن لم يأت إليها مدد فى بر أو بحر ووضع امضاءه على شروط بذلك فاستنجد أهلها سلاطين افريقية والقسطنطينية فبعث ملوك القسطنطينية دون غيرهم سنة ١٤٨٦ سفنا اقتصرت على تخريب سواحل بحيث جزيرة اسبانيا فخاف أبو عبد الله من قيام أهلها عليه وسلمها قبل الميعاد إلى فرديننند الذى رتب له اقطاعات كافية فى أرض البوقساره ثم أقام أبو عبد الله فى صحارى افريقية لما ركبه من العار والذلة ونصب النصارى على ذروة قلعتى الحمراء والبايسين أعلام سلطنة قسطيلة وأعلام سنجاق (مارى يعقوب) وزينوا مسجدها الاعظم بحلية العبادة النصرانية القاثوليقية وأمر القائد (كزيمينيس Ximésèn) باحراق الكتب العربية المحفوظة منذ قرون ووضع فرديننند يده بلامانع على المحطات المهمة فى الجبال وعلى مملكة غرناطة فانقضى من اسبانيا حكم العرب الممتد من سنة ٧١٠ إلى سنة ١٤٩٢ ميلادية

وكان زوال سلطنة غرناطة اعلام بموتهم فانهم لم يسألوا بعد أخذها عن شروط التسليم المشتملة على تمتعهم بالحرية والمال والسلاح والدين والمساجد والعوائد وبقاء ترتيب القائدين للجنود والقضاة المكلفين بالحكم فى الدعاوى على مقتضى الشريعة الاسلامية وعدم الجبر على تأدية شىء سوى الخراج والتكاليف التى كانوا يؤدونها للوكهم المسلمين

المبحث الخامس فى السياسة التى سلكها ملوك اسبانيا مع المسلمين المطرودين عنها سنة ١٦٠٩ ميلادية

لم يقصد فرديننند بشروط تسلمه غرناطة إلا الحصول عليها لا إجراء تلك الشروط

التى منها التمتع بالدين فانه رأى أن المسلمين بكثرتهم وغناهم وحبهم للاستقلال ربما كانوا مانعين نفوذ حكمه فصمم رأيه على أن يسلبهم العبادة الاسلامية والأخلاق العربية شيئاً فشيئاً ولم يبدل ذلك أول وهلة خشية ألا ينجح مقصده فاتخذ متجسسين على التدين بدؤا بمدح أهل قسطيلة وماهم عليه من الصلاح والاستقامة ليأمنهم المسلمون و ينسوا ما كانوا عليه من سوء المعاملة وأوهموهم أنه يجب عليهم العمل بشروط التسليم بغاية الدقة وأنهم لايؤذون إلا اليهود المالكين لحصة عظيمة من أموال البلاد أو الذين رحلوا من وطنهم (غرناطة) أو تركوا دين آبائهم ودخلوا فى دين النصرانية وأوقعوا سنة ١٤٩٢ بهؤلاء من العذاب أنواعاً أفزعت المسلمين والمتجسسون إذ ذاك يدعون إلى النصرانية المسلمين الخائفين أن يحل بهم ما حل باليهود من سوء العذاب ثم أعلنت النصارى بمنع التدين بالاسلام وأغدقوا بالذهب على من استنصر ثم حكم فرديننذ سنة ١٤٩٩ بطرد من لم يستنصر من جميع أسبانيا فانقاد ظاهراً للذهاب إلى الكنائس لعبادة المسيح المسلمون بسائر المدن إلا سكان جبال البوقسارة فلم يمتثلوا وشهروا السلاح فهزمهم هذا الملك وأتلف مزارعهم وأخذ أموالهم وطردهم من البلاد نعم تحمل النصارى أن يتدين بدين الاسلام أهل والنسة التى صنائعها أحد الينابيع الأصلية لرفاهية أسبانيا حتى ولى السلطنة شرلكان كرولوس الخامس سنة ١٥٢٤ فألزم أعيان النصارى المسلمين بالتنصر فاشتكوا ذلك إلى شرلكان فلم يصغ لهم وأحالهم على محكمة تحقيق الدين وعقوبة المعتزلة عن طريقة القاثوليقية فحكم أرباب المحكمة بإكراه المسلمين على التنصر وسعى رئيس أساقفة اشبلية لدى هذا الملك حتى حكم سنة ١٥٥٢ بمنع مسلمى غرناطة فى يوم واحد من عوائدهم القديمة ولباسهم والتكلم بلغتهم ورتب لتحقيق دعاوى المخالفين لذلك الأمر محكمة مخصوصة ودفع المسلمون سنة ١٥٩٢ إلى الملك فيلبس الثانى ثمانمائة ألف دوقية (دينار) ليخفف عنهم ذلك فكفت عنهم أرباب الحكومة إلا أن الرعية مازالوا يتمادون فى عدم التحمل للتدين بالاسلام شاهرين السيف باليمين والصليب باليسار مقتفين أثر المسلمين فى كل جهة حتى الجبال

وبالجملة أخذ رئيس أساقفة غرناطة أمراً من الملك فيلبس الثانى بمنع اغتسال المسلمين من الحدثين وارقص المغربى واستعمال اللسان العربى وخروج النساء متبرقعات فأبى المسلمون وشهروا السلاح وعقدوا مودة مع مغاربة افريقية فتبعهم المركيز (مندیار Mondejar) القائد النصرانى فالتجئوا إلى جبال تابعين قائدهم محمد بن أمية المدعى أنه من نسل بنى أمية خلفاء قرطبة الأول واستمرت الحرب بينهما سنين حتى بدأ الشقاق بين المسلمين وذبح محمد بن أمية فخلفه عبد الله فأخذ منه (دون جنا وتريش Don juan'd Autriche) سنة ١٥٧٠ معظم عساكره الذين انقاد بعضهم للنصارى وبعض ذهب إلى افريقية ووزع النصارى الساكنين بجبال البوقسارة على استورية وغاليسة وقسطيلة تحت الملاحظة الشديدة وأمر الملك فيلبس الثالث سنة ١٦٠٩ بطرد مسلمى والنسة ومرسية فنقلتهم سفن إلى سواحل افريقية واجتاز منهم كثيرون جبال برينيه فقبل نزولهم فى فرنسا ملكها هنرى الرابع وجاد على بعضهم بالمسكن والمزرعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر فى البحر إلى مينا غينة ومينا لنجدوق

ووجد بعض المؤرخين المسلمين المطرودين من أسبانيا منذ فتح النصارى غرناطة إلى سنة ١٦٠٩ ثلاثة ملايين كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة فدرست معالم عز أسبانيا وكذا فرنسا بطردهم من مدينة نتس سنة ١٦٨٩ المعتزلين مذهب القاثوليقية ذوى الصنائع العظيمة

للسيد يحيى القرطبى

وقد أصبح فى حال تعد المنايا أمانيا ويرى الموت لضعف الدين طبيبا شافيا وقد أسر بالأندلس وذلك فى عهد السلطان سليمان :

لكل شىء إذا ماتم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وعالم الكون لاتبقى محاسنه ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهرُ منا كلَّ سابغة ... إذا نبت مَشرفيات وخُرْصان

وينتضى كلّ سيف للفناء ولو ... كان ابنَ ذى يزن والغِمد غمدانُ
أين الملوكُ ذوو التيجان من يمن ؟ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ ؟
وأين ماشاده شداد من إرَم ؟ ... وأين ماساسه فى الفرس ساسان ؟
وأين ماحازه قارون من ذهب ؟ ... وأين عاد وشداد وقحطان ؟
أتى على الكل أمرٌ لامردّ له ! ... حتى قضَوْا فكأن الكلّ ما كانوا !
وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان !
دارَ الزمان على دارا وقاتِله ... وأمّ كسرى فما آواه إيوان !
كأنما الصعبُ لم يسهل له سببٌ ... يوما ولم يملك الدنيا سليمان !
فجائع الدهر أنواعٌ منوعة ... وللزمان مسراتٌ وأحزان !
وللمصائب سلوان يهوّنها ... وما لما حل بالإسلام سلوان ! !

* * *

دَهَى الجزيرة خطبٌ لاعزاء له ... هوى له أُحُدٌ وانهدّ ثهلان
أصابها العينُ فى الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطارٌ وبلدان
فسَل بَلَنْسية ماشأنُ مُرسية ... وأين قرطبةٌ أمْ أينَ جيّان
وأين حِمص وما تحويه من نُزه ... ونهرُها العذبُ فيّاضٌ وملآن
وأين غرناطةٌ دارُ الجهاد فكم ... أُسْدٌ بها وهُمُ فى الحرب عُقبان
وأين حمراؤها العليا وزخرفُها ... كأنها من جِنان الخلد عدنان
قواعدٌ كُنّ أركانَ البلاد فما ... عسى البكاء إذَا لم تبْقَ أركان

* * *

تبكى الحنيفيةُ السمحاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هَيْمان
حتى المحاريبُ تبكى وهى جامدةٌ ... حتى المنابرُ تبكى وهى عِيدان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجدقد أمست كنائس ما ... بهن إلا نواقيس وصلبان

ياغافلا وله فى الدهر موعظةٌ إن كنتَ فى سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يُلهيه موطنُه أبعدَ حِمْص تَعِزُّ المرءَ أوطان
تلك المصيبة أنست ماتقدمها وما لها مع طول الدهرِ نِسيان

* * *

يارا كبين عِتاقَ الخيل ضامرة كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملين سيوفَ الهند مرهفةً كأنها فى ظلام الليل نيران
وراتعين وراء النهر من دَعَة لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أمر أندلس لقد سرى بحديث القوم ركبان

* * *

كم يستغيث صناديد الرجال وهم أسرى وقتلى فلا يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكمو وأنتمو ياعباد الله إخوان
ألا نفوسٌ أبيّات لها همم أما على الخير أنصارٌ وأعوان
يامن لنُصرة قومٍ قسموا فرقا سطا عليهم بها كفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم واليوم هم فى قيود الكفر عُبْدان
فلو تراهم حيارَى لادليلَ لهم عليهمُ من ثِياب الذل ألوان
فلو رأيت بكاهم عند بيعهمو لهالك الأمر واستهوتك أحزان

* * *

يارب طِفل وأمٍّ حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وغادة مثل حسن الشمس إذ برزت كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج عند السبي صاغرة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمان

الأمم الاسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد على باشا حذت حذو الدول الاسلامية القديمة ، فكان فيها الاسراف والتبذير ، والغناء والخمر والقزن ، فهى مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الانجليز مصر تلك الديون التى ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد على باشا ، وقد أخذت انكلترا وفرنسا تتنافسان فى استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بمظهر من لايحسب حسابا للعواقب ، فقد كان فى اصلاحاته كما يقول البارون دى ملورسى « كالبانى الذى أراد أن يبنى بيتاً يكلفه مالا طاقة له به ، فرهن الأرض وتقدمت له الشركات الأوروبية بالمال علما منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يعجز المدين عن سداد دينه »(١)

ولا ريب أنهم كانوا يعيرون اسماعيل باشا المال بأفحش أنواع الربا ، وقد وضح كاتب انكليزى (سيموركى) فى سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيقى (أى المبلغ المستعار حقيقة) بفائدة ٦ فى المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمى لايقل عن التسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعلمون انهم يخاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نذيراً لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعة عملهم ، ولكن (روتشلد وأو بنهايم) وغيرهما من أصحاب رءوس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة فى انجلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان فى عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخلا فعليا منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون فى الحقيقة على تحويل الدين المالى إلى دين سياسى ، وكانت انجلترا تحول دون حل المسألة حلا ماليا ، وتطالب بوضع يدها على الادارة المصرية ضمانة للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تندد

(١) هذا منقول من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن منقول من كتاب كشف الستار عن سر الاسرار تأليف عرابى باشا

كل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كما سنحت الفرصة إرسال أخصائيين سياسيين فى زى ماليين لاصلاح الأمور من جديد وايقاف الحاكم المستبد عند حده .

وقد كان المصريون يشكون حقاً من حكومة اسماعيل باشا المطلقة التى كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضحت نية القوم قلق المصريون على مستقبلهم اه . وجاء فى صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور مايأتى :

سر مكنون

وفى ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوى السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الاسكندرية حيث أقلته الباخرة « المحروسة » إلى نابولى (ثغر من ثغور إيطاليا) وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات كما صرح بذلك ابنه الخديوى توفيق باشا بحضورى وحضور خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى والشيخ عبد الرحمن الابيارى إمام المعية فى أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : (ياليته ترك للحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها) . ولما وصل الخديوى اسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوى توفيق باشا مودعا والده وعيناه مغرورقتان بالدموع ، فضمه والده ثم قال له : (لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوى مصر ، فأوصيك بإخوتك وسائر الآل براً . واعلم أنى مسافر ، وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شوراك ، وكن أسعد حالا من أبيك » وكان من أشد المناظر تأثيرا فى النفوس منظر العبدان والجوارى وهم يودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع مزجت بدماء القلوب ويرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزنا وغما ، ثم سار

القطار الخصوصي حتى وصل إلى الاسكندرية . إنتهى ما أردته من الكتاب المذكور هذا ولقد سمعت أن عالما ألمانيا ألف كتابا وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه هذه نسخة من حياة أمم الاسلام قديما وحديثا . فقال صاحبي : وماذا تريد من أمم الاسلام المستقبلة ؟ فقلت : أمم الاسلام المستقبلة ستكون غير الامم الاسلامية الماضية ، هذه الأمم التي بعدنا سيدرس رؤساؤهم ما كتبناه في كتبنا وفي هذا التفسير ، وما كتبه الكاتبون في زماننا هذا وهو زمن النهضة الحقيقية الاسلامية وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الاسباب لاستكناه علم التاريخ تختص به جماعة في كل دولة اسلامية ، ويتباحثون ويستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون في السياسة فلا يفرطون مثقال ذرة في التاريخ وتكون هناك جماعات جماعات في سائر العلوم والصناعات ، هذا كله سيتم ولن يكون غيره ، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الامراء من بينهم لمدة معينة كخمس سنين أو عشر سنين أونحو ذلك ولا يراعى في ذلك إلا قوله تعالى « وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيشا وهو وأمته أغزر علما من الامراء الآخرين فهو حتما الذي يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون في المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكاتبون في الاسلام

المبحث الثالث

في حال المسلمين في عصرنا الحاضر

لقد مر بك أيها الذكي في المبحثين السابقين ما كان من شأن المسلمين ارتفاعا وانحطاطاً سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا إذ يقول (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

ساق الله هذه الآية من قلب الصحراء لتكون نبراساً للناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور فتم ذلك ولكن بعد قليل من الزمن أخذوا يقلدون القياصرة والأكاسرة وتناسوا عهدهم الأول من عزهم ومجدهم وبأسهم وأخذوا يقتتلون على الخلافة وجهلوا

أن الله عز وجل لن يسلم قيادة الأمم إلا لأقوام يجعلون من عباده محل الشمس والنجوم من عباده بحيث يسوسونهم و يحافظون على كيانهم ولا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً وإنما يكونوا خلفاء الله عليهم كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون بعده فكانت الدنيا فى قبضتهم وهم فيها زاهدون فأما الأمويون والعباسيون وأهل الأندلس وغيرهم فأنهم أخذوا يتدلون انحطاطاً كما تقدم إيضاحه وإياك أن تعجب أيها الذكى مما أقول الآن وهو أن الله لا يملك عباده إلا للمخلصين فى خدمتهم الخ ما تقدم فان لى عليه دليلين دليلا دينياً ودليلا علمياً

أما الدليل الدينى فذلك أن الله يقول (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وهؤلاء الصالحون هم الذين يسلم المسلم عليهم كل يوم فى صلاته فيحيي ربه و يسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين أما تحيته لله فانه هو المنعم وأما تسليمه على النبى صلى الله عليه وسلم فلأنه هو الذى فتح باب الخلافة الصادقه ورقى الانسانية مع زهده فى مالها

وأما السلام على عباد الله الصالحين المذكورين فذلك أنهم أمثال أبى بكر وعمر يريدون السلام فى الأرض ولا مطمع لهم من القيام بخدمة عباده

لاسلام فى الأرض إلا حيث تكون الشورى والشورى قام بها صاحب الرسالة وخلفاؤه الراشدون فهؤلاء هم الصالحون الذين يورثهم الله الأرض وقد ورثوها فعلا كما تقدم فأما ملوك الاسلام الذين سموا أنفسهم خلفاء فانهم لم يريدوا غالبا إلا الملك ومن لم يرغب من الملك إلا المال فمستحيل صفاء العيش له ولا بد من ذهاب دولته عاجلا أو آجلا فلذلك ذهب الملك من أيديهم بعد أن جهلوا ماجاء فى قصة فرعون إذ استشار الملأ حوله فى أمر موسى فقال لهم إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون

وقصة ملكة سبأ إذ قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون

جهلوا ان للقرآن عجائب فى قصصه يذكر القصة و يدخل فيها كل ما يفطن له العقلاء كما فطن جميع المسلمين لمسألة وأد البنات فى غضون آيات كلها تذكر بيوم القيامة من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار الخ وهكذا حتى ذكر الموؤدة ففهموها وعمل بها جميع المسلمين

أما الشورى التى وردت فى بلاد مصر واليمن فانهم يعرضون عنها لحلاوة الملك وغلبة الشهوات

كأن الله يقول أيها المسلمون ألا تخجلون إذا أخبرتكم أن مصر فى افريقيا واليمن فى آسيا (وهاتان القارتان أهم ممالككم! !) كانت حكوماتهم قوية وهممهم علية وكان لسبأ ولمصر حكومات عظيمة أفلا تكونون أنتم أولى بالشورى منهم و إذا كنت أهلكت الأثنين لانحراف فى أعمالهم فأنتم أحق بالهلاك منهم وزوال مجدكم وتسليط الأمم عليكم وقد تم ذلك

جهل المسلمون المتأخرون هذا كله واستبدوا بالناس فأزال الله دولهم ثم أخذت الفرنجة تجوس خلال الديار وأحاطت بنا من كل جانب حتي صار جيلنا هذا فى القرن العشرين ولقد امتحن الله الفرنجة كما امتحن أمم الاسلام وقد مكن الله للفرنجة فى أرضه فاحتلوا ديارنا أجل احتلوها ولكنى أقول وأنا واثق مما أقول أن الفرنجة قد ولى شبابهم وأدبرت أيامهم وهذا أوان طردهم من بلاد الشرق

ذلك أنهم احتلوا بلاد الاسلام لمصلحتهم هم أنفسهم وقد قررنا أن الملك لا يدوم على هذه الحال كما لم يدم لأسلافنا لما كان هذا رأيهم

الله أكبر إن الله يقول (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) وها نحن أولاء مستضعفون فى الأرض فلا بد من ارتفاع شأننا عاجلا هذا هو الدليل الدينى أما الدليل العلمى فها هوذا العلامة لوثروب ستودارد (Lothrop Stoddard) يقول فى الجزء الثانى صفحة ٧١ وما بعدها ما نصه بالحرف الواحد :

قال الحجة الثقة أرمينيوس فامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق

سائر أديان العالم شورى وديمقراطية — الدين الذى هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فإن كان العالم قد شهد حقاً ، منذ أول عهد الانسان البشرى إلى اليوم ، حكومة شورية دستورية فهى لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » وقال محقق انكليزي كبير[1] خبير فى شؤون الشرق الأدنى :

« إن بلاد العرب التى يضرب فيها البدو الرحل هى البلاد الفذة فى العالم المشتملة على صحيح الديمقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم[2] يذودون عن

---

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) ليس من عادة العرب قديماً ولا حديثاً التخاضع لملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لأمرائها وملوكها سائر الأمم ، بل تراهم لا يخاطبونهم بالألقاب الضخمة ، ولا بالنعوت التى يخاطب غير العرب بها ملوكهم ، بل لم يكونوا ينادونهم إلا بمجرد أسمائهم . وإنما كانوا فى أيام الخلفاء بدءوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لا غير . فكل ما دخل فى العربية والعرب من القاب التعظيم والتفخيم انما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال البادية — الى يومنا هذا — ينادون شيوخهم وأمراءهم بمجرد اسمائهم ، فاذا أرادوا أن يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين يا أبا فلان . هكذا يخاطبون السلطان ابن سعود والأمير ابن الرشيد وكل أمير فيهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل ابن الحسين مؤخرا وهو بدمشق فيخاطبونه دائماً : يا أبا غازى . كما يعرف ذلك كل أهل الشام . فهذه هى الديمقراطية الصحيحة . وكانوا فى العصر القديم يقولون لعمر ابن الخطاب وهو يخطب : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » . وكان الأحنف يقول لمعاوية : « والله يا معاوية ان السيوف التى قاتلناك بها لهى فى اغمادها » . وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين : فقال أيها الناس اتقوا الله . فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له : أذكرك الذى ذكرتنا به . فأجابه الخليفة : سمعا سمعا لمن ذكر بالله

نعم ان كان فى الدنيا شرقها مع غربها قوم ديموقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لا يزالون فرقاً وحزقا ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم أجابه النعمان : ان الأعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فانها أعز نفوساً وأحمى أنوفا من

سياجها بشفار سيوفهم ومهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش نبتة الاستبداد » وقال العلامة ليبيار[1] فى شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ :

« قال بعضهم إن تركيا لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة إنما ذلك وهم شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقة إلى إنشاء الحكومة النيابية وعلى جانب عظيم من الاستعداد لذلك . أجل ثم جل ، إن النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركية انما هى أفضل أس يشيد عليه

أن تطيع ملكا ، بل تجد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الأصلية فى تحاسد هذه الأمة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض مما آل الى فقدها الملك العظيم الذى كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليمانية التى كانت آفة على سلطان العرب فى كل مكان ، والسبب فى وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الأندلس وغربى أوربا

ان العرب لم تجتمع كلماتها الا بدعوة دينية هى دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديموقراطية بما فى الاسلام من سنن المساواة والأخاء والحرية . قال عمر ابن الخطاب : لسنا فى كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الأصفر قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ، ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا ؛ بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ

وأما المشاورة فالى اليوم لا يعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملا الا برأى شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لا بل فرض أوجبه الله فى كتابه قال تعالى : « وشاورهم فى الأمر » . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبى صلى الله عليه وسلم . والخلفاء الراشدون يعملون كل شىء عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى إحدى خطبه : « ولكن الابرام بعد التشاور . والصفقة بعد التناظر لذلك جميع الحكومات الاسلامية هى شورية ديموقراطية فطرة وخلقة والاستبداد فيها عارض ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

شكيب أرسلان

(١) A. H. Lybyer من مقال له سنة ١٩١٠

الحكم النيابى . كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه و بين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون و يستر ئى بعضهم بعضا فى شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلامية هى ديمقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ،وعدو شديد للاستبداد . و باعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذاً أن تمكن الشعوب الاسلامية ، كافة ، حتى أبعدها إغراقا فى التدلى من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابى » ثم بين العلامة ليبيار فى موضع آخر ان السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة ، و إمداده بالمشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طو يلا حتى أنشىء فى العهد الأخير مجلسان الأول يعرف بمجلس الدولة والآخر بمجلس الوزراء[1] زد على هذا انه أنشى مجلس نواب مرتين الأولى فى سنة ١٨٧٧ والأخرى فى سنة ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طو يلا إذ قضى عليهما الاستبداد الحميدى فقد كان على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى على نظام الدستور والحكم النيابى . وختم العلامة المذكور كلامه بقوله: «فلذلك يجب ألا يعتبر إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثا مما لم يسبق له مثيل فى بلاد اسلامية . بل يجب اعتباره من النظام الاسلامى المألوف . كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج

(١) كنا مرة نطوف فى قصر طوب قبو (مقر السلاطين فى الاستانة قبل بناء طوله بغجه ويلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراؤه كل يوم للنظر فى أمور الرعية ، وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم فى هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كأحدهم . فدخل مرة زعيم قادم من الأناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكارمز كيمدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان دكة مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لا تزال الى الآن .

شكيب ارسلان

به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب »

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شصطر الأميركى ليقوم بتنظيم الشؤون المالية فى بلادها فلم يطل مقامه فى فارس إلى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الأدارى الكبير مبينا استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسى لإنشاء النظام الدستورى وهو متفائل فى ذلك كل التفاؤل

« إنى أعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحو بين دفتيه ذكراً طيبا لأمة مثل ما يحوى من ذلك للأمة الفارسية التى انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة إلى دور الحكم الدستورى النيابى ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاما يدل على أن أمة ذات مقام عال فى الحكمة السياسية وفى معرفة أصول الاشتراع إلى حد يكاد لايصدق[1] أما أعضاء المجلس النيابى الأول فقد شرعوا منذ يوم أنشىء المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً فى تثبيت دعائمه ورفع بنيانه وجعله فى حرز حريز من طوارىء الاستبداد . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع ما يسنونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء

« وأما المجلس الثانى وهو الأخير الذى أعرف أعضاءه معرفة شخصية صحيحة فما كان على كل حال ليعد فى رتبة البرلمان البريطانى أو مجلس النواب الأميركى . ولكننا متى ما أقبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المران من قبل ، فى بلاد استطالت رقدتها أجيالا ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدبير أمورها على نمط تضاهى به الحكومات التى انقضى على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقا . لاينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج إلى كثير من المعارف الاكتناهية فى كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة . بيد أن الأمر الذى يقف عنده الحكم المنصف

(١) ومن فى الدنيا ينكر مزايا الأمة الفارسية واستعدادها للرقى ، وهى الأمة المتمدنة منذ آلاف السنين التى أوتيت فى العلم والصناعة مواهب قلما وهبها الله أمة

معتبراً هو أن هذا المجلس النيابى الفارسى يمثل حقاً رأى الأمة الفارسية ، و به نوطة جميع أمانيها ومبتغياتها التى تصبو اليها . أما أعضاؤه من حيث ماهم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من ذوى العقل الثاقب والخلق الكريم ، والرأى السديد والشجاعة الحقة . يحنون أضلاعهم على قلوب تنضرم اخلاصا ووطنية يبحثون بجد وعزم فى كل مقترح وطنى وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص فى الخبرة الكافية لتدبير الشؤون المالية ، و إذ أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخلص يمحضونهم الود ويجعلونهم موضع ثقتهم ومحقق آمالهم ، و يفوضون إليهم أمور التنظيم ، هذا إذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقا مقاومة المكايد السياسية والرشوة ومبادلة الأمة الفارسية الود والاخلاص . والصدق فى الأقوال والأعمال

وليس من العدل ولا الانصاف فى شىء أن يقال أن المجلس النيابى الفارسى قاصر عن المجاراة الحقة فى ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الأزر وأمته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، مجلس عارف لحد سلطته فلا يبتغى جواز نطاقها بغير حق ، وأعضاؤه أبداً على استعداد للقيام بكل تضحية كبيرة فى سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها و إعلاء شأنها .

أما الأمة الفارسية فليست على مستوى تتناوله صفة عامة . فالسواد الأعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وأما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسياحات كبيرة فى الممالك الراقية فيعدون بالمئات . وقد أظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والأخذ عن الحضارة الأوروبية . وهم هم الذين قاموا بدك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديمقراطية خفاقاً ، بعد أن ذللوا الصعب وركبوا الهول . وعلى أيدى الحكومة التى أنشأوها انتشر العدل بين الناس ، وقضى على المحاباة ، وغدت أبواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفؤ من أهل البلاد . و برهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وغرائز على استعداد منقطع النظير

لارتشاف العلوم والترقى خلال السنوات الخمس الأخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وأنشئت الصحف الحرة فانبرى حذاق الكتاب شارعين أقلامهم يهدون الأمة خير هداية ، ويكافحون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر فى الأمة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشى على مستحدث الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والأدبية وفوق جميع هذا فقد اشتعلت الأمة بأسرها بتلك الروح الاسيوية التى ألهبت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة إلى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعاً فى انشاء الجمهورية الصينية »

ثم أنهى المستر شصطر كلامه قائلا : « قد صاح الكاتب الأشهر (رديارد كپنغ) ناصحاً مرارا أن الشرق لن يطيق بعد المناخس معملة فى جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوما مقاومة رجعية عظيمة ، ولكن باستطاعة رجال الغرب ، إذا تذرعوا بالفضائل الغربية وغايات الحضارة الأوربية الصحيحة أن يستسرعوا الشرق فى سبيل التقدم والارتقاء على شريطة أن يوقن الشرقيون أن ذلك هو لخيرهم ومصلحتهم . على أن الحق الذى لايمارى فيه أن روح التضامن الأدبى والعزة القومية والعصبية الجنسية لجميع ذلك قد غدا شديداً فى الشرق شدته فى الغرب . فبات الشرقيون بسبب ذلك صعاب المقادة أقوياء الشكيمة وهم هكذا ما دامت أوربة سائقة لهم فى سبيل واحد غايته ابتزازهم لملء بطنها وتسخيرهم لرى كبدها[1]

حقا يعتقد كثير من الأحرار الغربيين أن التسلط الأوربى ليس من شأنه أن يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتى والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيرا وكافيا مهما كان[2] بل تعتقد طائفة هؤلاء الأحرار أن الطريقة الوحيدة

---

(١) Shuster كتابه : The Strangling of Persia

(٢) جميع المسيطرين الأوربيين فى الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهدهم على الاستعمار المادى والاستثمار الدنيوى وأن يجتزئوا من التعليم بتدريس لغاتهم فقط دون الفنون التى فيها . وان ما جاهدته مصر فى أمر توسيع الميزانية لوزارة المعارف

المثلى التى أهل الشرق أحرى بتعليمها والتدرب عليها ، هى أن تترك تلك الشعوب وشأنها تمارس الاستقلال بنفسها ، وتخرج ذاتها بذاتها عليه ، وقد أخذ « ليونل كرتس [1] » الكاتب الانكليزى الذائع الصيت أيما إجادة فى جلاء هذا القول وتصريحه فى كلام له فى شأن الهند بين فيه ان التعليم والتهذيب ، والثمرات والخيرات ، التى جاء بها الحكم البريطانى ليست بكافية بذاتها « لاعداد أهل الهند اعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطراً كبيراً و بلية ايجابية . مالم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً ان الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية إلا فى حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لا فى حيز النظر والتصور والخيال.

« قد يقول بعضهم انى لجوج فى طلبى الذى بينت فيه انه يجب علينا الشروع فى نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلا صحيحاً لاغش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية إلى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفى الحكومة البريطانية فى تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التى تطلب منهم هذا بحق . نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية وان يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لا عطف الظئر المأجورة التى سواء عندها أعاش الرضيع أم مات . واذا ما أريد حقاً تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتى وجب أن تكون حرة من كل جانب لا مطلقة من ناحية ومصفدة بالاغلال من ناحية أخرى . فان لم يكن هذا ، فليس من سبيل إذاً لهذه وتكثير المدارس بعلمه الخاص والعام ، ومع هذا فكان المحتلون يقيمون فى وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها الى هذه الساعة . أما فى الجزائر فابقاء الأهلين فى الجهل وحرمان أطفالهم من الكتاتيب الابتدائية هو من جملة برنامج الادارة هناك .

شكيب ارسلان

(١) كتابه : « رسائل الى الهند فى شأن الحكومة النيابية » (لندن ١٩١٨)

Lionel Curtis, "Letters to the People of India on Responsible Government,,

الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بأنها مسؤوله لدى الشعب الذى هو من ورائها حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال أن يعلم و يوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه . نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يبتغى بملء ارادته حكما ذاتياً لايتسنى له الوصول إلى غرضه السامى وغايته الكبيرة إلا فى الجهاد قائماً أبداً واجتياز طريق الصعاب التى تشق عندها الأنفس وتركب الأهوال ور بما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه .

إنى لأفخر فخرا كبيرا بما جلبته بريطانية العظمى إلى الهند من الخير والنفع ، من أنشاء النظام وتثبيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكانتها فى عمران البلاد . غير أنى على كل هذا لا أعتقد أن النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحا بعد ، دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص.

يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدهم ونزيد حولهم ونعلى من منزلتهم . وذلك لايتم إلا إذا مكناهم من التمرن على الواجبات التى تنقل إلى نطاقهم نقلا مزدادا . لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوسا على المقاعد

لا وصول إلى الغاية التى بينها حديثا وزير الهند[1] إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول إلى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند ، بعد العناء الكبير ،

(١) إشارة الى الغاية المبينة فى تقرير مونتاغو ـ شلمز فورد من منح الحكم الذاتى.

والانتهاء إلى هذه الحال انتهاء ملتئما كل الالتئام مع ما هو معروف لنا من التقاليد . وأمه ما يبقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان في ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا

إن كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ما هو واقع اليوم فى الهند كما فى سائر الأقطار الشرقية . إن الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديدا ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال فغدا مقبض أوربا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال . وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً ، فتقلص الظل أمر واقع لامرد له ولا مدفع مما يدل على أنه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الاسلامية فى الشرقين الأدنى والأوسط متمتعا بالحكم الذاتى وربما بالاستقلال التام لاعيب فيه . أما التساؤل أتسيء هذه الشعوب التى ستصبح حرة اغتنام الفرصة ، فتعود تتعثر معاثر الاستبداد والفوضى ، أو تفلح حقا عالية الجبين فى إنشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه فى طريق التقدم والارتقاء ، ذلك أمر سيكشفه المستقبل . وإذ قد بينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة فى أفق التطور السياسى ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقة فى مجراها الطبيعى بهذه العوامل ، مراقبين تقلبها المستمر فى هذا الدور دور التحول انتهى

ويقول فى الجزء الأول صفحة ٢٨ وما بعدها مانصه :

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان . فبعدأن ركبت أوروبة متن البحار ، صارت تستهزئ بجبابرة آسية وعتاتها ، وكانت من قبل يدوح ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء . ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبة من وراء البحار ، فاتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها . ولا يعجبن من ذلك بوأوربة قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لانفاذ لها .

غذاء طيباً لحيانها وصناعتها ، فباتت والشرق شتان ماهما . فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الخرب المهشم ، ازاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة دبيبها الهائل فى الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيما ، وقابضة على طلاسم العلوم ، جادة نحو العصور الحديثة

وعلى كل هذا ، فقد ظل الشرق الاسلامى جامداً ساكناً ، ملتفاً بخلقان الحضارة العربية التى طال على خوائها الأمد ، ومتسكعا فى ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعضعت قوته الحربية و بلغت حد التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا فى انحطاطهم ، فصاروا لايستطيعون مجاراة أوروبة اختراعاً وارتقاء ، ولا تحسين فن فنون القتال . وقد كرّت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالا عنيفاً فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد انه لما أغار الترك على أسوار « فينة » سنة ١٦٨٣ م . فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبة حينئذ أن هناك انما كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها مااستطاع ؛ ولو لم تؤرث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضاً ، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لو لم تختلف هذه الدول فى اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شر ممزق ، منذ عهد عهيد .

ثم توالت الأيام على العالم الاسلامى وهو هاجع لايستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر ، فتململ فى مهجعه مستثقلا وطأة الغرب ، وفى خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامى ، وتخضع لها الأقطار ، فى شرقى أوروبة وجزائر الهند ، واما جلّ العالم الاسلامى ومعظمه ، من مراكش حتى أواسط آسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً فى هجعته ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبة ، راضياً مسلماً ان شقاءه انما بمشيئة من

الله ، لايقيم لرق أوروبة وزناً ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً (١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامى لما استيقظ استيقاظه فى مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبة تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها القاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبة تغشى الشرق الاسلامى ، أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر فى أيدى الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبة الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانية على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسة شمالى أفريقية ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق للغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالا صحيحاً ، تم اخضاع العالم الاسلامى — ولكن على القرطاس ! !

أجل ، تم ذلك على القرطاس فحسب . والسبب فى ذلك انه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ماهبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل . كان الشرق الاسلامى طيلة هذه الثلاث من السنين التى كرت عليه وهو جاث عنقه للغرب : تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيما وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلا .

(١) نعم كانوا يعللون انحطاطهم الذى هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الادارة

شكيب ارسلان

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى ، قد غالى فى إيلام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً ! ! ودار الشرق الاسلامى حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حال بساحته . فأخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، فهب الـ ٢٥٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ من اتباع النبى محمد [1] ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكنغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها . قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها أن ترقت واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحولات فى العالم الاسلامى منصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبث فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

---

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب فى كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعته لغيره من المؤلفين الأوربيين الذين لا يزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاآت جرت منذ عشرات من السنين ، مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الأثناء كثيراً فالعلامة نانسى الألمانى كان يحزر مسلمى أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لا يزالون يحصون مسلمى الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ إلى ٢٠ مليونا ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليونا وكثيرا ما يحصونهم ٢٠ مليونا وهلم جرا .

فثوران العالم الاسلامى هـذا الثوران ، وشدة التضييق الأوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولاحداً يزيدان فى هيجانه فيشملان فيـه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام يميد ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالم اسلامى حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . . انتهى ماقلناه من كتاب حاضر العالم الاسلامى

﴿ تذكره ﴾ ماذكرناه هنا قليل ملخص من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن وكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ومن وجد فى وقته سعة وفى صدره انشراحا لازدياد المعرفة فى هذا المقام فعليه بما كتبناه فى سور مختلفة كما فى سورة ابراهيم عند قوله تعالى (وذكرهم بأيام الله) وعند قصة ابراهيم فى آخر السورة وفى سورة النحل عند آية (إن الله يأمر بالعدل الخ) وفى أوائل سورة الاسراء فهناك مقال فى المسلمين بالأندلس قبيل آية (وقضى ربك الخ) وفى سورة الكهف عند آية (وما كنت متخذ المضلين عضدا) وفى سورة طه عند آية (وقل ربى زدنى علما) وفى سورة الشعراء عند آية (السحر) وعند آية (والشعراء يتبعهم الغاوون) وفى سورة النمل عند آية (إن الملوك إذا دخلوا قرية الخ) مع آية (فتلك بيوتهم خاوية الخ) وفى سورة سبأ عند آية (محاجة الضعفاء والذين استكبروا) وفى سورة ص عند آية (ياداود إنا جعلناك خليفة الآية) وهناك مواضع آخرى هامة وفى سورة الشورى عند آية (وأمرهم شورى بينهم) وفى سورة الاحقاف عند آية (أذهبتم طيباتكم الخ) وهناك فى بعض سور الحواميم التى ذكر فيها أن القرآن عربى مقال مسهب يخص العرب فى زماننا ويحتم الوحدة ويبحث فى تاريخهم

وهكذا فى سورة فاطر عند آية (ألم تر أن الله أنزل الخ) مقال عن الجراد وانه

يهجم كل سنة على البلاد ولا يصده عن الاتحاد صاد . وهذا درس للامم العربية أن يكونوا متحدين انتهى الفصل الاول

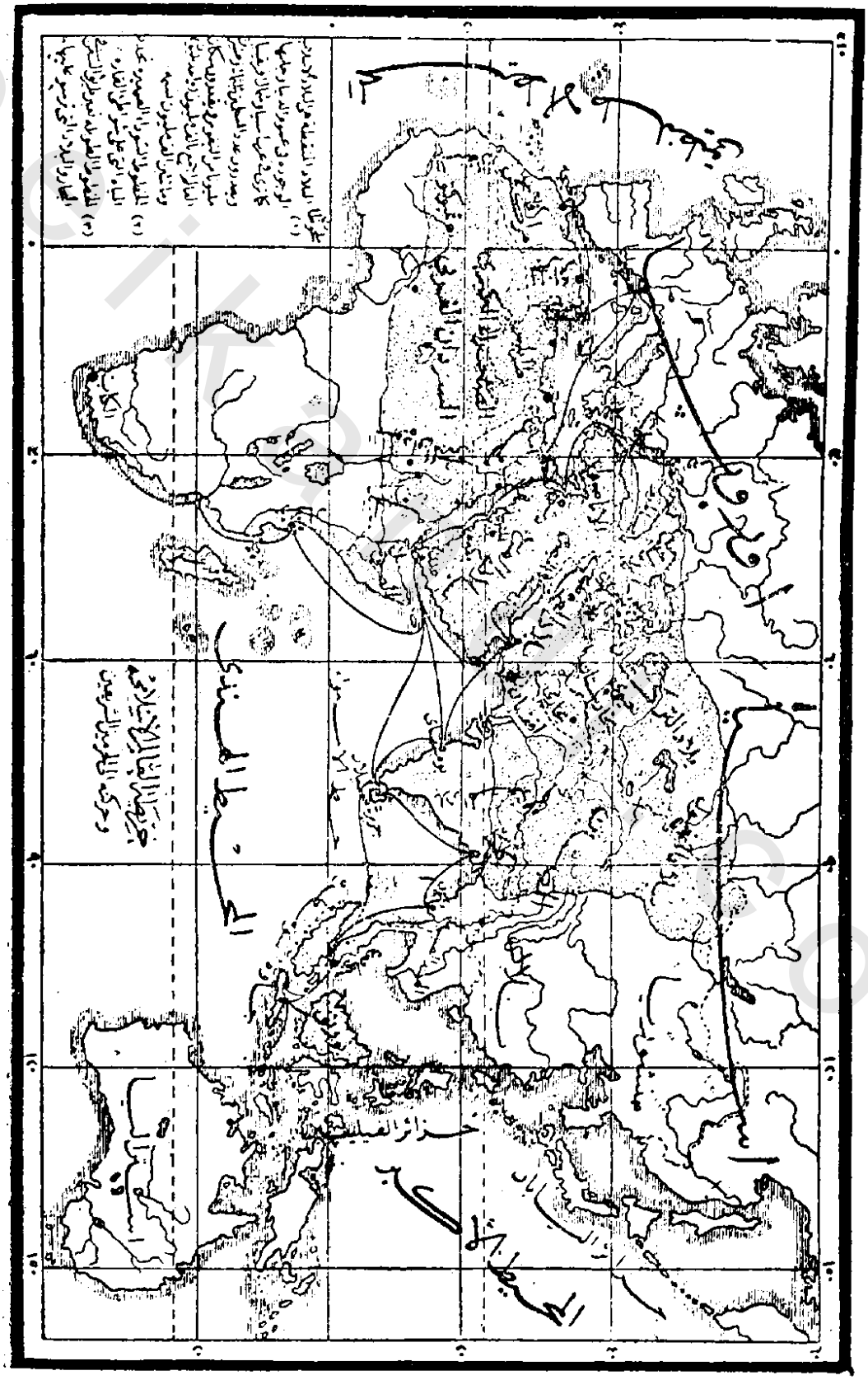

(خريطة العالم الاسلامى)

الفصل الثانى

فى السعادة والاختيار والعمل والتوكل

للانسانُ ثلاث قوى شهوة وغضب وعقل ورسلها إلى العالم الخارجى الحواس الخمس وخزائنها قوى الدماغ الخمس وله مع كل قوة من هذه الثلاث ميل الى ما يلائم ونفور عما لا يلائم فالميل الى الملائم والنفور عنه فى الغضب والشهوة نسميه ارادة وفى العقل نسميه اختيارا وهو الذى عليه مدار السعادة الانسانية اذ به يمكن التسلط على الشهوتين الاخريين باضعاف ارادتهما ومحو خروجهما عن سنن الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط ويكون بهذا الاختيار السعادة ويكون به الشقاء فاية أمة كان اختيار عقلائها أميل الى الكمال وأحرص على السعادة كانت هى سعيدة وبضدها تتميز الاشياء

والسعادة يدور أمرها على كمال النفوس الانسانية أشخاصا وأما فسعادة الشخص تكون بكمال العقل وصحة البدن والجاه وتوفر الأموال[1] إذ الموجودات التى نشاهدها لا تخرج عن هذه إذ الكائنات أما أرواحنا أو أجسامنا أو خارجة عنا والخارج اما انسان و إما غيره ونعبر عنه بالأموال وترتيبها فى الشرف على حسب قربها و بعدها من العقل فالأموال أدناها وأرقى منها الجاه و يليه الصحة التى بها يتزن العقل والعقل وعلومه هو نهاية السعادة فكل ماعداه مقدمة له ولا يكمل إلا بمعرفة جميع أنواع العلوم العقلية والنقلية التى يجمعها ثلاثة أقسام وهى إما أن تحتاج إلى المادة فى الخارج والذهن وهى العلوم الطبيعية و إما أن تحتاج إليها فى الخارج دون الذهن وهى الرياضية و إما أن لا تحتاج لها فيهما وهى الالهيات وثلاثة عملية وهى علم الأخلاق وعلم سياسة المنزل وعلم سياسة المدينة وهذه الثلاثة تكفلت بها الشريعة المطهرة وأرشدت إلى الثلاثة قبلها صريحا تارة ورمزاً أخرى فهذه هى طرق السعادة ولا تمكن إلا بالاختيار الناشىء عن الشوق

(١) هذا الرأى مأخوذ من كلام الامام الغزالى فى الأحياء وهو مبنى على كتاب ارسطاطاليس فى الاخلاق وقد نقلناه فى سورة فصلت عند آية ان الذين قالوا ربنا الله الخ وعليه اعتراض وجيه فتدبر

المسند إلى العقل وأى أمة كان اختيار أفرادها يغلب عليه السعادة كانت سعيدة وايّما أمة تقاعس أفرادها عن اكتساب السعادة انحطت إلى دركات الهون

واعلم أن روح السعادة إذا سرت فى الأمة اثرت فى أفرادها تأثيراً حسنا وإذا تقلصت تلك الروح خمدت نيران أشواق أفرادهم ومعاشرة الأنسان لقوم هى أس سعادته وأس شقائه ومبدأ جنته وناره فالوسط يؤثر تأثيراً بينا ولما كانت الروح ألطف من النار بل أكثر سريانا من الكهرباء كان تأثير المعاشرة على الأخلاق أشد من تاثير النار فيما جاورها أو الكهرباء فى المعادن وهذا هو السر فى مشروعية الهجرة من بلد الكفر والجهل وهذا مبدأ ارتحال العلماء من بلد لبلد وأسفارهم إلى الديار القاصية لعلمهم ان الآخرة ليست شيئا سوى ثمرة هذه الحياة ومتى كانت الحياة الدنيا مع من لايعرفون طريق السعادة قادهم الانسان بالمعاشرة وكانت سعادته الأخروية على حسب الدينوية إذ أكثر الناس يفهمون أن المقدمة للسعادة سعادة فالمال والأهل والأصحاب والزوجة والأولاد والوظائف والرتب وعلو الجاه هى نهاية السعادة عند الكثيرين ولكنها عند الخاصة من العلماء مقدمات للسعادة لأنفسها فكأنهم يجعلونها سلما إلى رقى عقولهم الباقية بعد موتهم إذ هم يفهمون من قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ومن غيرها من آيات ذم الدنيا والأحاديث وكلام العلماء والزهاد أن هذه يقصد بها انها ليست مقصدا قط للعلماء ومن جعلها مقصده فهو من الانعام بل هو أضل وإنما تكون وسيلة وعلى ذلك يحمل كل مدح للدنيا وجميع أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الناموس من هذا القبيل فكانت أخروية بالقصد وإن كانت دينوية بالعمل مثل اتخاذ الأزواج والمآكل والمشارب وغير ذلك

وبالجملة تكون تلك الأموال منصرفة إلى المنفعة العامة دون الخاصة وهذا هو مقصود الشرائع السماوية بأكملها حتى تستعد الأمة بأغنيائها وعلمائها ويتعاونوا على البر والتقوى

الكلام على العمل والتوكل

علمت من هذا أن الشرع لم يأت قط بترك الأعمال وانما جاء بالحث عليها إذ هى رقى المدنية والتوكل عمادها فليس التوكل مايفهم قوم من العامة من أنها تَرَك الأشياء للمصادفة تجرى على غير نظام ولا سنن معهود وترك الأشياء ناقصة بلا ترو ولا اكمال عمل كلا ولنشرح التوكل بأوجز ما يمكن مع استيفاء البيان ولنقدم مقدمة فنقول :

قضى الشرع وحكم العقل ان مدبر الكون لايكلف نفسا إلا وسعها ولذلك ترى جميع هذه الكائنات تجرى على هذه القاعدة فكل من أوتى فهما وتمييزا وعقلا وأعضاء فبقدر ما أعطى يكلف العمل وهاك البيان

ترى الطفل فى بطن أمه لا إرادة له ولا اختيار ولا قوة يبطش بها فتأمل كيف لم يكلف فى بقاء حياته ان يأكل بفمه ولا يتناول شيئا بيده ولا يدبر لنفسه تدبيرا ولا يستنشق الهواء حتى يحيى فى بطن أمه وإنما أتاه عرق فيه دم يجرى متصل بالسرة يتفرع الى جميع اجزاء جسمه من دم الحيض ولذلك ينقطع أيام الحمل فاذا خرج من بطن أمه فتأمل كيف كاف بالهام من مدبر الكون أن يفتح فمه ويمسك بيديه ثدى أمه ويستنشق الهواء بأنفه وفمه وسهل له ارتضاع اللبن فى ثدى المرأة ولم يكلفه اكثر من ذلك بأن يسعى إذ لا طاقه له فاذا فطم أخذ يسعى على رجليه وكاف مضغ الطعام بالأسنان والقواطع التى تحدث له ويكلف بالألهام العمل بمقدار ما أعطى ويتناول الطعام بيده ولايزال تتزايد قواه العقلية والبدنية ويزيد تكليفة بالأعمال كالصنائع وتعلمها والدروس وفهمها الى أن يصير رجلا يلزم بتدبير منزل أو أمة بأسرها هذه هى سنة الكون ونواميسه « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » فتأمل كيف طابق الكلام هذا النظام اذا فهمت هذا فلنبين معنى التوكل فنقول

المتوكل فيه إما أمر مقطوع به وإما أمر مظنون وإما موهوم فالأمور المقطوع

بها والقريبة منها كاستنشاق الهواء و إدخاله الرئتين لاصلاح الدم وتناول الطعام باليد و إدخاله الفم واستعمال الملابس لوقاية الحر والبرد والمساكن فكل هذه يقطع العقلاء بنتائجها عند الاستعمال و بضررها عند الترك والمظنون نفعها جميع الأعمال التى لها نتائج عند غالب الناس وقليلا لا تثمر وذلك جميع الأمور التى تقوم بها الممالك من الزراعة والتجارة والصناعة والأمارة و ينتج عنها صيانتها بالسياسات و بناء القلاع و إصلاح الجيوش وعمل الأسلحة وكل ما به نظام الأمم والممالك و إصلاح الأشخاص وشؤونهم فى داخل الممالك وخارجها بالطرق المألوفة المعهودة عند الناس فهاذان القسمان وهما المقطوع به والمظنون يكون التوكل فيهما راجعا لصرف القلب الى مدبر الكون فى انتاج الثمرات و بقاء تلك الأدوات وأن تكون الأعضاء صحيحة إذ هو الذى يقدر على إبقاء تلك الأعضاء و إنتاج تلك الثمرات فلا يعلم ما ينتج من تلك الأعمال إلا هو ولا يحفظ الأعضاء إلا هو فيكون المقصود من التوكل إذن إنما هو القوة على العمل مع استيفاء شرائطه العقلية وأدواته العملية و إخلاصه ظاهرا و باطنا فتكون الأعمال جارية على النواميس المعهودة والعقول ملتجئة الى مدبر الكون هذا هو المقصود من التوكل وكم ورد فى القرآن من مدحه لأنه أقوى نصير على العمل قال تعالى فى قوم موسى « وقال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » فتأمل كيف جعلوا التوكل معينا على العمل وتقوية العزيمة لا كما يزعمه كثير من الجهلة إنه ترك الأمور الى المصادفة

فكلف الإنسان بالعمل العقلى تدبيرا والجسمانى مباشرة على مقدار ما أوتى كما هو مقتضى نواميس الكون كما علمت فى مثال الجنين والطفل والشاب وهذا هو المقصود المطابق لما ورد مع الدخول للأمور من أبوابها — أما القسم الثالث فهو الطرق التى لا توصل الى المقصود فى غالب الأوقات و إنما يكون توصيلها على حسب الأتفاق والمصادفة لأنها من غير الطرق المعهودة المألوفة وذلك كل ما ليس سببا للنفع مثل الرقى والتطير والتشاؤم وأخذ الأمور من الفأل والاستشفاء بالعزائم وأمور الدجالين وكتابة التمائم

وجعل آخر الطب الكى والقصد ان كل أمر لم يكن سببا طبيعيا للأمور فانه خارج عن التوكل ومن سار فيه فقد النفع الدنيوى وخرج عن اسم التوكل فلم ينل دنيا ولا دينا

وليس لهذا المعنى أجمع ولا أخصر من قوله صلى الله عليه وسلم « سبعون الفا من من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فجعل الرقية والطيرة والكى من الخروج عن التوكل ومعلوم انها أمور نفعها قليل ليست من الأمور الاعتيادية اما الطب فهو الفن الذى يثمر فى كثير من الأوقات النفع فهو من باب التوكل كجميع الصنائع والعلوم وأما الكى فقد كان العرب يكوون المريض اذا يئسوا من شفائه ولا جرم انه ينفع فى أمراض قليلة وهى التى يوافقها انضاج محل الألم وفى الأكثر يضر كما هو الشأن فى كل دواء يستعمل بدون علم فقد يوافق قليلا والأكثر عدم الموافقة إذ وضع دواء واحد لجميع الأمراض جهل محض وكل شىء عنده بمقدار

المتكل على شىء من هذه الأشياء ممقوت فى الدنيا منحوس الحظ لخروجه عن التوكل ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما معناه (من اتكل على شىء من هذه وكله الله إليه)

نرى العلماء يحرمون تولية القضاء على من طلبه بلسانه أو قلبه وادخلوا هذا مع هؤلاء الدجالين من علماء السحر والطلاسم ويلحق بهم محضروا الأرواح وكاتبوا التمائم إذ هؤلاء جعل الله أعمالهم موقوفة على ما اتكلوا عليه فكأنهم قيدوا أنفسهم فى ذل العبودية لتلك الأشياء

المتوكل من يأتى البيوت من أبوابها ومن هذا نفهم قول كثير (خذ من عبد الله وتوكل على الله) ثم تأمل كيف ظهر مما قررناه أن التوكل فى الاسلامية ضد مايفهمه الناس فيه فمعنى التوكل إذن هو اعتماد القلب على الله فى سلامة الحواس والآلات وتمام الأعمال مع استيفاء ما يقتضيه العقل والطرق المعتادة المألوفة قال تعالى « وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » فانظر كيف قدم

المشاورة مع أصحابه ثم العزم على الأمر ثم التوكل

من هنا نفهم أن الاتكال على الاخبار بالغيب من القوم المجهولى الأحوال أو الأحلام ليس من التوكل فى شىء وإلا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس وأقربهم الى علم الغيب فكيف أمر بالمشاورة مع أصحابه ثم العزم بعد ذلك

نعم إن الاخبار بالغيب يقع كرامة لبعض أصفيائه وهذا لاينكره العقلاء وهكذا الرؤيا الصادقة كما هو معهود معلوم مستفيض ولكن الرؤيا تحتمل التأويل ومثلها كلام الصلحاء على أن الرؤيا الصادقة تتبعها الكاذبة فتختلط بها وهكذا الكشف الصادق يختلط به الكاذب وهكذا الصادق من الناس مختلط بالكاذب وأكثر الموسومين بذلك برآء من الدين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقليل ماهم

المعول عليه فى جميع الأمور إنما هى الآراء الصادقة والعقول وترك الانخداع للزخارف والأوهام

كثير من أمراء الاسلام يخدعون بأقوال قوم جاءوا دسيسة من بلاد أخري وافتروا إثما وكذبا على الله فيكون هؤلاء سبب سقوط الأمة كما حصل فى الجزائر أيام الشيخ عبد القادر اذ أرسل الفرنساويون رجلا سرا فقرأ علوم الاسلام وادعى الصلاح واتبعه أكابرهم وانتهى الأمر إلى أنه أخبرهم أخيراً بأن الفرنسيين سيدخلون فى هذا العام هذه البلد وكان أمر الله قدرا مقدورا فانحلت عرى قواهم وهبطت هممهم فدخل الفرنسيس وسلم لهم العسكر ولبس ذلك الشيخ الفرنساوى حقيقة المسلم ظاهرا برنيطة ورجع الى بلاده وليست المسألة خاصة بهذا بل وقائعهم كثير جدا أدت الى زوال دول وقتل ملوك وما نشأ هذا كله إلا من فهم الشريعة على خلاف وجهها وعلى هذا فلتحمل جميع آيات التوكل

من أكبر أسباب إهمال الأعمال ما كثر وشاع من قراءة القرآن لمجرد مجىء الرزق وتكرار السورة مرة أو مرارا على ما يفعله أهل العزائم لقصد جلب الرزق ولعمرى أن هذا من أشد الضربات على أمتنا، وذلك أن القرآن مبدأ العلوم ومنشأ الحكم

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون منه الأحكام بمجرد قراءته ثم دونت المذاهب الأربعة فى القرن الثانى من الهجرة واشتغل أغلب الناس بالفروع المتفرعة من تلك المذاهب فقام طائفة من الصالحين أخذتهم الحمية على القرآن ووضعوا أحاديث فى فضائل السور ليصرفوا الناس عن الخلاف فى المذاهب الى القرآن وحفظه فذكروا له فضائل ذكره الشيخ السيوطى فى كتاب الاتقان فى علوم القرآن وحكى أن رجلا وجد أحاديث كثيرة رواها أحد الرواة عن عكرمة عن ابن عباس فسأله قائلا أن أصحاب عكرمة لم ينقل أحد منهم شيئا عنه فى فضائل السور مما تذكره أنت . فقال وضعته لينصرف الناس عن فقه أبى حنيفة الى القرآن وهكذا حكى عن أحد الصوفية فى ذلك الزمان مثل ذلك فهؤلاء قصدوا خيراً فجاء شرا فان الناس انصرفوا الى القرآن لمجرد التلاوة بلا فهم اذا كثر الأحاديث جاءت للترغيب فى ثواب عاجل أو آجل على مجرد التلاوة ولم يرجع فيها للمعنى واتفق الحفاظ على أن أغلب تلك الأحاديث موضوعة أو ضعيفة ولذلك أصبح القرآن يقصد للفظه دون معناه مما جعل الاسلام لفظا بدون معنى إلا عند الخاصة وقليل ماهم وأصبح كثير من القراء يتكلون على مجرد التلاوة وهذا مخالف للعقول ولما فى شريعتنا من وجوب السير على موجب النواميس الكونية فى الأعمال والجرى على مقتضى الطريق المستقيم فى كل شىء وعلى هذا فهذه كلها أعمال تخالف شرعنا وهذا القرآن يجب أن يصرف الناس اليه بالتعقل والفهم ومعرفة مافيه من الحكم والعلوم

هؤلاء الكاذبون الوضاعون قد أفسدوا فى الدين ولم يصلحوا فهم وان كان وضعهم لقصد شريف ليسوا بادرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وضع الناموس والعلوم فيحق أن يقال لهم (نعم السير على بئس العير) واولئك هم وقود النار كما قال صلى الله عليه وسلم من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار

الفصل الثالث

توزيع الأعمال على الأفراد
وما حكم الشرع فى فروض الكفايات

قدمنا ان الامة كالجسم الواحد وكما ان فى الجسم رأسا فيها المخ ومركز الاعصاب السارية فى الجسم وفيها أيضا الكبد لطبخ الدم والقلب لتوزيعه والطحال والكليتان والامعاء والمعدة فكل هذه كخزائن فيها جواهر تخزنها أولا الى وقت معلوم ثم ترسلها فى البدن تأخذ مجراها القانونى فهكذا للامة ملوك وأمراء وعقلاء وهؤلاء منهم الرأس ومنهم الكبد ومنهم القلب فوجب عليهم جميعا أن يوزعوا الاعمال على الامة لكل ما يليق له وذلك أن الله عز وجل ما خلق الخلق وتركهم سدى فلما جعلهم محتاجين لبعضهم جعل لكل طائفة استعداد الامور خاصة بهم وشاهدنا على ذلك مانرى من ميل كل انسان لحرفة مخصوصة أو علم على حدته أو غير ذلك مما هو مشاهد معروف

ثم اعلم أن فرض العلم قسمان عينى وكفائى فالعينى من الفقه ما اشتهر بين المسلمين معرفته من العامة والخاصة مما نص عليه القرآن والكفائى منه مالا ينص عليه فيه ولم يذكر الا فى الفروع أو بعض الاحاديث وهذا هو الواجب على سبيل الكفاية لا على العامة ولا على جميع الخاصة بل بعضهم الذين تقوم بهم الكفاية وهناك علوم وأعمال لايجب تعلمها الا على بعض الامة كعلم الطب والزراعة والطبيعة والفلك والسياسة وكالجهاد ورد السلام وصلاة الجنازة وبهذا تعلم ما يقوله كثير من علماء الفروع ان علم الفقه فرض عين على الناس الى حد اجتهادالفتوى أو اجتهاد المذهب أو نحو ذلك مما تنزه عنه شريعتنا المطهرة فانصرفت اليه أفكار العلماء وتركوا ماعداه مع أن فروض الكفايات كثيرة وهى كل ماتحتاج اليه الامة ومنه جميع الصنائع لاسيما الاسلحة الجديدة والمدافع القتاله وعلوم الطب والزراعة وعلوم الحروب والتجارة والبيطرة والسياحة شرقا وغربا والرد على مؤلفى الكتب من اعداء الدين وضروب الصناعات المتنوعة والآلات

البخارية وجميع مايلزم لهذه الحياة مضارعة لمن جاورنا من الامم فالاقتصار على فن واحد خروج عن سنن هذا الدين القويم فاذا تركت الامة هذه الفرائض كلها اثمت جميعها وعوقبوا فى الدنيا بالخزى وفى الآخرة بعذاب النار كما ذكره الشافعى رحمه الله فى الرسالة

باب العلم

(قال الشافعى) قال لى قائل ما العلم وما يجب على الناس فى العلم ؟ فقلت له: العلم علمان علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله . قال : ومثل ماذا قلت مثل ان الصلوات خمس وأن الله فرض على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت ان استطاعوا إليه سبيلا وزكاة فى أموالهم وانه حرم عليهم الربا والزنا والقتل والسرقة والخمر وما كان فى معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعلموه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم وان يكفوا عما حرم عليهم منه

(قال الشافعى) وهذا الصنف من العلم كله موجود نصا فى كتاب الله جل ثناؤه وموجود عاما عند أهل الاسلام ينقله عوامهم عمن مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتنازعون فى حكايته ولا وجوبه عليهم وهـذا العلم العام الذى لايمكن فيه الغلط فى الخبر والتأويل ولايجوز فيه التنازع (قال فما الوجه الثانى) قال : فقلت له ماينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا فى أكثره نص سنة وإن كانت فى شىء منه سنة فانما هى من أخبار الخاصة لا من أخبار العامة وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً قال . أفتعدون هذا أن يكون واجبا وجوب العلم الذى قبله أو موضوعا عن الناس علمه حتى يكون من علمه متنفلا ومن ترك علمه غير آثم بتركه أو من وجه ثالث فوجدناه خبرا أو قياساً

(قال الشافعى) فقلت له بل هو من وجه ثالث قال صفه لى واذكر الحجة فيه وما يلزم منه ومن يلزم وعمن يسقط فقلت هذه درجة من العلم ليس يبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يعطلوها

وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يحرج غيره ممن تركها ان شاء الله والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها

(قال الشافعى) وقال فأوجد لى فى هذا خبرا وسببا فى معناه ليكون هذا قياسا عليه فقلت له فرض الله عز وجل الجهاد فى كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أكد النفير منه فقال جل ثناؤه ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون الآية وقال جل ثناؤه فاقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة الآية وقال جل ثناؤه فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وَخذُوهم وَاحصرُوهمْ وَاقعدُوا لهُمْ كلّ مَرْصد وقال جل ثناؤه قَاتلوا الَّذِينَ لايؤمِنُونَ باللهِ وَلا بِاليَوْمِ الآخرِ الآية

(قال الشافعى) أخبرنا عبد العزيز ابن محمد الدارو ردي عن محمد بن عمر بن علقمة عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وقال الله جل ثناؤه (مَا لَكُمْ إذَا قِيلَ لَكُمْ انْفرُوا فى سبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إلَى الأرْض أرَضيتُمْ بالحيَاةِ الدُّنْيَا من الآخرَةِ الى قَدِير) وقال جلّ ثناؤه (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهدُوا بِأمْوَالِكُمْ وَأنفسِكُم فى سبِيلِ اللهِ الآية)

قال الشافعى فاحتملت الآيات ان يكون الجهاد كله والنفير خاصة منه على كل مطيق له لايسع أحدا منهم التخلف عنه كما كانت الصلاة والحج والزكاة فلم يجز لاحد منهم وجب عليه فرض منها أن يؤدى غيره الفرض عن نفسه لان عمل احد فى هذا لايكتب لغيره واحتملت ان يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات وذلك أن يكون قصد بالفرض منها قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية فى جهاد من جوهد من المشركين مدركا تأدية الفرض فله الفضل ومخرجا من تخلف من الاثم ولم يسو الله بينهما فقال تعالى لايَسْتَوِى القَاعِدونَ مِنَ المؤْمِنينَ الآية

(قال الشافعى) فقال أما الظاهر فى الآيات فالفرض على العامة فأين الدلالة بأنه إذا قام بعض العامة بالكفاية أخرج المتخلفين من الاثم (قال الشافعى) فقلت له فى هذه الآية قال وأين هو منها قلت قال الله جل ثناؤه (وكلا وعد الله الحسنى) فوعد المتخلفين عن الجهاد الحسنى على الايمان وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدين ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم كانت العقوبة بالاثم ان لم يعف الله عنهم أولى بهم من الحسنى قال فهل تجد فى هذا غير هذا قلت نعم قال الله جل ثناؤه وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزا معه من أصحابه جماعة وخلف أخرى حتى خلف على ابن أبى طالب رضى الله عنه فى غزوة تبوك فاخبره الله جل ثناؤه أن المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة قال فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة فاخبر أن النفير على بعضهم دون بعض وأن التفقه انما يكون على بعضهم دون بعض وكذلك ما عدا الفرض فى عظم الفرائض التى لا يسع جهلها والله اعلم

(قال الشافعى) وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب فاذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم ولو ضيعوه معاً خفت أن لا يخرج واحد منهم مطيق فيه من المأثم بل لا أشك إن شاء الله لقوله ألا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما قال فما معناه قلت الدلالة عليه أن تخلفهم عن النفير كافة لا يسعهم ونفير بعضهم اذا كانت فى نفيره كفاية يخرج من تخلف من المأثم إن شاء الله لأنه اذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم النفير قال ومثل ماذا سوى الجهاد قلت الصلاة على الجنائز ودفنها لا يحل تركها ولا يجب على كل من يحضرها كلهم حضورها ويخرج من تخلف عنها من المأثم من قام بكفايتها وهكذا رد السلام قال الله جل ثناؤه وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم القائم على القاعد وإذا سلم من القوم واحداً جزأ عنهم وانما اريد بهذا الرد رد القليل الجامع لاسم الرد والكفاية فيه لئلا يكون الرد معطلا ولم يزل المسلمون على ماوصفت

منذ بعث الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا الى اليوم يتفقه و يشهد الجنائز بعضهم و يجاهد و يرد السلام بعضهم و يتخلف عن ذلك غيرهم فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه والجهاد وحضور الجنائز ورد السلام ولا يؤثمون من قعد عن ذلك اذا كان لهذا قوم قائمون بكفايته اه كلام الشافعى رحمه الله

وفرض الكفاية مهم يقصد حصوله من غير نظر بالذات الى فاعله أى يقصد حصوله فى الجملة فلا ينظر لفاعله إلا بالتبع للفعل ضرورة أنه لا يحصل بدون فاعل وهو يشمل الدينى والدنيوى كالحرف والصنائع وكل ما ذكرناه مما يلزم للمدنية الحاضرة وها أنت ذا علمت أن الشافعى رضى الله تعالى عنه قال: ان الاثم على القادرين جميعا عند الترك وأنت تعلم أن القدرة مختلفة إذ ليس أحد العقلاء الذين لا جاه لهم كعاقل عظم جاهه كالملوك والأمراء فالأمة الآن كلها مطالبة بجميع الأعمال اللازمة للمدنية الحاضرة ومباراة الاروباويين والملوك أولى بالوجوب وأكثر المسئوليه عليهم هم والعلماء الذين لا يعظون الناس بذلك ولا يفهمونهم واجباتهم ولا يظهرون لهم أن هذه فروض كفايات فالحق والحق أقول أن العلماء لو علموا هذه الحقيقة ونادوا بها فى الجماهير لهرع الناس الى تلك الصنائع وعدوها من جملة ما يثاب عليه فى الآخرة ولأصبح الشرق يضارع الغرب و يفوقه

وها أنا ذا أدعوا بكتاب الله وسنة نبيه وكلامه ملوك الاسلام وأمراءه وعلماءه الى الى تنبيه أغنياء الأمة وعقلائها الى جميع الصنائع وأن يعطى كل ما هو له أهل من تلك الصنائع حتى لا نحتاج الى ثوب ولا إبرة ولا فأس ولا قدوم ولا مدفع ولا غيرها من الخارج وما دمنا نحتاج الى أصغر شىء كالكبريت الذى يوقد به فنحن فى اثم وحرج عظيم ومحاسبون يوم القيامة معذبون فى الدنيا بالجهل والتأخر وفى الآخرة بالعذاب المهين

والذى أراه فى ذلك أن يشغل ملوك الاسلام وعلماؤه الطوائف كلا بحرفة تنفع الأمة فيوزعون على كل واحد من مشايخ الطرق ما يقدر على تحصيله فلقوم الطب

والجراحة ولآخرين الترغيب فى الصلاة ولآخرين الترغيب فى الزكاة ولآخرين الترغيب فى الحج وغيرهم للحث على صلة الأرحام ولغيرهم وجوب الاتحاد فى المسلمين وهكذا ويبثون العلماء لارشادهم فيحضونهم على الصنائع المختلفة والآلات البخارية فهذا كله صار الآن من فروض الكفايات الواجبة لمباراة الأمم المجاورة ومسابقتها ولا ينفع أمة الاسلام أكثر من بث النصائح والأرشاد من أهل العلم ولا يوقظ أهل العلم إلا الحكماء المرشدون والعلماء الكبار لذلك يجب على كل حكيم أن ينصح العلماء ويدلهم على تلك الطريقة المثلى ليشتهر القول بين طبقات المسلمين ولا يتكلفون الفقه وحده وضياع الزمن فيه فانك قد رأيت من كلام الشافعى رحمه الله تعالى ان الواجب فيه قليل جدا وهى الأمور العامة ولا تخفى على أحد أما ما عدا ذلك ففرض كفاية وفروض الكفاية كثيرة جدا إذ هى دينية ودنيوية ومن الدينية الوعظ والارشاد لفنون العبادات والذى أراه فى نصيحة الأمة بالقرآن أن يحفظ كل ما نيط به الوعظ فى باب مخصوص آيات يعظ بها فية كآيات الجهاد فيه مع فهم معناها وكايات الصلاة والحج وبر الوالدين والأخلاق والحلم وهكذا من يرشد لتعليم العلوم النافعة كالطبيعيات يحفظ ما يشير لتلك العلوم منها وسنجعل لهذا بابا نذكر فيه ما يلزم فى ذلك

ولما كان مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب وجب على ملوك الأسلام والأمراء أن يتوصلوا لهذا الغرض بعمل المعارض الصناعية فى بلادهم ودفع مكافأة والقاب شرف لمن يبرع فى فن من تلك الفنون دينية أو دنيوية ليقوم الناس بتلك الواجبات ويعم التعليم فى أنحاء بلادهم وتنتشر انتشاراً تاما والاسلامية الآن فى حاجة شديدة الى التنشيط فكل من قام بعمل مثل هذا قام مقام نبيه صلى الله عليه وسلم فى التأدية على قدر اجتهاده ألا فليغتنم هذه الفرصة العلماء والأغنياء والأمراء (والذينَ جاهَدُوا فينَا لنهدينَّهم سُبلنَا و إنَّ اللهَ لمعَ المحسنين)

الفصل الرابع

العلوم التى يجب تحصيلها والصنائع

ذكرنا آنفاً ما قاله الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه وعلماء الأصول من وجوب جميع الصنائع والعلوم على الناس من باب فرض الكفاية فأى أمة قصر رجالها وسكت علماؤها على بعض الفروض دون بعض فلتبشر بأنها تعذب مرتين مرة فى الدنيا بالتأخر ومرة فى الآخرة بالعذاب المهين ولعذاب الآخرة أشد وأبقى فان عذاب الدنيا قاصر على الجسم الفانى وعذاب الآخرة على تلك النفس الانسانية التى لها الدوام واعلم أن الأمم فى الدنيا لهـا وجهتان وجهة الأفراد ووجهة الأمم فوجهة الأفراد الترقى الى عالم آخر ووجهة الأمم ترقى مجموعها ليحوز ابناؤهم والمنتسبون اليهم شرفا وراحة بين الأمم وهاتان الوجهتان عليهما مدار الحياة واليهما يعمل العاملون وفيهما تنافس المتنافسون وتغلب الوجهة الأولى على المتدينين والثانية على السياسيين وبينهما ارتباط شديد ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فجميع عقلاء الأمم انمـا يسعون في الحياة لأمور دائمة إما بدوام الأشخاص وذلك بالرقى لعالم أرقى وأما بدوام الأمم ببقاء الأجيال المتعاقبة حائزة الكمال فى المدنية والحضارة والأول هو بقاء الشخص والثانى بقاء النوع ولعمرى أن كلا منهما يخدم الآخر وقد جمع الأمرين الحكمة المشهورة اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . وأقرب منه قوله تعالى ﴿ومنَ الناسِ من يقولُ ربَّنا آتِنا فى الدنيا وماله فى الآخرة مِن خَلاق﴾ وهؤلاء هم الطبقة السفلى من نوع الانسان التى عبرنا عنها بالأمم الجاهلة ومنهم من يقول ربَّنا آتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنة وهؤلاء هم أهل المدينة الفاضلة التى قدمنا شرحها وأما الذين يقولون ربنا آتنا فى الآخرة حسنة لا فى الدنيا فليس لهم ذكر فى الآية وهم الأمم المنحرفة الذين قدمنا ذكرهم وقارناهم ومن معهم بمراتب الحيوان وذكرنا أنهم هم الذين يقولون

مت بالارادة تحى بالطبيعة فهؤلاء منحرفون لأنهم أرادوا القصد بلا وسيلة ولذلك جاء شرعنا بالدين والدنيا معاً لأنهما ممتزجتان والقصد لايستغنى عن الوسيلة وإلا هلك الأصل والفرع

وانما لم يذكر هؤلاء المنحرفون فى الآية لأن القصد من التنزيل أن يكون ضد الطبع ليتعادلا فذم من اقتصر على الدنيا ليكون ضد الطبع ومدح من اعتدل فيهما لأنه الكمال (وكذلكَ جعلناكمُ أمةً وَسَطا لتكونُوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكمُ شَهيداً) وأما أولئك فلم يذكروا لأن القصد سوق الأفكار إلى الآخرة وذلك ينافيه فما أعجب حكم هذا الترتيب ثم تأمل كيف ذكر حسنة الدنيا ثم أتبعا بحسنة الآخرة ليعرفنا ان الأولى سلم للآخرة ولتقتد بتلك الحكم الزاهرة ونقدم حسنة الدنيا فنقول حسنة الدنيا عبارة عن كل مايلزم لهامن مآكل ومشارب وتزاوج مما به بقاء الحياة فيها والراحة الممكنة مع حسن النظام

ولهذه الحسنة علوم هى بمنزلة الغذاء وأخرى بمنزلة الدواء فالأولى تشمل الصنائع والزراعات والتجارات

فكل صنعة لجلب القوت كالزراعة والخبز وما تحتاج إليه من صناعات البخار التى بها السقى والحصاد والدرس والتخليص والطحن والعجن والنخل واجبة ولكل من هذه آلات وعدد يجب الاعتناء بها وعملها وقيام المسلمين بها اذ لاتمكن الحياة الدنيا فى هذه الأزمان إلا بها وهكذا الآلات والعدد التى بها الملابس كآلات الحلج والنسج والخياطة وغيرها من آلات البناء ولا بد لهذه كلها من قلاع وحصون وسلاح فاذن لابد من علوم الصناعات التى بها عمل الأسلحة النارية المستحدثة

هذه هى العلوم التى تعد لحسنة الدنيا كالغذاء أما العلوم التى هى كالدواء فهى العلوم التى بها يكون عدم التنازع فى الأموال كالبيع والشراء وقسمة المواريث والهبات والصدقات والمناكحات وعدم التنازع فى النساء بذكر أحوالهن الشخصية مع الرجال من الطلاق

والرجعة والعدة والخلع وغير ذلك وبها يكون دفع المفسدات لها كالعقوبات الزاجرة كقتال الكفار وأهل البغى والحث عليه والحدود والغرامات والتعزيرات والكفارات فكل هذه تزجر عن انتهاك حرمة أصحاب الأموال فهذه كلها فى علم الفقه الذى هو فى الحقيقة كالدواء وتلك الصنائع الدنيوية كالغذاء وأى أمة استعملت الدواء وتركت الغذاء مات احساسها فكما يموت من يعيش على أكل الصبر أو يحيى حياة لايموت فيها ولا يحيى فهكذا الأمة التى تقتصر على علم الحدود والأحكام ولا تعرف سواها ولعمرى إذا ضعفت المكاسب وقلت حيل الدفع فأين المعاملات والأحكام والحدود وانما جاء الشرع بهذه العلوم لأن الناس بطبيعتهم ميالون إلى تعمير الأرض فجاءت الشرائع لتهديهم إلى مابه تعاونهم وتعاضدهم فأما إذا وكلت إليهم وجاء دور جديد للأحوال المعاشية فانه يأمرهم باقتحام الأخطار لاستدرار الرزق من هاطل الغيث ونابت الزرع

وكما ان علم الطب يراد لاصلاح الجسم الموجود فهكذا علم الفقه جاء لاصلاح أمة تعيش ولها ما يكفيها فى الحياة فعلم الطب لاصلاح أجسام الأشخاص وحدود الفقه وأحكامه لاصلاح جسم الأمة وتعلم العبادات خصوصية أخرى فى تشويق النفس إلى مدبر الكون فهل يعقل أن يحيى جسم ميت فاذا ماتت الأمة بعدم مايغذيها وضعفت معداتها فى الحياة من الأغذية التى بها حياتها والأسلحة التى بها تدافع فمن يصح بعلم الطب ومن تجرى عليه نواميس الشرع بل يموت كل منهما بموت الأمة التى هو فيها ومن هنا تفهم قول الشيخ الغزالى (ان العلوم العقلية بمنزلة الغذاء والشرعية بمنزلة الدواء)

هذا هو الذى به تعمر المدن فى الدنيا وتبقى الأجسام محفوظة إلى وقت معلوم ومحصلها أمران مابه حفظ الأجسام من الداخل بالتحليل والتركيب وما يأتى لها من خارج من عوارض الجو ومنازعات نوع الانسان وقد قدمنا مافيه الكفاية فى ذلك كله

أما مابه صلاح العقول فهى علوم الأخلاق والعبادات وجميع مابه كمال النفس الانسانية من العفة والشجاعة والحكمة والعدالة وهذه الأربعة هى أمهات الفضائل التى

بها يكون الانسان كاملا فبالعفة والشجاعة يتخلى عن الرذائل وبالحكمة والعدل يتحلى بالفضائل وتحت الحكمة معرفة جميع العلوم وهى لاتكون إلا لحكماء الأمة وكبرائها الذين رضوا بالراحة الفكرية عن الشهوات المحرقة ولهم السلطان على علماء الأمة ينصحونهم ويرشدونهم ويعين على هذه معرفة مآل الانسان ودار الآخرة وصفات الإله وأفعاله فترتبط النفس بمبدع الكون ومن هذا عرفنا مابه عمارة الأرض وبقاء الأجسام وما به تنوير العقول وترقيتها .

وكل من علوم القسمين لا تأتى وحدها بل لابد من وعاظ يهدون الناس إلى تلك العلوم ويشوقونهم إلى حفظها والحرص عليها بالترغيب والترهيب وهؤلاء يحتاجون إلى فن القصص والروايات الأدبية التى أسها قصص القرآن الشريف بذكر أحوال الانبياء والجبابرة والصالحين والكافرين والأمم البائدة الهالكة التى تركت عمارة الأرض للمصادفة فأهلكهم الله بذنوبهم وسنعقد لهذا وأمثاله باباً خاصا فى هذا الكتاب انشاء الله تعالى وهؤلاء الوعاظ يجب أن يتحروا مواضع النقص فى الأمة فكلما رأوا ثلمة أسرعوا إليها فنصحوا ورغبوا فيها فى مثل هذه الايام يذكرون أن المحبة واجبة بين جميع المسلمين ويعرفونهم أحوال الأمم المجاورة وكيف حصل تفرقنا ويوردون الأحاديث والآيات ويذكرونهم بالصنائع والحرف ويعرفونهم أن لهم على ذلك أجرين أجرا فى الدنيا وأجرا فى الآخرة وهكذا ولابد أيضا من علماء الكلام وعليهم أن يكون علمهم على حسب ما اعترى الدين من التشويش فأما علم الكلام الذى عندنا الآن فالصواب تحويره وتهذيب الذى فى الامة الآن فليس له لزوم بالمرة بل الاشتغال به حرام على المسلمين فان الدين جاءه أعداء كالسيل العرم انحط عليهم من بين أيدينا ومن خلفنا وما بين ذلك فأخذ القسيسون يؤلفون المطاعن على الاسلام وهكذا القاصرون فى العلوم الجديدة يظنونها مخالفة له فوجب أن يكون علماء الكلام هم الباحثون عن نفى الشبهة الحادثة وتطبيق العلم على الدين بقدر الشبهة بلا زيادة ولا نقص إذا علم الكلام ليس إلا سلاحا يقاتل به المشوش للأذهان كما إن الحصون والقلاع والاسلحة يدافع

بها المغيرون على الاجسام والبلاد وكما أن السلاح ليس لنا به حاجة إذا لم يكن عدو فكذلك علم الكلام ليس لنا به حاجة إذا لم يكن مبتدع وكما أن السلاح يجب أن يكون فى كل زمن بحسبه ويتنوع على حسب تنوع أسلحة العدو فهكذا علم الكلام يتنوع على حسب التشويش الحادث على الدين فالوعظ والسلاح وعلم الكلام كلها أدوية لأمراض أجسام الامة فكما أن لكل مرض علاجا فهكذا تعالج الامة بالوعظ وتصنع الاسلحة والحصون وتؤلف علم الكلام على حسب الحوادث الطارئة عليها وكما أن من يداوى جميع المرضى بدواء واحد يعد جاهلا كالذى يكون مريضاً ويستعمل الرقيا مع جميع الناس فكذلك من يعظ الامة الاسلامية كلها بوعظ واحد ويظن أنه ينطبق على جميع الأزمان والامكنة اويقاتل كل عدو بسلاح واحد فهو غر جاهل أو يدرس علم الكلام القديم الذى جعل دفاعا لمبتدعة العصر الاول لهذا العصر فكذلك يعد قليل العقل ويكون كالذين يكتبون وقد عدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلين فى غير المتوكلين اذ ليس القصد مسئلة الكى وحدها بل كل أمر يؤخذ بلا فكر ولا روية ولا نظام بل يقال كما وجدنا عليه أباءنا فهو خارج عن التوكل وبعبارة أوضح كل مالم يوصل الى المقصود عقلا وعرفا فهو خارج عن التوكل وما أشبه وعاظنا وعلماء كلامنا وصانعى أسلحتنا بشعرائنا فكما نرى أولئك يدرسون و يصنعون و يعظون كما كان الأولون فهكذا ترى الشعراء إلا قليلا منهم يرجعون للتشبيه البدوى القديم ولا يذكرون ما يرون من جمال المدنية والحضارة ومحاسن الطبيعة وجمال ما يشاهدون فى مناهج الكون فاذا سرى التقليد والانحطاط فى أمة سرى فى كافة شعرائها وخطبائها وعلمائها (اجمال وتذكره)

وإجمال القول أن العلوم إما أن تكون أغذية أو أدوية وهما قسمان عقلية وجسمية وكل منهما تخلية وتحلية فهى ثمانية أقسام .

(١) فالأغذية الجسمية هى علوم الزراعة بما يتبعها من جميع العلوم الطبيعيات وهى فروع كثيرة كالكيمياء وعلوم الحيوان والنبات والبيطرة والبيزرة وغيرها وكل

فرع ربما تفرع إلى فروع بتقدم العلوم وتمدين الامم

(٢) وعلوم الأغذية الجسمية التى للتخلية هى علوم سبك المعادن والأسلحة الجديدة والعدد من المدافع والسفن الحربية فهذه كلها لقتال العدو للمحافظة على الأجسام من الخارج وأما التى قبلها فهى للمحافظة عليها من الداخل ومردنا بالداخل مالم يكن من اغتيال نوع الانسان فيدخل فيه المساكن والملابس واتقاء الحر والبرد وغير ذلك

(٣) وأما علوم الأغذية العقلية التى للتحلية فهى علوم الحكمة النظرية وهولعمرك ينبنى على أساس علوم الأغذية الجسمية فترى علماء الحكمة العالية والفلسفة الالهية يبنون براهينهم على ما رآه علماء الطبيعة والفلك ويخرجون من المحسوس إلى المعقول ويدخلها علوم السنة والقرآن بل هما مبدأ لجميع الأقسام اما صريحاً واما إشارة واما علوم اللغات والبلاغة ونحوها فهى مقدمات ليست إلا للتوصل بها فالتعمق فيها جهول ولقد صرفنا شطراً كبيراً من حياتنا فيهما تقليدا ثم اتضح لنا الحق بعد حين وعرفنا أن الأمم حولنا يعرف الواحد منهم لغة ولغتين وأربع لغات فى أزمان قليلةونحن نمضى حياتنا كلها فى اللغة العربية وهم أعلم منا بها فياحسرة على أمة لم تجدمن يرشدهاو يقيمها من رقدتها ويوقظها من غفلتها وكتابنا هذا إذا تأملته وجدت فيه زبدا من علوم الحكمة والفلسفة العالية التى هى المقصود من حياتنا

(٤) وعلوم الأغذية التى للتخلية العقلية هى علوم الأخلاق الدالة على الطهارة من الشجاعة والعفة والعبادات

(٥) وعلوم الأدوية الجسمية التى للتخلية هى علم الطب ومن العجيب أن هذا الفن يحتاج إلى فنون أخرى من الطبيعة بل يحتاج إلى علوم الطبيعة بأكلها كما أن الفلك يحتاج إلى علوم الرياضة أجمعها وكأن الأمراض وتقدير الأزمان يحثاننا على قراءة جميع علوم الأرض والسماء لنعيش فى رفاهية وراحة وترى الطب يدعو إلى كل علم يحتاج إليه علماء الزراعة ولو إجمالا فكأنه يشير إلى أنكم تتداوون بهذه العقاقير وهى

تداوى أجسامكم ولا بقاء لها إلا بهذه العلوم كما كانت معرفة الطب تتبع علوم الطبيعيات المحتاج إليها الانسان فهكذا ترى علماء الالهيات يحتاجون لجميع العلوم ولو إجمالا لأن مدبر الكون يحب ترقينا فى جميع العلوم لنعيش فى راحة ونموت مع علم وكمال وهذا هو السر فى نزول الأنبياء بالتوحيد ثم يتركونهم وشأنهم لتوقظهم الموقظات إلى معرفة هذا العالم بعقولهم وأخذ ما ينفعهم وترك ما يضرهم فى أجسامهم وعقولهم حتى تقوى مداركهم فالاله هو نهاية ما ترمى إليه المدنية والحضارة وإن جهلها أغلب الناس فالأنبياء يحثون والأمم يتراكضون فى ميادين الحياة سعيا وراء الارتقاء وتراهم يتجادلون ويتحاربون باسم الدين وهذا هو مقصود الرب تبارك وتعالى فجعل نفسه موضوع الجدال والنزاع ليدوم الترقى بدوام الحروب ولقد كاد القلم يخرج بنا عن جادة ما نحن فيه فلنرجع ونقول

ومن العلوم التى للتخلية الجسمية علوم الحرب التى يدرسونها فى المدارس الحربية (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)

(٦) والعلوم التى هى أدوية جسمية للتحليه علوم المواقيت والفلك والهيئة فهى زينة للأمة وكمال وجمال ما عدا الضرورى منها كالأوقات المعروفة فهى من الضروريات لا الكماليات

(٧) والعلوم العقلية التى هى أدوية للتخلية فهى علوم الكلام التى تكون فى كل زمان بحسبه

(٨) والعلوم العقلية الدوائية للتحلية فهى المواعظ التى يدخلها جميع قصص القرآن ومواعظه وأمثاله

وهذه هى أقسام العلوم الواجب تعلمها على المسلمين فرض كفاية وأول وزر يكون على الملوك والأمراء والعلماء والذى أعلمه أن أغلب العلماء لم يتيقظوا لهذا ولم يعرفوه ولو عرفوه لعرفه الأمراء ومتى عرفه الأمراء تقدمت الأمة وما الأمراء إلا أفراد من من الأمة لا ذنب عليهم وحدهم وإنما هم منها ولهذا ورد (كما تكونوا يولى عليكم)

فأى أمة أراد الله تعالى إنقاذها من الضلال تنبه حكماؤها أولا ثم نبهوا علماءها وهم يرقون أفكار أمرائها وعامتها فلينظر حكماء الاسلام وعلماؤه الى ماقلناه ولينيقظوا من رقدتهم وليقوموا من نومهم فيكون لهم أجور النبيين وتحيى أمتهم التى يحيى ذكرهم بحياتها ولا يظن العلماء أن علوم العربية والتفسير والحديث والفقه التى يموتون فيها ويحيون تنفعهم إلا بالعمل وتحريض الأمة على جميع تلك العلوم التى أشرنا إليها وإلا ماتت الأمة وعلماؤها فان السنة والقرآن قد حرضا على جميع هذه العلوم كما أوضحناه فى غضون كتابنا هذا ألا فليحى العلم فلتحيى الأمة فليحيى الدين فليحى الوطن فيجب على العلماء والحكماء والأمراء أن يحثوا الناس على جميع العلوم وإلا ذهب ريحهم اوخسروا الدنيا والآخرة

فليت شعرى لم ترك الامراء الخطب يوم الجمعة ولم تركوها للجهال الفقهاء الذين لايعقلون ألم يأن لكم أيها الامراء أن تقتدوا بالخلفاء الراشدين ألم يأن لكم أن تقتدو بالخلفاء الامويين والعباسيين ألم يأن لكم أن تقتدوا بخطباء أوربا الذين يقومون على منابر الخطابة وتهتز لهم المنابر فتكسى ورقا خضراً . ساء ما وصلنا اليه ألم تعلموا أيها الأمراء أن خطبة الجمعة والعيد لكم وحدكم لتقودوا أممكم الى مصالحهم فى الدنيا من الصناعات والتجارات والزراعات وكذا الآخرة أهكذا دين الاسلام تيقظ الناس ونحن نيام

ألا فلتحى الأمة فليحى الوطن العزيز فليحى الدين فليحى العلم فلتقم الأمة فلتتقدم الصناعة أنتم أيها الحكماء ويا أيها العلماء تقودون الناس فى الدنيا وستقودونهم فى الآخرة فان كنتم الآن منحطين فالانحطاط مآلكم فى الآخرة وإن كنتم راقين فهو مآلكم فى الآخرة ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة سنة وقنا عذاب النار

تتمة هذا الباب

قد علمت ان العلوم قسمان أغذية وأدوية ولا بد منهما فى بقاء الأمة إذ الأغذية بغير أدوية يتبعها ضرر وإفراط وتفريط فلا تجد مايوقفها عند الحد فيكون هناك الضرر

العظيم والأدوية بلا أغذية مهلكة وباجتماعهما الصلاح وبعدمهما الهلاك

ولكن الاقتصار على الأغذية أقرب الى الحياة وعلى الأدوية أقرب الى الموت وعلى ذلك ترى فرنساوما شاكلها ممن أعرضوا عن الدين أحياء حياة فيها مرض والشرقيين التاركين لعلوم العقل أقرب الى الموت فبهذا عرفت منشأ عمارة الأمم وخرابها وارتفاعها وانخفاضها وهى أربعة أقسام لا غذاء ولا دواء وهؤلاء هلكى غذاء لا دواء وهؤلاء مرضى كبعض الأوروباويين دواء لا غذاء وهؤلاء أقرب الى الموت كبعض الشرقيين غذاء ودواء وهؤلاء أحياء وهى المدينة الفاضلة التى اليها يصل النوع الأنسانى وقد بلغنا إن بلاد سويسره بلغت هذا الحد

الفصل الخامس

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه

فى هذه الأيام

أمة الاسلام ما حط بها فى مهواة الدمار إلا طرق التعليم منذ قرون متطاولة وكم أرشدهم المرشدون وأفادهم الحكماء ولا سميع ولا مجيب لقد كان أهل الغرب (شمال افريقيا) فى الازمان الغابرة أيام ابن خلدون لا يدرسون إلا القرآن وعلم الرسم الخاص به واختلاف الروايات لا يزيدون عليه شيئاً فلا علم ولا عمل ولا صناعة ولا دين ولا دنيا فاذا أتم الطالب القرآن وقف وقوفا تاما عن العلم وإن انقطع عن اتمامه انقطع عن كل خير فى الدنياوالآخرة وزاد أهل افريقيا (تونس) شيئاً من الحديث ومدارسة بعض قوانين العلوم ولكنهم هم ومن حولهم لم يكونوا لينالوا حظاً من ملكة الانشاء إذ القرآن بالغ حد الأعجاز فلا يقدر البشر على تقليده وقوانين العلوم التى تقرأ فى إفريقية وغيرها عباراتها نازلة عن البلاغة

ولما رأى علماء الأندلس ضعف العلم فى تلك الاصقاع المغربية زادوا على تعليم

القرآن الشعر والأدب والترسل وعلوم العربية والخط والكتابة فكان ذلك يفيدهم بعض الأفادة فى الإنشاء

وكان تعليم أهل المشرق قريباً من تعليم أهل الأندلس وتردد ابن خلدون رحمه الله تعالى فى أى العلوم عنايتهم به أكثر وقال ان علماء الأندلس عنايتهم بالشعر وقواعد العربية أكثر من عنايتهم بالحديث والتفسير وقد انقطع إذ ذاك سند تعليم العلوم بتلك البلاد وقد دخل النصارى شرقى الأندلس فهاجر أهلها الى أفريقية وقال . وكان لأهل المشرق عناية تامة بالخط وهذه هى طرق التعليم فى الأزمان الغابرة . وأنت ترى إن طريقة التعليم فى كتاتيب بلادنا تشبه أحط درجات التعليم . وهى تعليم أهل المغرب فى عهد ابن خلدون قاصرة على تعليم القرآن ولقد تأفف منها بل ومن جميع طرق التعليم فى ذلك الحين القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته (كما قاله العلامة ابن خلدون) وأرشد الى طريقة غريبة فى وجه التعليم وعاد فى ذلك وبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال لأن الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يأخذ الصبى بكتاب الله أول مرة يقرؤه ولا يفهم وينصب فى أمر غيره أهم عليه منه ثم قال ينظر فى أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه القاضى أبو بكر رحمه الله تعالى وقال العلامة ابن خلدون وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهى أملك بالأحوال هذا ملخص ما قاله العلامة ابن خلدون رحمه الله وما نقله عن أبى بكر رحمه الله تعالى عند الكلام على تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية فى طرقه وأنا أقول إلا فاحضرا أيها العالمان اليوم وانظرا ما نظرت واسمعا ما سمعت تجدا الحال أسوأ مما رأيتما وتجدا الطريقة الدنيا وهى طريقة أهل المغرب عندنا واندرست طريقة الأندلس بذهاب دولتهم وهكذا الطريقة

الافريقية والمشرقية إلا فاحضر يا ابن العربي وسر معي في الكتاتيب واقرأ (كذلكَ قالَ الذينَ لا يعلمونَ مِنْ قَبْلِهِم مِثْلَ قَولِهِمْ تشابَهت قُلوبهم)

ولقد اتفق لي أثناء تأليف هذا الكتاب أنني رحلت كما رحلت في بعض أرجاء القطر المصري لمشاهدة الكتاتيب في القرى ولقد كان هذا من عجيب الاتفاق إذ لم أكن عند ابتداء تأليف هذا الكتاب مفكراً فيه ولكن أبى الله إلا أن يظهر العجائب ويتم ما أراد من الكلام على نظام هذه الأمة مع نظام الكون فلو رأيت ثم رأيت أكواخا[1] يعلوها التراب وتأتيها الشمس والرياح من كل جانب كأنها جحر ضب خرب ليس فيها درس الألفاظ القرآن والعقل في معزل عن الدنيا والآخرة وصار المسلمون قاطبة لا هم لهم إلا ألفاظ ظانين أن البركة في مجردها وأما السمع فالأغلب عنه معزولون ألا فلتحضرا أيها العالمان وتريا ما أحدث الدهر بعد كاتريا تحقيق آية اليهود إذ قال فيهم ومِنْهم أمِّيُّونَ لا يعلمونَ الكتابَ إلاّ أمانِيَّ وإنْ هُم إلاّ يظُنُّون) أي يقرؤون ولا يفهمون وقوله فيهم (مثلُ الّذينَ حُمِّلُوا التّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسفاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الّذينَ كَذّبُوا بِآياتِ اللهِ واللهُ لا يهدي القَوْمَ الظالمين) ولقد بلغنا أن تعليم المسلمين في غالب الاقطار على هذه الشريطة من شرق وغرب الاندلس إذ لم يبق لها وجود بل صارت بلاداً بدل دينها كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

وأما علومنا ومعارفنا فلا نشرع فيها إلا بعد حفظ القرآن إذ يمضي شطر من حياته ويمضي زمن غرس بذر الأخلاق فيشب الطفل على الجبن والخوف والهلع وسلب الارادة بتهديد المعلم وضربه، فاذا قيّض الله له من يعلمه لم يجد ذلك العلم إلا يسيراً مع التكلف في زمان الفتوة والكهولة وقلما تصلح الأخلاق بعد زمان الصبا

وياليت تعلمنا العلوم بعد ذلك على طريقة حسنة كافلة بالنجاح وإنما زاد الأمر

---

(١) كان هذا قبل طبع هذا الكتاب ولقد ترقت كتاتيبنا رقياً حسناً فنحمد الله حمداً كثيراً بهمة اخواننا في نظارة المعارف

وكثرت الشراح والحواشى والتفاسير واختلطت المذاهب وتشعبت الفروع فى النحو والصرف .

وصار علم البلاغة إسما لامسمى له إلا السعد وشرحه وحواشيه التى هى عبارة عن كلام معمى كله تقلسف بقى الآلات بغير وصول لمقصود من فهم القصائد والرسائل وكلام العرب والقرآن والحديث بل إذا نظرتما لم ترياإلا قواعد مجردة كقواعد المنطق فلا تطبيق له على المعقولات ولا للمعانى والبلاغة على الكلام وإن حصل التطبيق فانما يكون بمجرد الاشكال والجواب ويقرأ علم الفقه والكلام والأصول والتفسير والحديث والاعتناء بالثلاثة الأول أكثر وبالآخيرين أقل بل تارة يقرأ للتبرك وتارة تطبيقا على العلوم العربية لاسيما النحو

ولقد صدق ظنكما وأن العادة حاكمة على الناس وطريقة التعليم رديئة جداً صعبة لاتوصل إلى المقصود فاذا حضر أحد من الريف ألزم بحفظ إعراب البسملة ووجوهها التسعة مع أنه لايدرى ماهو الاعراب وما هى الصفة وماهو الموصوف، وبالجملة فالعناية على وجه العموم متصرفة للآلات وهى قواعد اللغة لا اللغة نفسها إذ هى ذهبت ريحها

ولقد وقع الاسلام كله الآن فى هاوية الجهل ولكن جاء الغربيون وهم أهل أوروبا يسيلهم الجارف على الشرق وبخيلهم ورجلهم وشاركوا الشرقيين فى الأموال والأملاك ووعدوهم وما يعدونهم إلا غروراً وبثوا طرق تعليمهم فى بلاد المسلمين فنبه بعض علماء الأزهر لهذه الطريقة الحديثة وأشار بعضهم بتسهيل التعليم وادخال علم الحساب والهندسة وتخطيط البلدان . وها هم العلماء الآخرون تارة يثبتون وتارة ينفون وقد أخذت روح العلم تدب فيما بيننا

وهكذا فتحت فى مصر مدارس يتعلم فيها العلوم التى بها نظام الحكومة وأسست الجمعيات ومدارس لتعليم الفقراء وأظنها أحسن طريقة نعلمها فيعلمون شيئاً من القرآن مع معناه والخط والحساب والاملاء والآداب الاسلامية والعبادات ومحاسن الأخلاق وصنعة يعيشون بها وقواعد العربية والانشاء والترسل .

وقد فاقت فى ذلك كله المدرسة التى أنشأها خديو مصر عباس باشا الثانى فى هذه الأيام وجميع المدارس شرقية وغربية يعلمون علوما متعددة فى أوقات منتظمة ونجاحها ظاهر . فخلط العلوم لايضر بطريقة التعليم وهذه هى طريقة ظاهرة النجاح ولو أن المسلمين فى جميع الاقطار قاموا بأعمال مثل هذه فى التعليم لارتقى الاسلام فى أقل من نصف قرن ولكن ما دام الحال على هذا المنوال بقى الانحطاط إذ المتعلمون ما تخرجوا فى صغرهم إلا على أيدى هؤلاء الجهال الذين يقرأون مالا يعقلون فيشيب الانسان المتعلم ولم يتفكر يوماً فى حالة الأمم الاسلامية ولا حرية له ولا ذنب عليه وإنما الذنب على طريقة التعليم فى الصغر التى ضربت عليه بالذلة والمسكنة

فها نحن الآن ندعو إلى نسخ هذه الطريقة وأن تؤلف كتب غير هذه التى بأيدينا فى جميع الفنون وتعلم جميع العلوم كما ذكره الغزالى في الاحياء ويرشد الناس إلى الصناعات حتى نصل إلى المدنية الصحيحة

ولقد ينجع كلامنا الآن أكثر من زمان ابن خلدون فاننا أحيط بنا من كل جانب وذقنا جزاء ما فرطنا فى الكتاب وقيل ذوقوا ما كنتم تكسبون ، ولنترك ما وجدنا عليه آباءنا ولا نكون كالذين قيل لهم (وإذا قيلَ لهمُ اتّبعُوا ما أنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَاوَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لايعقِلونَ شيئاولايهتدون) ولقد صار قراء القرآن فى هذا الزمان تضرب بهم الأمثال فى سوء الأخلاق والفقر إذ هم مجردون عن كل دين ودنيا فى الغالب إلا من قيض الله له من يدخله الجامع الأزهر فقد يرقى إلى طبقة العلماء ولكن يبقى محكوما بعادة التدريس المضرة ولقد دار الحديث بينى و بين أحد مشايخى بالجامع الأزهر أثناء تأليف هذا الكتاب فقال بلغنى انكم تلومون العلماء على ترك العلوم الطبيعية والتاريخية والفلكية وغيرها ، فقلت له نعم فقال أليست الطبيعة كفراً ألا تتذكر انهم نصوا على ذلك وأنت حضرت فى الأزهر عندنا هذا الكلام فقلت نعم ولكن علمت ان هذا ليس له وجود إلا فى الورق وتحققت بعد ذلك من كلام أكابر علمائنا رحمهم الله تعالى كالغزالى وغيره انها

أعظم طريق للتوحيد بل صرح القرآن بأن معرفة الكون من طبيعة وفلك وغيرها هي الطريقة المثلى للوصول للخالق بل العالم هو الذى يعرف تلك العلوم مع الحذو بها حذو الدين وسردت له أدلة من هذا القبيل وقلت له لقد ألفت فى هذا الموضوع نفسه كتبًا وأوردت له منها أشياء مما فى الذاكرة فرأيت بوارق السرور تلمع فى جبينه واستبشر فسرنى ذلك وعلمت ان الأمة تحتاج إلى من يرشدون العلماء إلى مابه صلاح الخلق ولقد وجدت نفسى مغرمة بهذا العمل مع علمى بقصور باعى ولكن أودى مافى عنق من الأمانة لأدافع بها عن نفسى يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ثم قال انهم يذمون طريقة التعليم فهل توافق على ذلك قلت نعم فقال وكيف ذلك أليس التعليم عندنا يعلم فهم العبارات الصعبة فقلت له لم نخلق لذلك فهو ضياع للحياة فى فهم اصطلاح بعض الأدميين وهم كثير من المؤلفين مع البعد عن المقصود الأصلى ولأذكرك ياسيدى بعبارة منك فى الدرس ألم تقل لنا (من اتبع الحواشى مات حواشى) فقال نعم فقلت وهل تركت الحاشية فقال لا فقلت له وما المانع من اتباع الحق فسكت فقلت له أجيب أنا ان العادة جرت ان الطلبة لا يتعلمون إلا على شيخ يأتى لهم بالغرائب فاذا تركتم الحاشية ووجدوا غيركم يقرؤها ذهبوا اليه فقال نعم فتذكرت قول ابن خلدون إن العادة استحكمت ولقد آن للمسلمين العدول عن هذه الطريقة المشؤومة وكل من سعى فى ازالتها فله أجر نبى إذ يكون مجددا لهذه الأمة التى تنكست أعلام مجدها ودك سور مدنيتها ولننقل من كلام ابن خلدون ما استحسناه فى الكلام على التآليف وكثرتها واختصاراتها ووجه الصواب فى تعليم العلوم قال رحمه الله تعالى فصل فى أن كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم ان مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات فى التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يغنى عمره بما كتب فى صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون مرتبة

التحصيل و يمثل ذلك من شأن الفقه فى المذهب المالكى بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه على أنه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهى كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى فى واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر بدون ذلك وكان التعليم سهلا ومأخذه قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التى لا يمكن نقلها ولا تحويلها و يمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب فى ذلك وكيف يطالب به المتعلم و ينقضى عمره دونه ولا يطمع أحد فى الغاية منه إلا فى القليل النادر مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة إلا لسيبويه وابن جنى وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرا فى المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغل بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود و إلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره فى هذا كله فلا يهديني له بتحصيل علم العربية مثلا الذى هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون فى المقصود الذى هو الثمرة ولكن الله يهدى من يشاء

﴿ تذكرة ﴾ فى أن كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء فى العلوم يؤلفون بها ويدونون منها برنامجا مختصراً فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار فى

الألفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا الى الكتب الأمهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب فى الفقه وأصوله وابن مالك فى العربية والخونجى فى المنطق وأمثالهم وهو فساد فى التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لابد فيه تخليط على المبتدىء بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتى ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن الألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع فى فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعلم فى تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهى ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع فى تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة وإذا قصر التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ تذكره ﴾ فى وجه الصواب فى تعلم العلوم وطريق افادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان بالتدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول مايرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم الا أنها جزئية وضعيفة وغايته أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين من تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجوهه الى أن ينتهى الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شب فلا يترك عويصا ولا فهما ولا متعلقا إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص

من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل فى ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض فى أقل من ذلك بحسب ما يخلق له و يتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته و يحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم و يطالبونه باحضار ذهنه فى حلها و يحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه و يكلفونه وعى ذلك وتحصيله ويخلطون عليه و يلقون له من غايات الفنون فى مباديها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا و يكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة الا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال و بالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى استيعاب الذى فوقه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن وإذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات و هو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنه و حسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه وانما أتى ذلك عن سوء التعليم ولا ينبغى للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل أغراضه ويستوفى منه على ملكة بها ينفذ فى غيره لأن المتعلم اذا حصل ملكة مافى علم من العلوم استعد بها لقبول مابقى وحصل له نشاط فى طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستوفى على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وادركه الكلال وانطمس فكره ويئس عن التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدى من يشاء وكذلك ينبغى لك أن لا تطول على المتعلم الفن الواحد بتقريق المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول ملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا وأقرب صيغة لأن الملكات انما تحصل بتتابع الفعل

وتكراره واذا تنوسى العقل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله عليكم مالم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معا و يستصعبان و يعود منهما بالخيبة واذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب اه

ولقد مشى على هذه الطريقة فى الاختصار والتعليم مدرسوا المدارس الأميرية فى بلادنا المصرية ، فألفوا كتب العربية تباعا كتابا بعد الآخر ، واتبعوا قول ابن خلدون رحمه الله تعالى فالأول كتاب بسيط جداً والثانى عبارة عن الكتاب الأول مزيداً فيه عبارات أخرى وهكذا الثالث عن الثانى مع زيادة عبارات والرابع فى فن البلاغة ونجحت نجاحا باهرا فها هى ذه مصر الآن فيها مدارس حسنة النظام وتعليمها علوم العربية وغيرها وتأليف كتبها أتى بالمقصود ، ألا فليعم التعليم بلاد الاسلام على هذا النمط وأحسن منه

وأول الغيث قطر ثم ينسكب ولعمرك ليست علوم العربية مقصودة لذاتها ، فعلوم العربية والقراءات بل والتفسير والحديث إنما يراد بها الاطلاع على العلوم التى بها الحياة الحقيقية فى الدنيا والآخرة وهى العلوم التى هى غذاء والتى هى دواء جسما وعقلا كما أوضحناه سابقا

ولقد جعل الغزالى رحمه الله تعالى علوم العربية كلها قشوراً وجعل التفسير أسفل القشرة مما يلى اللب بل جعل المفسر كالقارىء غاية الأمر أنه أرقى منه ، إذ هو أقرب إلى العلوم . أما حافظ الروايات وقارىء علوم البلاغة فانما هو فى القشر البحت وكذلك عالم اللغة فالمدار إنما هو على نفس العلوم

الفصل السادس والسابع

فى وجوب استعمال العقول وترك الفضول

وفى حكم النسخ فى آيات القرآن والأحاديث وما مناسبته لهذه الأحوال التى نحن عليها وما حكمته بالنسبة لنا الآن وما يجب على المسلمين أن يفعلوه فى تعليمهم وسياساتهم وأحوالهم ولقد جعلنا الفصلين فصلا واحداً لأن العقل يشهد ان نظام العالم ملازم للترقى المصاحب للنسخ الذى يشهد به العقل كما جاء به الوحى

لقد علمت أيها المطلع على كتابنا هذا ماطبع عليه هذا الكون من التغيير والتبديل والنسخ فترى الليل نسخ النهار والنهار نسخ الليل وتتعاقب الفصول بالحر والبرد والرطوبة واليبوسة وبها يحصل خروج النبات ونمو الحيوان والانسان وكلها فى تغير دائم ونسخ مستمر ومامن شمس إلا وسيأتى لها أجل مسمى تمحى فيه من الوجود وهكذا الأقمار والسيارات والثوابت وذوات الأذناب وهكذا قرر علماء الفلك والطبيعة (كلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مسمًى) وهكذا كانت جميع المولدات على سطح الكرة الأرضية كلما غرب نجم أشرق نجم ويموت الحيوان ويعقبه الآخر وهكذا أنواعها فكم من أنواع عثر عليها فى طبقات الأرض انقطع وجودها الآن بالمرة وكم حيوان يتمتع بنسيم الهواء وروح الحياة ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً وهكذا سطح الأرض فكم من عامر أضحى غامراً وغامر أضحى عامراً وجبل صار بحراً وبحر صار جبلا على هذا تطابقت آراء العلماء فى كافة أنحاء المعمورة واليه الرمز بحكاية الخضر عليه السلام انه رأى أرضاً قفراء وبعد (٥٠٠) سنة رآها مدينة زاهرة وبعد ٥٠٠ سنة أخرى رآها بحراً وبعد مثلها شاهدها مدينة زاهرة . وما ذكر الحكماء هذا إلا رمزاً لحال الأرض على حسب ماطبعت عليه وما نظمها به مبدعها وهذا كله نسخ حقيقى فى الطبائع الكونية والكائنات العلوية والسفلية ولما كان هذا فعل صانع الكون وهو الحكيم فى صنعه (كل يوم هو فى شأن) فلا بد أن يكون حكيما فى قوله وما أنزل على رسله إذ

الحكيم فى قوله حكيم فى فعله ولذلك تراه يغير الشرائع بتغير الزمان إذ لاجرم أن تغير الزمان وتتابع الأجيال يحدث تغيرا فى الأخلاق وتباينا فى الطباع فيكون بلا ريب للناس شرائع توافق المشارب على حسب مايقتضيه الزمان والمكان المتغيران فأنزل آدم وشيثا ونوحا وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وجاء كل شرع يناسب أهل زمانه وكانت هذه الديانات كلها كسلسلة واحدة تتصل كل حلقة منها بالحلقة الأخرى والمتأخر يلهم بعض المتقدم ويزيد عليه بوحى من الله وإلهام وتعليم وارشاد فتكون الشريعة متصلة بما قبلها من وجه منفصلة من أوجه أخر وكلما جاء شرع كان أرقى مما قبله وأوفق منه لنوع الانسان وكأنها سلسلة ترقى شخص فيكون جنينا فطفلا فشابا فكهلا وهكذا أو سلسلة ترقى حيوان من الحيوانات المركبة كالبية الصغيرة وتزيد شيئاً فشيئاً الى الحيوانات العالية كالانسان الذى يليه الملك فهكذا الديانات يظهر انها ابتدأت من الأبسط إلى البسيط الى المركب وهلم جرا فشريعة ابراهيم للتوحيد وموسى للتوحيد والأمور العملية وشريعة عيسى أفرطت فى العلمية وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالعلمية والعملية بلا إفراط ولا تفريط فدين الاسلام فى الديانات كالانسان فى الحيوانات ولذلك كان النبى خاتما والخاتم بالفتح ما ينقش به صور كثيرة وخاتم بكسر التاء أى آخر الديانات ولذلك ترى العلوم عمت الكرة الأرضية وكثرت المواصلات وعم النشر وكل أخذ بما يلائمه من كفر و إيمان ولابد أن يأتى يوم تظهر فيه الديانات محقها ومبطلها لعموم البشر و بسرعة المواصلات فلا لزوم إذن لأنبياء يبعثون ويرسلون إذ الكتاب موجود وها هى ذه رسائل البريد غير ممتنعة التوصيل إلى جميع الأقطار وما أهل الكرة الأرضية إلا كأهل بيت واحد يتحادثون وهذا هو سر قوله خاتم النبيين ولم يحصل هذا بعد نبى من الأنبياء قط نعم هذه هى المعجزة العجيبة

ثم لنرجع الى ما نحن فيه فنقول :

جاءت الشريعة الاسلامية ونزل الوحى بآيات وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأخرى نزل بها الوحى وسميت سنة وحديثا ثم ترى الآية تنسخها آية والحديث ينسخه

حديث فعلمنا أن ناظم هذا الكون جعل نظامه واحداً فكأنه يقول ها أنا ذا أغير خلقي بيدي (كل يوم هو في شأن) وإلا كان الوقوف على نظام واحد قصوراً في الحكمة وجوراً في الطبيعة وظلما في الحكم فلابد من التغير وكل يوم لنا شأن في أفعالنا وليست الاقوال تخالف الأفعال في سيرها

فهذه الديانات كل دين منها يوافق ما قبله في بعض ويخالفه في بعض على مقتضى الحكمة ونواميسنا فهكذا أنزل القرآن وجعلناه كالشرائع قد تنسخ الآية الآية ، والحديث الحديث لتقلدونا في نظام مدينتكم مما لا يخالف آياتنا وسنتنا فنأتي بالحكم لما يوافق المصالح ثم نرفعه ونأتي بآخر لتغير الأحوال (ما نَنسخْ مِن آيةٍ أو نُنْسِها نأْتِ بخيْرٍ منها أو مِثلها) ولما كان هذا يوافق نواميس الكون كما ذكرنا أعقبه بقوله (ألم تعلم أن الله على كلّ شيء قدير) وإذا كان كذلك فوقوفه عند شيء دون شيء هو الجور والظلم في المادة ومثلها الأحكام التي نستبدلها بخير منها أو مثلها (ألم تعلم أن الله له ملكُ السمواتِ والأرضِ ومالكم من دون الله من وَلِيّ ولا نصير)

وقد آن أن نذكر جملا من الناسخ والمنسوخ لتعلم أن الله أراد أن ينبه أن أمة الاسلام التي انحط مجدها آن أن تغير نظام مدنيتها وتؤلف كتباً وتنشيء صنائع وتنسخ ما كانت تصنعه من قبل نسخاً بلطف فتؤلف كتب قد حوت من علوم الأمة والعلوم الحديثة لتبقى وحدتها بالأصل وتترقى مدنيتها وتساكن الأمم المحيطة بها بالجديد كما اتفقت الشرائع السماوية في التوحيد (ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أنِ اتقوا الله) ، (وما أرسلنا من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)

فانظر كيف اتفقت الأمم والديانات على نقطتين أصليتين وهما التوحيد ومكارم الأخلاق واختلفوا في أمور عملية

فهكذا ترى فيما سيأتي فنسخ الآية بآية أخرى قد اشتركتا في العدل وموافقة الأمة واختلفتا في الكيفية والهيئة وقد يكون النسخ تدريجيا كتحريم الخمر فهكذا كتب العلوم ونظام المدنية يجب على علماء المسلمين وحكامهم أن يأخذوا في تغييرها

مع ملاحظة القديم والحديث ولتكن الهيئة الاجتماعية قسمين قسم يحافظ على القديم وآخر يولع بالحديث فتتوازن القوتان و يدوم الترقى وحفظ كيان الأمة كما حفظت أمم الأنبياء وترقت شعوبهم وكما نرى فى دولة انكلترا من المحافظة تارة والحرية أخرى وما جاء الشرع الاسلامى بالنسخ إلا ليرشدنا الى كثرة التروى والتفكر وأن ننظر فى القديم والحديث وقد أرشدنا القرآن الى ذلك فقال (فبشّر عبادى الذين يستمعون القولَ فيتّبعونَ أحسنه أولئكَ الذينَ هداهمُ اللهُ وأولئك هم أولو الألباب)

ولعمرى أن الأمة التى تقلد الشريعة الاسلامية فى ناسخها ومنسوخها وتجرى على منوالها هى التى استمعت القول فاتبعت أحسنه وهم الذين هداهم الله وهم أولو الألباب سواء كان فى نظام دينهم أم دنياهم ولا يظن غِرٌّ إنى أريد تغيير النظام مع مخالفة الدين كلا و إنما الدين قواعد كلية تحتها فروع كثيرة فهى كمسألة حسابية كثيرة الحل أو كحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ولذلك كثرت المذاهب وكانت كلها صحيحة

عجبٌ لجاهل يظن منافاة النسخ فى الشريعة لها وهو فى الحقيقة نظام لا يجوز أن يهمل بل لابد منه لكل عمل وعليه فلينظر علماء الاسلام والحكام فى علوم الأحكام اولياً خذوا ملخصا من المذاهب المشهورة وغير المشهورة و يجعلوها قانونا تجرى عليه الأحكام و يغيروها بقوانين أخرى مما يوافق مشارب علماء الاسلام اذا رأى أهل ناحية من نواحى الاسلام أنها أليق بهم و إذا لم يعرفوا هذا فليبشروا بأن تضرب عليهم الذلة والمسكنة (وانى أحمد الله إذ وجدت قضاة بلادنا فعلوا ذلك قريباً . أنظره فى كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة الكهف مطولا عند قصة الخضر وموسى عليه السلام)

وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل له من ربه الوحى بالآية ثم يأتى وحى آخر بآية أخرى فينسخها كذلك وكلاهما من عند الله يوافق الأمة فهكذا يجب على علماء الاسلام وحكامهم أن ينظروا ما يصلح للأمة زمانا ومكانا وأن يأخذوا من أقوال علماء الأمة التى لانهاية لها فى الكثرة ما يليق بهم زمانا ومكانا ليوافقوا مصالح بلادهم إذ الشريعة دواء وأحوال الأمم تعتريها الامراض فان لم يوافق الدواء الداء

هلك المريض وهكذا هلكت الأمة باستعمال مالا ينطبق على حالها والدين الاسلامى فيه جميع العقاقير التى تنطبق على عامة أمراض الامم وحاجاتهم ولقد جعل من مبنى أصوله أن المشقة تجلب التيسير وأن المضطر يأكل الميتة وغير ذلك مما هو مذكور مسطر فى الكتب

ولعمرك لم يعطنا الله عقولنا إلا لنعمل بها ونتصرف على مقتضاها بشرط أن يكون لها رئيس وهو الدين فالعقل لقوى الانسان الشهوانية والغضبية كالدين لعقول أفراد الأمة ومتى تركت عقولها ولم تطبق أحكام دينها على مصالحها واتكل أهل مصر على كلام البغداديين وهم على الحجازيين وهم على الفرس ضاعت الأمة وماتت بمرض الجهل وكانوا من الذين يستمعون القول فيتبعون ما يصادفهم منه ولم يتبعوا أحسنه إذ لم يفرقوا بين الأحسن والحسن حتى يختاروا ما ينفعهم ولقد هلكت أمة خالفت سنة ربها فى كتابها من النظر للمصالح وتطبيق العلم عليها فمن الناسخ والمنسوخ

(١) انها فرضت الصلاة بالتوجه لبيت المقدس ثم أمروا بالتوجه للكعبة

(٢) وقد أخر النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء يوم الخندق حتى كفى الله المؤمنين القتال فدعا بلالا فأذن وأقام الصلاة فصلى الصلوات الأربع بهيأتها كما كان يصليها فى أوقاتها فنسخ ذلك التأخير بقوله فان خفتم فرجالا أو ركبانا وصلاة الخوف مفصلة فى السنة

(٣) وكان حد الزانيات الحبس والأذى بقوله . (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) ونسخ بما ورد عن عبادة ابن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ثم جاء نسخ الجلد عمن زنى من الثيبين برجم ما غر بلا جلد له

(٤) ورد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال انما جعل الامام ليؤتم به فاذا صلى قائما

فصلوا قياماً واذا ركع فاركعوا واذا رفع فارفعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد واذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعين فنسخ ذلك بما ورد انه صلى الله عليه وسلم خرج فى مرضه فأتى أبا بكر وهو قائم يصلى بالناس فاستأخر أبو بكر فأشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كما أنت فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب أبى بكر فكان أبو بكر يصلى بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر قال الشافعى و به نأخذ وورد التصريح فى رواية عائشة بأن أبا بكر والناس قيام والنبى عليه الصلاة والسلام جالس فى هذه الصلاة

(٥) وفرض الله على العشرين أن يقاوموا مائتين وعلى المائة أن يغلبوا الفا ولما علم ان فى القوم ضعفاً جعل الواحد منهم باثنين فقال (خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فيكم ضَعْفاً الآية)

(٦) نزل ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا فعلم فرض قيام النصف أو الزيادة عليه أو النقص عنه ثم نسخ بقوله فى السورة بعينها (انَّ ربك يعلمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَى اللَّيلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرآنِ عَلِمَ أَنْ سيكونُ مِنكُم مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأَرضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُون يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً) فوجب بهذا النص ما تيسر من القرآن فى الصلاة فى الليل ثم نسخ هذا الوجوب أيضاً بقوله (ومن اللَّيلِ فتهجَّد بِهِ نافِلَةً لك عسى أنْ يَبعثَك ربُّك مقاماً محموداً) ويدل له حديث طلحة ابن عبيد الله قال جاء اعرابى من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه مايقول حتى دنا فاذا هو يسأل عن الاسلام فقال النبى صلى الله عليه وسلم خمس صلوات فى اليوم والليلة فقال هل على غيرها فقال لا الا أن تطوع فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا شيئاً ولا أنقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلح ان صدق وروى عبادة

ابن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خمس صلوات كتبهن الله على خلقه فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة

(٧) ورد وجوب الوصية للوالدين والأقربين بآية (كُتِبَ عَليكم إذا حضر أحدكم الموت إنْ تَرَكَ خيراً الوصيةُ للْوَالدَيْنِ وَالأَقْربين بِالمعروف حقًّا عَلَى المُتَّقين) وللزوجة بقوله (والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُم و يذرُونَ أزواجاً وصيةً لأزواجهم الآية) فبهاتين الآيتين وجبت الوصية للوالدين والأقربين وللزوجة ثم نسخ هذا الحكم بآيات الميراث فبين فيها ميراث الوالدين والأقربين والزوج من الزوجة والزوجة من الزوج وامتنعت الوصية للوارث و بقيت سنة فى الأقربين الوارثين فالأباعد واختصت بالثلث فلقد أعتق اعرابى فى مرض موته ستة مماليك فأجاز صلى الله عليه وسلم عتق اثنين لأنهما الثلث ولم يجز الباقى وجعل التصرف فى المرض كالوصية

(٨) ومن عجائب النسخ ولطائفة مسئلة تحريم الخمر ولا ريب ان فيها نفعاً من وجه وضراً من وجه آخر فهى من وجه نعمة ومن وجه آخر نقمة فذكرت من الوجه الأول فى مقام الامتنان جريا على مايعلمون وأخذاً لهم بما يفعلون ومجاراة لافهامهم واستدراجاً لعقولهم فقال تعالى فى تعداد النعم (وَمِن ثمرات النخيلِ وَالأَعْنَاب تتَّخِذُون منه سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إنّ فى ذلكَ لآيَةً لِقَوْم يعقلون) فجعله فى مقام الامتنان

ولما كان كل شىء فى العالم له نفع وضر وكان التحريم والتحليل يرجع إلى غلبة أحدهما على الآخر فمتى غلب الضر حرم ورد قوله تعالى بعد ذلك (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الخمرِ وَالمَيْسِر قُلْ فِيهما إثْمٌ كبيرٌ وَمَنافعُ لِلنَّاس وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) فأبان هنا بالحجة الاجمالية ان الضر أكثر من النفع ومتى كان كذلك فالعقول السليمة تتركه ولذلك روى ان الصحابة اقتسموا بعدها قسمين فشربها قوم لنفعها وغادرها آخرون لضرها فاستعدوا إذن لقبول التحريم نصاً فجاء قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لاتقربوا الصلاةَ وأنتم سُكارَى حتى تعلموا ماتقولون) فحرمت عليهم فى وقت الصلاة

فتركوها فى الصلاة وشربوها خارجها ولما قبلوا ذلك وفهموه استعدوا للتحريم

فجاء قوله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ من عمل الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إنما يريد الشيطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوةَ والبغضاءَ فى الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) .

فتأمل كيف جعل التحريم تدريجاً ولم يذكره مرة إلا مقرونا بذكر سببه معه ذكر فى التحريم المطلق سبب تحريمه من العداوة والبغضاء اللذين هما بعض خباثته لظهورهما بين الناس وشيوعهما فى الشار بين حين الاسكار وفيما قبله ذكر العلم بما يقال فى الصلاة وهكذا

(٩) ولما لاحظت هذا السيدة عائشة رضى الله عنها وعلمت ان كل شىء ينزل لمناسبة الأحوال قالت لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثه النساء بعده لمنعهن الخروج إلى المساجد فكأنها قارنت منفعة العبادة بمضرة الفتن فرأت المضرة زادت فى زمان هذا القول وكانت أنقص فى زمان النبوة اذن هى علمت ان الوحى كان ينزل لمقتضيات الأحوال والحكم

فهذه ثمانية النبذ من الناسخ والمنسوب عرفت بها صنع الله وشرعه المتطابقين وانه مطابق لقوله — ألا ترى ان هذا الكون كله جار على نواميس وضعها مبدعها وقد علمت ان أحوالها متغيرة فى أمور جزئية تتغير دائما مع حفظ النظام العمومى ولما كانت أفعال العباد جزءا من ذلك الكون ومن فعل مبدعه (والله خلقكم وما تعملون) وكان لهم نوع اختيار خلق لهم عقولا وأنزل لهم وحياً فتراهم يستحسنون بعقولهم كل نظام يوافق الحالات الموافقة لأزمانهم وهكذا الوحى جاء بهذا التغيير للتنبيه على انكم ملزمون بحسن الفهم والتبصر ووزن الضر والنفع بميزان العقل فتغيرون الجزئيات من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان مع حفظ القواعد العمومية الشرعية كما تتغير النظامات الكونية الجزئية مع حفظ النظام العمومى والقواعد والنواميس العامة — ألا ترون ان البحر قد ينقلب براً والبر بحراً والنظام ثابت فهكذا يجب أن تفعلوا كذلك فيما

لايخل بالشرع السماوى فياأيها المسلمون اخوانى هاهوذا فعل الله فى ملكه وكلامه فى تنزيله وفعل نبيه صلى الله عليه وسلم ونظام الدول الحالية جار على تلك النواميس بعينها كأنهم درسوا (يقلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ) وكأنهم فهموا (يمحو الله مايشاء ويثبتُ وعندهُ أمُّ الكتاب) أتدرون ماالذى يفهمه الحكماء من هذه الحال يقرأون على صفحات الوجود خطابا من مديره يقول هذه العبارة (أيها المسلمون ان لم تغيروا نظام مدنيتكم التى شب الدهر وقدهدمت فلابدمن أن أسلط عليكم من يغيرها وأنتم ساهون لاهون فان لم تأتوا طوعا أخذناكم قهراً ولسنا نترك سنة التغيير وهى من أجل نواميس الكون لجهلكم (كلاَّ سوفَ تعلمونَ ثم كلاّ سوف تعلمون) ألم تعلموا ان فعلنا كله ونظامنا جميعه لايبقى على حال واحد إلا فى العموم وتتغير الجزئيات فالى كم تنبهون فلاتزدجرون والى متى تقرءون ولا تفهمون ألم تقرأوا (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) أعطيت صالحاً آية الناقة لقوم ثمود فكذبوا وظلموا ثم أعطيت موسى آية العصا إذ انقلبت حية فآمنوا به ثم آمنوا بالعجل حين رأوا له خوارا إذ من آمن بالعصا حين انقلبت ثعباناً فهو أحرى أن يؤمن بعجل يخور وهو مصنوع من ذهب إذ هو أجمل من الحية وأرقى جسما ونفعاً وهذه الآيات المجسمة لانرسل بها إلا تخويفا للأمم إذ لاتفيد اليقين وهذه الأمم التى أرسلت فيها تلك الرسل ليس عندهم استعداد لفهم الحقائق العقلية لغلظ طباعهم وبلادة عقولهم فأعطيناهم من الآيات ماينا سبها وان كانوا يرتدون بسرعة لضعف الايمان بالمشاهدات المحسوسة والمعجزات المشاهدة التى لانرسل بها إلا تخويفا والتخويف أدنى الدرجات فى الارشاد ويليه الترغيب فالاقناع فالحجة ولذلك جعلنا كم أمة وسطا معجزتكم هو القرآن تفهمون حججه فتكون هى المعجزة التى هى أرقى المعجزات المشاهدة بالبصر اذ هى انما هى بالبصيرة ولذلك لما طلب كفار مكة معجزات محسوسة (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك

بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قلنا لنبيكم (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) لأن هذا نبى وليس كأولئك الانبياء الذين أتوا بمعجزات محسوسة لا تثبت فلذلك كانت تلك الأمم تضل سريعا وأما نبيكم فانه آخر الأنبياء فوجب أن تكون معجزته عقلية ثابتة مدى الأزمان ولذلك قال فى آية اخرى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل الآيات إلا تخويفا) هذا هو الذى يقوله الحكماء فى المحادثات فى الوجود واشارات الوحى وتتتابع الديانات ويعلمون أن الله أرانا التدريج فى المعجزات والترقى فيها من المحسوس إلى المعقول شيئا فشيئاً حسب ترقى عقول الأمم المتتابعة فكل أمة جاء لها نبى تكون معجزاته على مقدار استعدادهم ـ ولا جرم أن التعليم يكون بالحجة فالوعظ فالجدل فالتهديد والتخويف فالهلاك فمعجزات الانبياء الاولين كانت للمرتبتين المتأخرتين ولذلك كان يعقب هذا هلاكهم كما فى قوم ثمود والذين من قبلهم ومن بعدهم فقد جاءت شرائعهم ولم تدم أما نبينا صلى الله عليه وسلم فجاء بالثلاثة الأولى غالبا لأن شريعته دائمة إلى آخر الزمان ولن تدوم إلا بالحجة والبرهان الذى هو القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فهكذا فليكن نظام المدنية الاسلامية لتطابق فعل الخالق فى الكون والديانات ونفس ديننا القويم

ولعلك تقول ما الذى تريد بهذا التغيير ـ أتريد أن تحلل الحرام وتحرم الحلال أقول كلا فأنه كفر ومناف للشريعة التى نتمدح بها وإنما أقول إعلم إن هذا الدين أصبح محجوباً عن أهله بغواش غشيته وجهل طمس على القلوب إن هذا القرآن الذى هو أساس الدين أصبح الناس فى غطاء عن فهمه حتى انطبق علينا الآن معنى هذه الآية (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) وها هو الآن والحق يقال أننا لا نستطيع سمع القرآن ولا فهمه لدواع تبدت وأمور حدثت فأحدثت تقلب القلوب والأبصار فترى العالم إذا قرأ التفسير يجعل جل عنايته فى تطبيقه على النحو والصرف ولو لفت ذهنه إلى المعنى لم يجد مساعدا من نفسه للتلاوة لما ركز فى نفسه من الصغر واعتاد عليه أن يقرأ ولا يفهم بقصد الثواب كما يقرأ العامه

وغوغاء الناس (كأنهم لا يعقلون) . ومما زاد الأمة بلاء وجهلا أنه ركز فى عقولهم تقليدا أن الاحكام الفقهية هى ثمرات القرآن مع أنها ثمرة نحو (١٥٠) آية لا غير وبقية القرآن وهو ينوف عن ستة آلاف آية ما بين عظة واعتبار وأمثال وقصص الأمم وسياساتها ومنذرات هلاكها ونظام الكون وحكمه لينظروا فيه فيفقهوا لم خلقوا وماهى نظام المدن ويعيشوا عيشة الأحرار فالاقتصار على جزء من ثلاثين من الدين وترك الباقى إماتة للعقول وإضعاف للهمم وزاد الطين بلة ماتلقفه الأصاغر عن الأكابر أن المدار على فهم تلك الشروح والحواشى المعماة نعم صدقوا فانها تشحذ الأذهان ولكن فى أمور عرضية لا جوهرية ويا حبذا لو كانت هذه القوى فى نفس القرآن والحديث والعلوم الكونية والصنائع البشرية والنظم والسياسات فتصبح معالم المدنية واضحة وأعلامها منشورة على أرجاء الإسلام ولقد زادهم بهذ عشقاً أحاديث جاءت فى فضائل السور موضوعة لجلب الرزق وصرف الضر مما جعل القوم يقرءون غاضين الطرف عن المعنى مع أنه انما جاء للذكر والايقاظ قال تعالى (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فتأمل كيف جعل نتائج البركات هى تدبر العقلاء وتذكر خواصهم لمعانيه ولقد شغل كثير من القراء بأن يجعل القراءة وسيلة إلى قضاء الحوائج وأما المعنى فإنه مهجور حتى يحق لنا أن يقول الرسول نبينا عليه الصلاة والسلام ما قصه الله (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) اذ الألفاظ وحدها ليست مقصودة فمتى هجر المعنى فسيان الألفاظ وعدمها عند التحقيق نعم نحن لا ننكر أن القراءة بلا معنى لها فوائد وثمرات وثواب ولكن تكون كما قال الله تعالى (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) فمن ترك الأعلى وهو المعانى هنا واستبدلها بالأدنى وهو مجرد التبرك مع الغباوة فى الفهم فقد استبدل الأدنى بالأعلى بل الجواد الذى يوضع عليه الاكاف ويحمل حمل الحمار فيه نفع ولكن ساء مثلا القوم الجاهلون ويكفى هذا مقتاً وغضباً وتقريعاً وذما قول الله تعالى (مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يَحْمِلوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل

القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين)

فتأمل هذا المثال لتعلم كيف جعل من قرأ الألفاظ بدون معنى كالحمار يحمل الكتب وهو لايقرؤها لأنه غير عاقل ثم لم يقتصر على ذلك بل قال بئس مثل القوم الذين كذابوا بآيات الله

ثم انظر كيف ذكر الحمار هنا وذكر الكلب فى مسألة بلعام بن باعورا الذى علم ولم يعمل إذ الكلب أقرب إلى الفهم من الحمار ولكنه لا يرجع عن طبعه ويجرى على شهواته ولا ينفعه معاشرته للانسان وذوقه فضرب الحمار مثلا للجاهل والكلب مثلا للعالم غير العامل فما أرق هذا التعبير وما ألطفه

ولقد سألنى شاب من ذوى الفهم قائلا أهذه العتاقة التى يقرؤها الناس تنفع الميت فقلت له اعلم أن أحاديث كثيرة وضعت لمثل هذه الأمور وولع بها الناس وانظر كتاب الاتقان فى علوم القرآن وما ذكره الشيخ السيوطى هناك من أولئك المتصوفين الذين وضعوا هذه الأحاديث قائلين نحن قصدنا بها صرف الناس عن الفقه الذى شغلهم الى القرآن

ولقد أرادوا خيراً لصلاحهم فوقعوا فى خطأ بجهلهم إذ أصبح الناس يأخذون القرآن لمجرد لفظه لامعناه فيكررون سورة قل هو الله أحد مائة ألف مرة وهم لم يفهموا حكمة عالية ولا علما نعم فى هذا ثواب كما قلنا ولكن أين الثريا وأين الثرى . فقال لى لقد أنبطت همتى عن إكمال عتاقة بالصمدية فقلت له هل أدلك على عتاقة تنجيك من عذاب أليم فقال بسرور نعم فقلت امسك المصحف واقرأ الجزء الأخير من القرآن أى من سورة النباء إلى الفاتحة وافهم معناه بتفسير سهل وكرره مرارا مع استعمال المعنى حتى يرتسم فى ذهنك ثم هب ثواب ذلك الى الميت فذلك خير من القراءة بلا معنى ويكون نورا لك ولقريبك فى الدارين فرأيته سر بهذا سروراً ظاهرا وانشرح قلبه وشرع فى العمل . ولقد جاء بعض أهل العلم وقال ذكر القرآن و بركته فى مجلس فقال بعض العلماء الحاضرين كيف تنكر البركة والله تعالى يقول (كتاب أنزلناه إليك مبارك

وكان القائل أكبرهم مقاما وأعظمهم قدرا فصفق له الحاضرون وطربوا

فقلت له بعدها ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب مع ظنهم أن البركة إنما تكون بالتمائم والرقى وهذه العادة زادت رسوخا بكتب الروحانيات فقد أدخلت كثيرا من الآيات فى علوم الطلاسم وحساب الجمل ونحو ذلك مما دخل بها الصابئون علينا وجعلوا يس تقرأ أربعين مرة مع شروط وأحوال ليست هى المقصودة بالذات من إنزال القرآن

وكما اقتصر القراء على ألفاظ القرآن تراه كثيرا ما يقرأ على الأموات وفى الطرقات كأنه قيل أن يقرأ على الاموات الذين لا يفهمون فنحن وهم سيان حتى أن العامة يحملون قوله عليه الصلاة والسلام ـ اقرأوا على موتاكم يس على القراءة على القبور مع أن مراده عليه الصلاة والسلام القراءة على المحتضر ليتذكر ما فيها من الحكم والعجائب ويتفكر فى خالقه فيموت موحداً . وعلى هذا صار القرآن حرفة للارتزاق ولما انغلق معناه على الافهام أصبح لايسمع إلا بصوت حسن إذ هو المقصود لامعناه فانا لله

ولقد سرى الوقوف على الالفاظ والظواهر فى كل شىء فترى قواعد العلوم العربية معتنى بها وإذا قرأ متعلم قصيدة وطالبته بفهمها أو حلها عجز وإنما يأخذ فى الاعراب ويضيع زمانه ويخرج صفر اليدين وبالجملة فالالفاظ هى التى لها السوق الرابح حتى انك ترى الحريرى جعل مقاماته كأنها كتاب غريب اللغة لا يفيد الأمة كيف تكون الافكار

ومما يقرب من هذا أن الشعراء كان جل قصدهم مدح الملوك ولم يعولوا على القصائد التى ترفع الهمم إلا قليلا وما الانشاء والشعر إلا ما خرج من وجدان القلب فيؤثر على القارىء والسامع كما كان مؤثرا على المتكلم كما ترى فى تأليف الجاحظ فى الأدب والسكاكي فى العلوم العربية والغزالى فى الاحياء أما هذه الحواشى والشراح والمتون فهى مغلقه صعبة يجب استبدالها باخرى أسهل منها لفهم القواعد ثم يتعمق فى البحث لاسيما فى العلوم العالية فهذا الذى ذكرته فى الكتب وفهم القرآن من أجل مايجب أن

يغير ومن ذلك الصنائع والعلوم المهجورة التى هى غذاء الامة فلم تترك هذه ولا ريب أن علوم الدين دواء فلم نقتصر على قشر الدواء مع غفلتنا عن لبه (ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين)

ولما صعبت الكتب فهما وتعاصت العبارات أصبحنا نرى أهل العلم يظنون أن الانسان مني قدر على فهم العبارات فقد أضحى عالما مع أن القدرة على فهم العبارات شيء والفهم والتضلع من جميع العلوم النافعة شيء آخر حتى كان يتخيل الانسان أن العرب الجاهلية يفهمون العلوم أقرب من غيرهم بسرعة فائقة مع أن اللغة شيء والعلوم شيء آخر وما اللغات إلا طرق لتوصيل المعانى الى الأذهان وياليت شعرى كيف تصبح الكتب التى هى معبرة عن أحكام القرآن والحديث أصعب منهما بكثير مع أن الأصعب لا يفسر الأسهل بل الأمر بالعكس والأعجب من هذا أن المؤلفين يتنافسون فى تصعيب العبارات حتى استغلقت العلوم ولم يظهر من معانى القرآن و إشاراته فى الكتب إلا كما ظهر من جرم الفلك على جسم السمك فاذا قرأت حديثا أو آية وجدتهما فى غاية السهولة و إذا قرأت عبارات المؤلفين وجدتها على الضد من ذلك . ولما تمادى أهل العلوم على هذ الفكر وتوارثوه ظنوا أن صعوبة العبارة هى أعظم ما يقصده القاصدون فتراهم يتركون الحديث لسهولته ولا تلتفت أذهانهم الى ما فيه من حسن الأسلوب وذوق المعنى اذ ليس مما طبعوا عليه من جمود العبارات بل ربما ظنوا المؤلفين أكثر تدقيقا وأقدر وان كانوا يتحاشون النطق بذلك فهذا تراكم السد بين أهل العلم والقرآن والحديث وان حضروهما مرارا ولم يبحثوا إلا على العبارات المستصعبة ونبذوا كل سهل وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون

ولما تمادوا فى هذا أحبوا أن يعموا الحكم فى جميع أحوال الدين فقالوا ان القرآن لا يفهم ولا يفسر إلا بعد المشقة وعليه حرمت جميع الطبقات من فهمه مع أنه تعالى يقول (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

و ياليت شعرى كيف تقرأ الجغرافية وتفهم باللغة الانكليزية والفرنساوية فى المدارس

الأميرية ويصعب القرآن ويتعاصى عن الفهم أم كيف تكون اللغة الفرنساوية والانجليزية أسهل من اللغة العربية التى جاء القرآن أسهل منهما حتى قال (ولقد يسرنا القرآن للذكر) بهذا وأمثاله ضاع الاسلام وتفرق أيدى سبا وذهبت الدولة ياقوم رعاكم الله أليس النصارى يقرءون إنجيلهم ويفهمونه فيأخذون المعنى من العبارات بلغاتهم فتهذب الاخلاق وتنمو العقول أليس القران أحق بذلك .

نعم ان فى القرآن أشارات لعلوم كثيرة مثلا قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقرلها) لا تفهم حق الفهم الا بعلم الفلك ولكن هل هذا يمنع فهمها على طريق الاجمال حتى تحث القارىء على تعلم هذا العلم ومن العجيب أن كثيرا من أهل العلم إلى الآن يظنون أن مثل هذا العلم لالزوم له فان قيل له أن هذا يحث عليه القرآن تراه يتلعثم فى الجواب ولعمرى أن القوم فى أطوارهم جميعا متناقضون متشاكسون أفمن هذا الحديث يعجبون ويضحكون ولا يبكون وهم ساجدون

ومما يزيد العين بكى والقلب حزنا ان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يذكرون الا مقرونين بالتواضع المفرط وأما تلك الحروب والشهامة العربية فلا ذكر لها الا عند تدريسها بعد ان تتمكن صبغة الضعف فى النفس ويذهب منها رونق الشجاعة وعلو النفس واحترامها واعتبار الحياة اعتباراً حقيقياً مع ان هذا الدين ما جاء الا بالتوسط فى كل شىء (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) فاين نحن من هذه المعالى والاخلاق والحكم والنصائح وعلو النفس وليس لهذا دواء الا أن يذكر النبى صلى الله عليه وسلم دائما هو وأصحابه بصفة الحماسة وعلو النفس والمحافظة على الأمة واننا نقتدى به فى أعلائها وتشريفها

والأدهى من هذا كله والأمر أنه دخل على علمائها وثبت فى أذهان كل متعلم أن النظر فى شؤون الأمة من الفضول وأنه ليس على الانسان إلا شخصه مع أن شرف الانسان فى الدنيا والآخرة موقوف على نفعه العام لقومه والذى أراه أن هذه الدسيسة جثت فى الأمة أيام تفرقها بعد صدر الدولة العباسية. ورأى الملوك أن العلماء بنصحائهم

يفسدون عليهم ملكهم فتحاشى العلماء عن النصائح وانزووا فى الزوايا والمساجد والتكايا وأضحوا لا ترى إلا أجسامهم وتركوا الأمر فى يد الحكام يديرونه كيف شاءوا ومن آثار هذا أنك ترى الخطب المؤلفة فى تلك الأزمان التى لم تزل معمولا بها إلى الآن مقتصرة على ذكر الجنة والنار ويتركون كل ما به اعلاء الامة واتحاد كلمتها فياقوم إلى متى هذا الانحطاط ألم يأن لنا أن نغير هذه الخطب وهؤلاء الخطباء ونستبدلهم بقوم عالمين يعلمون ما يقولون انما الخطباء قوم لهم شعور يقولون ما به يشعرون

أصل الخطب انما تكون للأمراء والملوك يسوقون الناس إلى مابه صلاحهم فى الحياة الدنيا والدين فيسعدون فى الدارين ويقولون (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

هذا اجمال ما يجب تغييره ونسخه من الأمة على التدريج كما جاء النسخ فى الآيات والاحاديث والشرائع السماوية مع بقاء العدل والتوحيد وهذه كلها تنسخ مع المحافظة على آداب الدين وحفظ نظامه

الفصل الثامن

فيما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة

اعلم أيها الذكى أنى أكتب هذا وأنا منشرح الصدر واسع الأمل واثق بالمستقبل القريب أكتب هذا اليوم بعد الظهر يوم السبت ٢٥ يوليو سنة ١٩٣١ أكتبه وأنا قرير العين بما نقرؤه فى الجرائد من تقارب أمراء العرب وأمراء الاسلام عموما هاهو ذلك الأمير فيصل يزور الأستانة ورئيس الجمهورية التركية يقابله خير مقابلة وهاهو ذا الامام يحيى إمام اليمن يقابل الود العربى بمثله والوفود ذاهبة اتية بين هؤلاء الأمراء وهكذا ملك الأفغان كل هؤلاء وشاه العجم جميعا يتبادلون المودات والتحيات هذه هى الحال التى طرأت على الاسلام لم تكن كما نراها اليوم بل الأمر

فوق ذلك هذه اليابان وأمم الصين والهند وجميع ممالك الشرق ساعيةللاتحاد اللهم ان الأمم كلها أشبه بجسم واحد ولكنهم إلى الآن لايعلمون ذلك بل الانسان اليوم أشبه بطفل بعد الفطام فهو حائر دائر لايدرى مصيره (و إلى الله عاقبة الأمور ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)

الفصل التاسع

فى الكلام على سياسة أوروبا واستطلاع علومها

لم يبق أقل ريب فى ان الأمم اليوم كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا وقد جمعهم البرق والبريد وسفن البحر وقطرات البر فلا مناص من التداخل والتزاحم

لاحياة لأمة جاهلة ليقرأ المسلمون علوم أوروبا كلها ففريق لعلوم الطبيعة وفريق للرياضيات وفريق للسياسة وهذه فروع كثيرة توزع على الأفراد ولا يتركون أمة إلا نقلوا علومها على شريطة أن يجعلوها مقبولة فى أحوال الأمة وعوائدها لأن الجاهلة اليوم لاحياة لها .

الفصل العاشر

قصص القرءان وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه السلام وبعض المشاهد الطبيعية

وفيه خمس مقالات

المقالة الأولى

الانسان فى حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم فإما أن يكون مكبا على وجهه أو يكون سويا على صراط مستقيم

كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الأبوان أو الأقربون أو الأخدان والأصحاب والعشيرة والقبيلة والمربى مع ملاحظة الأمزجة وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير

أو الشر . و بمقال آخر ان هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقا للسعادة أو الشقاء والتاريخ مثل واضح يتمثل به الانسان فى سيره فى نفسه وأهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الأصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الأذنان ولا جرم أنه يسد عوز الحكيم إذا عقل فى سيرته الشخصية والمنزلية أما سيرة المدن وتقلبها فمرجعها الى مرآة أوسع وأعظم ألا وهى تواريخ الأمم الغابرة فهى المنظار المعظم تدرس بها الاخلاق فى شكل بهيج جميل

لعمرك ليس كل تاريخ يغنى (وما كل مصقول الحديد يمانى) فقد يتسمن ذو الورم وينفخ فى غير ضرم يسرد المؤرخ حكايات الأولين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر الا فى آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر الحوادث برونق بهيج ونواتجها ظاهرة واضحة خيرا أو شرا فيخرج القارىء من بساتينها مقتطفا من رياضها أزهارا وجانيا من أشجارها أثمارا ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلا فائدة وضياع وقت وحياة نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لا سيما المصريين وقد كان فرعون يقول (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون)

ذلك تذكرة للكاتب والقارىء لأنا نعلم أنه لم يكن ليجعل حكاية يسلى بها القارىء نفسه كما يشعر به قارىء رواية أو يقتل به الزمن كلا . كيف وهو تعالى يقول (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارىء التاريخ حال غيره الى نفسه و يعبر به على سفن الألفاظ الى جلجلانه و يقول تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ويقول جل وعز (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) و يقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام (ما تحت الشمس من جديد) و يقول علماء العصر (التاريخ يعيد نفسه)

غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخبلا عن الفحوى ورضاء بالقشور وابتعاداً عن أسرار البلاغة

جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ولكل مثل

مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها وأحوال العرب عامة تنطق بها

فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها أو المعانى دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام (شيبتنى هود وأخواتها) وترى كثيراً من الأدباء اذا أزمع هداية انسان ذكر له قصصا تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام وتثير فى القلب حمية و إقداما أو خيفة و إحجاما فزال المراء ورفع الغطاء ان الخبر فى مغزاه كالسهم فى مرماه فلنبدأ بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشى الأمم فى قصص فرعون وموسى عليه السلام

المقالة الثانية

أشرنا فى المقال السابق الى أن تاريخ مصر أمس بالمصريين وأنفع للعالمين ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم الا أنهم كانوا فى ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبى الله ادريس المسمى بهرمس ويسمى المثلث لأنه كان طبيبا ومهندسا والهيا وورد أنه أول من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن فى النواويس تحت الأحجار والصخور وكانوا موحدين وتناهوا فى ذلك التوحيد و بنوا الهيا كل العظيمة آثاراً لجلاله ونظروا فيها حسن ولطف دلالة على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخى الزمن و بقى التوحيد سراً مكتوما عند حملة الدين وحرموا العامة منه فأرسل النبى موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجع فى الخاصة وهم القليل وآمن بنوا إسرائيل و بقى المصريون فى عمايتهم وجهلهم مع فرعونهم (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين) فأغرق فرعون وجنوده وأما بقية الشعب فاجتاحتهم جائحة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الآشوريين وأحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قمبيز فلعمرك ماسدد سهمه عليهم فاصماهم وأقصد القلب إلا بقوس من شعائر دينهم

عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قمبيز بين الجيشين فتحرج المصرى عن قتلها فصابها وأصابه قمبيز فملك وقتل وسبا وغزا وأرسل الجيوش وقتل العجل المعبود وأغضب المصريين وكان ما كان من هلكته

مضت دولة الفرس فورثهم اسكندر المقدونى وبعده البطالسة فالرومان الذين استباحوا ما حرمه الظالمون فقتلوا الأبرياء وانتهكوا الحرمات وغلت الأمة غولهم وجاء عمر مهيمنا عليهم بجناح الرحمة وأسدل ستاراً من العدل وحرسه بجنود من الايمان وبنى عليه هيكلا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة ووشاه بنقوش الحكم وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نورا على نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوصمه بما وصم أمام الصحابة رضى الله عنهم فى قضية ابنه وابن القبطى إذ ضرب الثانى الأول بمحضر من الصحابة فى المدينة حتى قال القبطى قد شفيت نفسى

كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل يا عمرو فينا ولكن جئت فى الزمن الأخير

وأكثرهم أبيدَ بيدِ الفاتحين الظالمين وحقت عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روى عن إدريس النبى عليه السلام

يا مصر يا مصر ستتركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فتذهب رجالك وآمالك وتبقى أخبارك فى أحجارك

والكتاب أوضح هذا فقال فى فرعون (فأخذناهُ وجنوده فنبذناهم فى اليمِّ فانظر كيفَ كان عاقبةُ الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النارِ ويومَ القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم منَ المقبوحين ولقد آتينا موسى الكتابَ لعلهم يهتدون)

العبرة فى هذا ان الأمم لها باب ترتقى فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لا بد لها من إصلاح فاما أن تتعظ الأمة بالمرشدين الناصحين وإلا فلا مناص لها من السير

على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم المصمية المهينة الفاتكة و إن الأمة اذا ظلت عاكفة على عجول جهالتها فهى دابة كل راكب خادمة كل سيد طفلة كل مرب زوجة كل بعل وكما لم ينفع المصريين أن انجلت عنهم دول الأحباش والأشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم عدا عليهم جبار فهكذا يا قوم فليكن حالنا اليوم فما دمنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكلين فريسة القابضين ولو ساد اليابان والصين أو الفرنسيس والألمان فليس لنا فى ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله إنما ينزلها للمحسنين عملا (ولقد كتبنا فى الزبورِ من بعدِ الذكر أنَّ الأرضَ يرثها عبادى الصالحون) (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذُرية قوم آخرين) إن المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ما سحقتهم الأمم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض فانظر كيف كان عاقبة الجامدين

أما أهل مصر الحاضرون فما غشيهم ما غشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها وهم وان نسوا أنسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة فى عرب البادية المصرية وتقل فى الفلاحين وتضعف فى أهل الأمصار والمدن الكبار إلا فى أناس ارجعها لهم التعليم إن صح فلا حكم عليهم كما حكم على الأمة التى قبلهم ولا أرى أن يسام الحاضرون بالغابرين

هذه أمة عربية ظهرت منذ قرون وتتابعت فى هذه الديار زمراً زمراً زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجرى و إن ما فى البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم فاذا قيل مصر بقيت فى الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكما علينا كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين انقرضوا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسراع الرقى فى أقرب الأزمنة متى تعلموا وسنذكر بعد هذا كيف تولد الأمة وهى جنين وكيف تشب وهى طفلة لعوب

المقالة الثالثة

فى انشاء الأمم

(١) سبق القول انا سنبسط شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهى أجنة فى البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وأن ذلك سنة لا محيص عنها للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكأنسان طفل فشاب فشيخ فميت وكالسنة ربيع فصيف فخريف فشتاء فموت كسير القمر توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على سوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل بائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه إما بالحركات فى الافلاك أو بالولادة فى العناصر . ان الزوجين من الانسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلا مناص منه لجمهور شاؤا أم أبوا فهكذا الأمم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها مما تحت سيطرتها ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلا تلبث أن تتمزق كل ممزق بأيدى الأمم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهور (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وما كان من تمزق الرومان بأيدى الفاتكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق وذاقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم فى أعصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر (وتلك الأيام نداولها بين الناس) هذا وليس رقى الأمم بلا موجب فالرقى أسباب وللتدلى أسباب ولقد فصلنا القول فى أسباب السقوط فلنشرح الآن أسباب الرقى من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام إذهما أقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدمنا انها ذكرت فى الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصاً ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغابر والشاهد بالغائب ويعتبروا بالأمم السالفة (هو الذى جعلكم

خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقد استخلصنا أسباب الرقى اذا هى عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ما عنده من الهبات والمنح العشرة أولها أن تمنح الأمة رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فاخلصوا فى أعمالهم لأممهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها لا رياء ولا سمعة بحيث يكون ذلك كأنه خاصة فيهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتى شعيب عليه السلام فى سقي الغنم اذا (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) فرفع الحجر عن البئر (فسقى لهما ثم تولى الى الظل) وكان ما كان من زواجه باحدى الأبنتين ورعيه الغنم ١٠ سنين وكما أقام الخضر الجدار لليتيمين بانطاكيه وقد أبى القوم أن يضيفوهما وما كان ذلك إلا عملا أريد به فضل العمل لذاته لا أجر ولا شكور

(٢) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة المغيرة وافهامها حاجات الأمة المغلوبة بما فى الامكان واجتذابها اليها بما تحمل من العلم والمعرفة كما وقع للنبي موسى عليه الصلاة والسلام إذ خوطب (اذهب انت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) الى أن قال (فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) فجمع بين الارشاد واللين فى القول والشفاعة فى قومه وهذا واجب شرعاً على كل من أوتى حكمة فى القول وجاها وعلما وقدرة أن يتذرع بها الى الامم المسيطرة على أمته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى فى علو شأن أمته لهذا نزل القرآن لا تغنيا أو إعرابا فحسب أو تاريخا ومن أعطاه الله حكمة أو جاها فانتبذ من أهله مكانا قصيا عاكفا على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفاً حكمة عامة الأديان

(٣) القوة العلمية واقناع الخاصة بما يلائمهم والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد يشير إلى الاولى قوله تعالى فى موسى (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقوله (الذى جعل لكم

الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والانفس الرقية وهى تشير إلى ما يعقله العقلاء ويتباهى به الحكماء ثم تلقفت عصاه افك السحرة وأخرج يده فاذا هى بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضا لدى السحرة

(٤) الانفة والغيرة واليأس والحمية وحماية الذمار وخوف العار بأزالة المنكرات جهارا واستئصالها ليلا ونهارا عند القدرة كما قتل موسى القبطى الظالم للاسرائيلى (فوكزه موسى فقضى عليه) وان ندم بعد ذلك وهكذا ان أذاق الخضر الغلام كأس الحمام لما كان مرسوما على صحائف نفسه فراسة بنور النبوة والعلم انه سيضل به الوالدان فهذه اشارات وملامح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح فهذه أشجار هذا زهرها وأثمار هذا طعمها وفاكهة هذا حلوها

(٥) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتى هى أحسن كما احتال الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وهكذا أم موسى وضعته فى التابوت لنجاته (فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)

(٦) الثبات على المبدأ والصبر أمد العمر الم تر كيف خرج قوم موسى من البحر سالمين ونجوا من الغرق (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون الخ) هذا فى العلم وفى المحاربة قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلهم ولو وحدى

وليس قصدنا من هذا الا الثبات على المبادىء الشريفة وانتهاج خطة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فمتى صح لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بعاذل أو ناقم

(٧) اشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس وان لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف

وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بنى اسرائيل فى القرآن بهذه العبارة (وانى فضلتكم على العالمين) تذكرة لهم فى زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لأمة تقرؤه وهى ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخذى كيف وهذه الأمة عموماً وجمهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الارض مدنوا العالم منا الامويون والعباسيون والفاطميون وما الطولونيون والاخشيدون إلا موالى أبائنا وما المماليك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد إلا من موالى اسلافنا ولقد أدركت القوم فى القرى ايان نعومة أظفارى وهم يفخرون بقرا الضيف وضرب السيف وينشدون الاشعار الحماسية وما عهدا كتساح التتار بمائتى ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون ببعيد

ولعمرى لأن تمتلىء النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب اقداما خير من أن تراها ذليلة منكسة الاعلام مرتاعة الافئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى

(٨) تربية الناشئة على مبادئ جديدة تصلح للرقى والتريص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقرضوا ويموتوا كما وقع ببنى أسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا فى أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبابرة (قال إنها محرمه عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين)

(٩) الفرار بالأهل والعشيرة والأمة من حال ترديهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وأن ذلك يسهل متى أراد الانسان وهو أبو العجب ألم تر الى موسى عليه السلام كيف مر ببنى اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(١٠) ازدواج اللين والشدة وقد كان للأولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام هذه العشر متى ظهرت فى أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة وهى عشرة سنذكرها فى مقال آت ان شاء الله تعالى

المقالة الرابعة

قلنا فيما سبق ان الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال اخلاص العمل لأمتهم والحنو والشفقة وتذليل العقبات بين أممهم ومن غلبوا على أمرهم وما من أمة من أمم الشرق إلا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخلصوا لبلادهم فى العمل رغبة فى حسن الأثر والأحدوثة الجميلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا فى العلم أو الثواب الجميل والشوق إلى مبدع الكون وتقليده فى صنع الجميل بلا طلب أجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن ولو أذاقهم الفاتحون كأس الحمام وجرعوهم الموت الزؤام فلا أمة تفعل مافعلت الفراعنة فى بنى اسرائيل ومع هذا فلم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة والثبات على المبدأ مهما عارضه الأقربون والأدنون واشعار النفوس بمكانتها وشرفها فلا ينبغى أن تصغى الأمة إلى من يصغرها فى عينها ولقد قال ابن خلدون رحمه الله ان هؤلاء الذين يسكنون الخيام فى البادية هم ملوك الأعصر الغابرة وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم وأنا أقول أننا قبائل نزحنا إلى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطناها وتغلبنا عليها من آماد وأجيال وهذه لا تقتضى أن يضرب علينا الذل والمسكنة ولا يقال فى مصر (وهى لمن غلب) فانما كان هذا المثل مضروبا لأمة خلت (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) وتربية النشء على المبادىء القويمة والعزة ومزج الشدة باللين والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكانا أو صفات أو أخلاقا أو ملكا الخ هذا ملخص ماذكرناه أمس ونقول هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التي قلنا انها هبات من الله وهى تساوقها بلا ترتيب ولا تعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم واحسانا

(١) الالهام وذلك يكشف الغطاء عن العقول فتنظر لهم وجوه المنافع ومساوى

المصار فان النفوس إذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول إلى الحكمة فأدركوا حالهم ومآلهم واليه الاشارة بقوله تعالى (وأوحينا الى أم موسى) وهذا وان كان بلا كسب ففيه اشارة الى مانحن فيه (٢) اجابة الدعاء والنصر (قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) (٣) شد الأزر وتقوية الأفئدة بالاخوان والأنصار قال (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) (٤و٥) النصر والنجاة من الضر (ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) (٦) الهداية إلى الطريقة المثلى (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) (٧) حسن السمعة والذكر والصيت (وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين) (٨) القربى من الله تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) (٩) التمكن من الخلافة فى الأرض (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ألم تر الى حديث رجل من آل فرعون (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) الآيات فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على الدعوة ان قام رجل من أعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه ولعمرك ان فى هذا لبلاغا للأمم المهضومة الحقوق ان من أعطى فصاحة أو جاها أو حكمة وعلما وجب عليه وجوبا عينيا أن يقوم فيناضل عن أمته بماله أو جاهه أو قلمه فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الأمر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادى مواليا وهذا يتربصه كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورقى أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ولما جاهد بنو اسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفا وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر فى التلاشى إذ ذاك

ودوختهم الأمم المغيرة الفاتحة من فرس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين وبطالسة (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)

المقالة الخامسة

فى عجائب الوجود من بحر وشمس وغيرها

لما نظر المؤلف البحر الابيض وهو فى بور سعيد

دع بنى اسرائيل وأخبارهم والمصريين وآثارهم وسر بنا رويداً الى ساحل البحر والرياح عاصفة والأمواج مصطفة متتابعة كتائب ذات عجيج وزئير تسير جحافلها على سطح الماء تستلم الحصا وتلتزم أركان الشاطىء ذهبية الأصيل وما أمامنا الا الماء والسماء والهواء يزجى السحاب فيمور موراً ويثير الأمواج فتبنى طوداً وتحفر سرباً وغور

قف بنا ننظر غروب الشمس فى هذا البحر وكيف اقتنصها وهو ذرة صغيرة بالنسبة لها . وأطلق لنفسك سراحها لتجول فى عالمها وعاطها كؤوس العلم فى رياض الفكر علها تروى صداها وتشم شذاها فتسير فى الأرض سيرة وتدور فى الفلك دورة

قف وفكر فالعلم غذاء والتاريخ والعمران دواء . أيتها النفس فيم تفكرين وأى مذهب تذهبين ! ! هذا البحر المحيط أمامك والشمس تنظر إليه باسمة وقد آذنت بالرحيل مودعة تشير بطرف العين وراحة السحاب « السلام على العالم » « السلام على العالم » نظر الشعراء . ماذا تنظرين أيتها النفس . أتنظرين نظرة الشعراء علماء الخيال الناظرين للجمال يتخيلون تيجان ألماس مكللة جند الأمواج ويسمعون أنغام الموسيقى الناتجة من هبوب الرياح فيناجون الأرواح العالية فتنزل عليهم وحى المعانى الجميلة فيصوغون من صفاء الماء ولطافة الهواء وزرقة السماء وذهب الأصيل صورا تنعكس فى خيالهم عن عالم المشاهدة فتسمعها شعرا كالدر ونثرا كالجوهر . فان تصور صورة الصبا قال :

يأيها الرشأ المكحول ناظره بالسحر حسبك قد أحرقت أحشائى

ان انغماسك فى التيار .حقق ان الشمس تغرب فى عين من الماء

وان رجع وأناب وذكر الشيخوخة قال :

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى

وطلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس

نظر الكيماوى:ماذا تنظرين أيتهاالنفس؟ أتنظرين الى ما أحاط بالكرة الأرضية من الماء والملح ممتزجين فتجزئى ذراته وترجعيه الى أصله وتحليله الى عناصره فلا يرى هناك إلا مواد حارة هوائية طائرة وأخرى باردة تطاردها فى الهواء والأولى هى الاكسجين والثانية هى الادروجين . ومن عجب أن يكون هذا الماء من مادتين هوائيتين لطيفتين لايراهما الراؤون ولا يتخيلهما الحادسون تضادتا طباعا واتفقتا لطافة أولاهما محيية بحرارتها وثانيتهما مميتة ببرودتها فكونتا هذا الشكل البهيج للعالم . طالما قرأنا فى الحديث أن البحر نار فى نار فلا نذوق له طعما ولا ندرك له فهما فظهرالأمرفى المكتشفات الحديثة أن الماء ٨ ثمانية اتساعه المادة المحرقة (الاكسجين) وذلك فى الوزن فقط . وفى حديث آخر تحت البحر نار فظهر أنها تلك الكرة النارية المخلوقة قبل الأرض وقودها المعادن والكبريت والزئبق مداخنها جبال النار (البراكين) فائدتها اعدادالمعادن للآلات والصناعة والزينة لمن بعدنا من الأمم ويا ليت شعرى كيف تكوّن من الحار والبارد هذا الجوهر اللطيف وهوالماء فأخرج به جنات وأعناب وفاكهةوحيوان وانسان وسمع وبصر وعقل وحكمة

نظر المؤرخ : أم تنظرين الى سطح هذا البحر العظيم وما تحمله الجوارى المنشآت فيه كالأعلام كأنها مدن بنيت أساسها العلم صنعا والماء وضعا طيرها البخار فى البحار وكلها البرق فى أسلاكه والأثير فى خفائه وغيابته كأنها وقد جالت فى البحار (إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) عجبا هذه السفن الذاهبة الآتية للتجارة والربح والحرب والسلم . ارجعى أيتها النفس إلى القرون الماضية والأمم الغابرة والدول البائدة فكم لهم من غدوات وروحات هناك ترين سفن الفينيقيين وجوبهم هذا البحر

والفرس وقميزهم الظلوم ، حمله هذا الموج فخضد الشوكات النافذة وقلم الأظفار الحادشة وأنزل الملوك والفراعنة عن عروشها . وكأنك بالاسكندر المحبب فى رعاياه يجوب العباب ويقطع الصعاب وهو يهد شامخات الصروح ويبنى المدن ويشيدها . وترين البطالسة وترفهم والرومان وغلبهم والامويين وفتوحهم والعباسيين وعلومهم وأمم الترك وما وراء ذلك من دول وملوك وأساطيل وجنود الاسبان (وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر) مروا سراعا وولوا تباعاً وقلبوا وجه اليابسة كما قلب هذا الهواء لطيف الماء فهاج الناس وماجوا كما يموج هذا الموج ثم تولت دولهم وذهبت أيامهم كأن لم يغنوا بالأمس

أين الملوك التى كانت محجبة من دونها تضرب الأستار والكلل

نظر الطبيعى . أم تتأملين الاضواء وتركيبها وجمالها وكيف كانت سبعة ألوان تمازجت واتحدت وصورت شكلا بهجا نضر اللون فى الأودية والجبال والبساتين والأشجار والماء وأظهرت محاسن الصور الانسانية . ولولا الضوء ما كان اللون وظل العالم سواداً فى سواد ثم نكر كرة عليه فنقول . أعرض هذا الضوء كالألوان والطعوم والروائح تابع لغيره لا استقلال له كبياض الأبيض وجمال الجميل أم هو جوهر كالأجسام يأخذ مقداراً من الفراغ وإذا اخترنا العرضية ونبذنا الجوهرية فكيف ينتقل من الكواكب الينا ولا استقلال للأعراض فكيف حركتها ونقلها وكيف جاءنا ضوء الشمس فى نحو (٨) ثمان دقائق مع أنه كالبياض لا حركة له إلا بجسمه وإذا رسمناه جوهرا وقدرناه جسما فما الذى أذهبه من العالم إذا توارت الشمس بالحجاب وضربت عليها القباب وهل تذهب الثمرة بذهاب الشجرة أم الولد بموت أبيه ؟ كلا ! ! !

قفى أيتها النفس فى حيرتك فاذا لم يكن عرضاً ولا جوهراً فلا وجود له ! كيف هذا ونحن نشاهده بعيوننا بل لا حياة لنا إلا به . لا . إنما الضوء حركات فى الأثير وموج كأمواج الصوت فى الهواء هذا آخر ما وصل اليه عقل الانسان

أم تنظرين نظرة الفلكى للشمس وانها لا تزيد على مقدار دائرة صغيرة فى نظر

العين ولكن العقل أكبرها فنظرها العرب واليونان فأوصلوها ببراهينهم الى ٥٠ أو ٦٠ ضعفاً قدر الأرض وأوصلها علماء العصر الحاضر الى مليون و ٣٠٠ الف مرة مقدار الأرض .. ما أعجب الانسان وأبدعه أرى بعيني هذه الشمس صغيرة فكبرها العقل فتتضاءل علومها ومعارفها

نظر الحكيم : عجبا لك أيتها الشمس . كيف صغرت أيها الكوكب العظيم في العيون وما الذي أنزلك من سماء عظمتك وأنت سيد الكواكب السيارة حولك عطارد والزهرة والمشترى وزحل وأنت أنت الملك العظيم أنت الهيكل الكبير عبدك الأولون وسجد لك الفراعنة الأقدمون جلست على عرش عظمتك في سماء جلالتك بما منحك منشئك ومبدعك من القوة والعظمة فيا ليت شعري كيف حركتك العيون وأنت في سكون وكيف صغرتك الظنون وأنت ذوى الشئون لا لا أنا لا أعجب منك أنت انما العجب من نفسي اذ النفوس الانسانية أعظم منك وأجل وأبهى وابهر فانها بما لها من السلطان عليك والقهر والعظمة بما أوحى اليها من سماء العرفان وما أودع فيها من الحكم والحواس استنزلتك من سماء عظمتك وأغرقتك في البحر فتركتك كالدينار ملقى في الماء فوسعك البحر وأنت عظيم وأدركتك العين وأنت كبير حتى وقف الاسكندر المقدوني على شاطىء بحر الظلمات وهو جزء صغير من المحيط ورأى الشمس تغرب فيه وما البحر وماؤه في جانب ما في العالم من الأجرام والكواكب الكبيرة الا جزءً حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ممزوجة بالطين أو حامية حارة . أأنت أيتها الشمس ذلك الذي يرسم الليل والنهار بمقدار ويكون الشهور والأيام أم أنت التي تدورين كالرحا على القطبين فتجعلين نصف السنة ليلة واحدة ونصفها الآخر يوما واحدا ثم تتناقص الأيام والليالي الى شهور فشهرين فشهر فاسبوع فأيام معتادة على قرب المناطق و بعدها كما رسم في أيام المسيح الدجال وكان ذلك من أعاجيب النبوة ومرموزاتها المستورة عن النفوس الضعيفة والعقول الخامدة ؟

ثمرة هذا النظر

أراك أيتها النفس تلمحين من خلال مسطور أنواع العالم نورا وتكتبين على الخيال منه سطورا وقفت موقف الشاعر وأوقدت النار للتحليل الكيماوى وأمررت الضوء فى البلور والمنشور مع الطبيعى وتأملت معه فى سبعة الألوان فى قوس قزح وقطرت الماء وكررت راجعة إلى غابر الدهور مع التاريخى ونظرت الشمس وما رسمه الأقدمون انها لا حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة وانما الضوء والحرارة بالانعكاس على الأرض وما قال به العصريون انها حارة وتركبت من العناصر الأرضية

فيقول الأولون بأنها باقية أبد الآبدين ودهر الداهرين وكذبهم الآخرون من العرب والافرنج وانها ستمحى من صحيفة الوجود كالانسان وهذا سيرك مع علماء الفلك ثم سبرت الحكمة فى العقول والأبصار واختلاف مقادير الأشياء باختلاف درجاتها وعطفت على المفسرين فى قصص الاسكندر وانثنيت مع الفقهاء فى تقدير الأيام إذا زادت عن المعتاد

وهل حظ عقولنا من هذا المجال البديع إلا ان نتعالى بنفوسنا عن الدنايا ونخطو إلى جلائل الأعمال مع عظام الرجال فلتكن النفوس الكبيرة شموس الأمم وبحار الحكم يصدر عنها سحاب الطلاب والسائلين ويرد اليها جداول المدح وأنهار الثناء من الشاكرين . لعمرك ما العلوم على تباين أشكالها وتمايز أوضاعها وتكثر فروعها إلا كمال للعقول تستعد بها الى العروج إلى سماء المدنية وترقى الأمة . عقل يحلل الماء ويطيره فى الهواء ويحلل الضوء ويحكم ويتصرف أولى بالاحاطة والشمول وانارة السبل والعقول

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر

فى ذكر علو همة الأفراد وتشويقهم وفى ذكر كيفية التوصل بالقرآن الى هذه الطريقة وفى ذكر ما اقتصر عليه المسلمون من علم الفقه

اعلم ان علو الهمة لن يكون لامرئ إلا بما يرد على سمعه من تمجيد الأعمال التى توافيه فلا تزال السير والقصص تترى على سمعه شهرا فشهراً وسنة فسنة حتى تتربى فى نفسه الملكة التى استعد لها

ان الله أنزل فى القرآن قصص الأنبياء ومن عجيب أمرها انها كلها ترمى لأمر واحد وهو جهاد فنصر

فجميع قصص الأنبياء تبدأ بالدعوة ثم يكون العناء والقتال والعداوة واحتمال المشاق ثم يتم نصرهم فى آخر الأمر وهل بعدهذا زيادة لمستزيد فليسر الناس على هذا النمط و يسمع المجاهدون آيات الجهاد أحاديث وقصص الأبطال الحقيقية والروائية و يسمع المعدون للعلوم الرياضية الآيات الدالة على الحساب والفلك والنظام وما أشبهها وسير العلماء الذين نبغوا فى ذلك

وليسمع علماء العلوم الطبيعية مايسمو بالنفوس اليها والقرآن مشحون بها وهكذا

الاقتصار على علم الفقه

واذا رأينا أمم الاسلام نبغت فى علم الفقه لما رأى علماءها من المشجعات عليه فجهلوا سواه فى ألف السنة التى انقضت فأحر بهم وقدحدثت لهم مشوقات ومرغبات فى جميع العلوم اليوم وفتح لهم أبواب العلم على مصراعيه اليوم وعلموا علما يقينيا ليس بالظن انهم مثابون على كل علم وعلى كل صناعة أكثر من ثواب الذين كانوا قائمين بعلم الفقه الذين لم يسمعوا ما يشوقهم لغيره من العلوم وأنا أحمد الله إذ كتب

هذا وأنا مطلع على أحوال المسلمين اليوم وانهم نفضوا غبار الكسل والنوم وهبوا من رقدتهم واستيقظوا فأنا أحمد الله حمداً يوافى نعمه ويكافئ مزيده أنا اليوم أيقنت اننى نلت مرادى وهو ان أمم الاسلام حل عقالها وقامت من سباتها وهبت غفلتها وأقبل عزها فأنا أقابل الموت وأقابل الله بعد ذلك وأنا فرح لأن هذه كانت كل أمنيتى وقد نلتها كما نالها الكتاب الذين يكتبون فى زماننا لانقاذ أمم الاسلام

الفصل الرابع عشر

فى ذكر حكمة التكليف بالايمان بما غاب عنا مما ليس بجرم وفى توحيد العلوم وان الوحدة فيها نظام كل شىء

اعلم أيها الذكى ان الناس إذا عاشوا بحواسهم الخمس الظاهرة فانه لافرق بينهم وبين العجماوات ولقد وجدنا المتوحشين والمتمدينين كلهم يجدون فى نفوسهم اعتقادا بما هو غائب عنهم فتسمع المتوحش يخاف من العفريت وهو لم يره ويخاف من السحر وهو أمر معنوى وأكثر الأمم مجمعات على الاعتقاد بخالق للعالم قادر وهذه العقيدة عامة وشذ قليل من الناس عنها وعمومها أشبه بعموم الطعام والشراب واللباس فهى ملحقة بالفطرة والحكمة فيها انها نقلت الناس من المحسوسات الى المعقولات فأيقظت عقولهم وذهبت بها فى حياتهم كل مذهب .ان المعقولات نتائج المحسوسات لايعمل الانسان عملا إلا بعد فكره فيه فالفكر أصل والعمل تبع وأدقُّ الفكر مابحث فى موجود ليس بجسم هو مبدأ كل موجود والله من ورائهم محيط ، واعلم ان العلوم كلها ترجع للوحدة ألا ترى ان علم ماوراء الطبيعة يبحث عن الوحدة وكل موجود يسمى واحداً فالعشرة والمائة والألف وما لانهاية له كله يسمى واحداً فكل موجود نسميه واحداً من جهة ونسميه كثيراً من جهة أخرى فالعالم واحد ولكن عند التفصيل نقسمه إلى أقسام كل قسم نسميه مقولة والمقولات عشر مثل الكيف والكم والمقولات العشر التى قسمت اليها الوحدة تدخل فيها جميع العلوم ولقد وضحتها فى كتابى النظام والاسلام فلا نطيل

بها هنا ، واذا كان الله واحداً والعلوم كلها ترجع الى الوحدة العامة فى العوالم

فكيف لاتكون للمسلمين وحدة تجمعهم .نعم فرقهم الجهل ولكن اليوم أرسل الله لهم العلم واليوم عرفوا ان كل العلوم يشتمل عليها ديننا فما الذى يفرقهم اذن ؟

العلوم جميعها يطلبها القرآن ومن شك فى ذلك فليقرأ كتبى لاسيما كتابى الجواهر فى تفسير القرآن فاذا قرأه وقرأ غيره أو قرأ هذا الكتاب فلا يسعه إلا أن يقر ويؤمن بأن العلوم جميعها فروع لدين الاسلام

وهذه هى الوحدة الاسلامية فما فرق المسلمين الا الجهل وهذا هو العلم والاتحاد فيه فكيف يتفرقون

الفصل الخامس عشر

فى ذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا

اعلم ان هذا الفصل كالمتمم لجميع الفصول السابقة

إن السفر على قسمين سفر جسمى وسفر عقلى والانسان اذا سافر بجسمه فرأى بعينه وشاهد بحواسه الخمس ما فى تلك الأقطار من العجائب فانه لا يتم له النفع إلا بالبحث والتنقيب عما رأى وما شاهد .وذلك لا يكون إلا بالعلوم فالسياحات الجسميه كالمتممة للسياحات العقلية

فالعالم الذى نبع فى علم يزيد فهما بالسفر والاطلاع والمسافر الجاهل يزيد علماً اذا قرأ العلوم التى تبحث فيما شاهده

والله يقول فى السفرين معاً (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فقوله أفلم يسيروا للسفر الجسمى وقوله فتكون لهم قلوب الخ للسفر العلمى اشارة أى أن السفر الأول بغير الثانى لا قيمة له والمسلمون اليوم عليهم أن يدرسوا أحوال الأمم شرقا وغربا

وهذامن فروض الكفاية بحيث يكون فى الأمة الواحدة جموع لكل مطلوب لها كافيات لما طلبوا والحمد لله رب العالمين

الفصل السادس عشر

المقالات الاصمعية[1]

المقالة الأولى

الترقى فى الازهر

الارتقاء سنة طبيعية فى الكائنات من أدناها إلى أعلاها حتى يشمل الامكنة والازمنة والجمادات والناميات والنواميس نفسها . نرى الأمم فى ارتقائها وتمدينها تكون آخرتها خيراً من أولاها وشبابها خيراً من طفوليتها فاذا ذهبت وخلفتها أخرى إرتقت عنها فى ظواهر الأحوال

عرج على شمال المسكونة وجنوبها فى قطبيها فهل تجد هناك إلا أدنى الحيوان إذ لاتصلح للسكنى فان ارتقيت إلى أواسط المعمورة حيث لا تفرط البرودة رأيت الحيوان والنبات والانسان على تمام النمو فهاهنا ارتقاء فى المكان واذا نظرت إلى العناصر وجدت بعضها أرقى من بعض وتدخل فى تركيب النبات وبعضه أرقى من بعض وهكذا عالم الحى الذى ينتهى بالأنسان وبالجملة فسنة الترقى هى سنة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

وكما خمدت أمة وسكنت حرارة شبابها وتدابر فى الحضيض أرسل الله لها من يوقظها من غفلتها فان هبت للعمل ارتقت والا فلتنذرها بالزوال من الوجود

هاهى الأمم ارتقت حولنا فى جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة وهاهم أغلب المسلمين فى بقاع الارض ليس لهم نصيب من الترقى الا كسراب بقيعة فياليت شعرى ما الذى أصاب جسم هذه الأمة وأى مكروب من مكروبات الاجتماع

(١) هذه المقالات كانت أدرجت فى جريدة المؤيد قبل دخولها فى هذا الكتاب

فتك بجسمها وما الذى دهى الاسلام ؟ لعمرى أن الاسباب لكثيرة ومن اهمها وأعمها الجهل بالحد الفاصل بين علوم الدين والدنيا حتى وقفنا الآن فى حيرة لا يدرى عقلاؤنا ما قسم الدنيا وما قسم الدين فكان هذا هو العائق الأعظم عن تحصيل مراد الحياة والترقى فيها حتى انك ترى الجامع الازهر أكبر كلية اسلامية يعتقد كثير من كبار الأمة وعقلائها ان أهله لو عرفوا غير العلوم الأحد عشر لاضمحل الدين وتقلص ظله وها هنا يحسن السؤال أهؤلاء العقلاء معذورون وإذا اتبعوا خطوات كثير من أولئك الزعماء فى ذلك فهل ينجيهم عند الله نقول أن هذا الداء عضال تمكن من جسم الأمة فلن يخرج إلا بقوة علمية وتأثير صحيح فوجب على من نظر بعين ارتسم على شبكتها علم تخطيط البلدان وما سطره أكابر علماء الاسلام أن يشرحه لعقلاء الامة و يظهر مافى بطون الدفاتر مما سطره الاقدمون ليطلع عليه عقلاؤنا و كبراؤنا ليحكموا بين عقل قديم راجح وجهل حادث فاضح ولينظروا فى أمتهم وشؤنهم وسنبين لعقلائنا ما نعلمه من آراء أكابر علماء الاسلام ولا نقصر فيما يجب علينا فان هذا الزمان هو الذى يجب فيه نشر العلم ولتكن ابحاثنا هكذا

كليات الاسلام وطريقة التعليم فى الأزهر

نظام الأزهر

الغزالى والعلوم فى الأزهر

الكليات والترقى وهذا الفصل متمم لما قبله

الواقفون والعلماء

ونحو ذلك من المباحث ولنبين ما يجب علينا تلقاء أمتنا حتى نكون قد أرضينا ضميرنا ودينا ولكى يحاسب كل إنسان نفسه و ينظر بعقله بين أقوال السادة الكبراء من علماء الاسلام فيما يجب على رجال الدين من العلوم ولا يخضع لبسيط حرم لذيذ العلم ووقف عند طرف قصير من الدين واتبع خطوات الخبط فى طرق التعليم وليتبين ذلك كله فى مقالاتنا وهذا إن شاء الله تشرح به صدور الكبراء وأهل الذكاء ومحبو الاصلاح

الفصل السابع عشر

فى المقالة الثانية الملقبة بالأصمعية

كليات الاسلام وطريقة التعليم فى الأزهر

يا قوم أرى الأمم تنظر فى شئون الحياة حقيرها وجليلها كبيرها وصغيرها وقد ذهلت عما يصيب الأزهر الشريف فما أدرى أفى جسم الأمة شلل أصاب أعضاءها فلا تحس أم وقر فى آذانها فلا تسمع أم تخبط خبط عشواء فى ليل بهيم وجود الحياة عدم وصحتها مرض والداء عضال شقينا به أزمانا طويلة وأعصراً وحقبا وكأنها دنت ساعة الرحيل وعذاب الهرم الشائن وتوديع أيام الدنيا وقيام ساعة الوعيد والأنذار بالويل والثبور

يرون كليات العالم تقدمت وطرق التعليم ارتقت وسبلها تزينت بالأنوار وابتهجت والطرق فى كليتنا العظمى فى هرمها خالفت المعقول والمنقول والأوائل والأواخر وترى الناس سكارى وما هم بسكارى حيارى وما هم بحيارى ولكن عذاب التقليد والجهل شديد . يا قوم أيجمل فى دين المروءة أن يتربع الطالب فى الأزهر عشرين سنة مثلا فى كتب طالت فقصرت وضخمت فاعتلت فيقرأ المتن والشرح والحاشية والتقرير ثم شرحا آخر وحاشيته وتقريرا وهلم جرا . وربما كان على الكتاب عشرون كتابا وعلى القاعدة عشرون قولا وهناك تكون الدهشة والحيرة فى حفظ المشاغبات والمناقضات والسباب والشتائم والقذف بلغة انحطت درجتها وضاعت بلاغتها وذهبت ثمرتها ففى النحو يحفظ قول « ابن جنى وابن عصفور والكسائى وسيبويه والفراء وغيرهم من الأئمة » والسجاعى والرضى ويس والصبان وغيرهم من المؤلفين وهكذا فى كل فن حتى اذا وصل الى تفسير القرآن فانما يقرؤه للبركة لا للفهم واليقين مكتفيا بما رزىء به الفؤاد من تلك المشاغبات مقتنعا بما عنده من العلم بل « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق

بهم ما كانوا به يستهزئون » نعم هذا داء أعيا العلامة ابن خلدون دواؤه كما قدمنا وقال ان المرض استحكم والشلل عم الأعصاب فهيهات هيهات أن ينجع الدواء . أحيل القارىء على المقالة التى ذكرناها عن ابن خلدون كيف أبان القول وحذر وأنذر وأوجب نسخ هذه الطرق بأقرب منها ووضع التعلم على ثلاث درجات لا غير فى كافة الفنون مبتدىء ومتوسط ومنته مع مراعاة أحوال الزمان والمكان

ومن العجيب ان الغزالى رحمه الله قال كقوله (و بين الرجلين أربع قرون وقد مضى الثانى وله نحو خمسة قرون)

يا قوم قد حق القول علينا قد مضى اسلافنا وذهلوا عما أنذر به هذان المصلحان وجهلوا أو تجاهلوا حفظا للمراكز وصونا للمقامات وسترا على الجهل فاستحكمت الغادة بعدهم وتأصلت فينا فأصبح رجالنا وعقلاؤنا ونوابنا لا يدرون ما يقولون ثم هم بعد ذلك يرجعون الى سلالة تعلمت من أخرى صموا آذانهم عن النداء يا قوم رعاكم الله هلا قرأتم ففهمتم ما سطره ابن خلدون مما ذكرناه آنفا فان الرجل أسمى نظرا ممن تعظمون وأرقى عقلا وأحكم رأيا ممن تعتقدون ألم يقع ما أنذر به من خمسة قرون ألم تكلل المدافع رؤس جبالنا وتتوج قلاعنا بأكاليل من نار ونحن صاغرون صامتون صابرون « إنا لله وإنا اليه راجعون » هل صواعق المدافع ونيران بارودها ورعد مقذوفاتها إلا أثر من آثار العلم وهل تفريق الجامعة والتصديق بالخزافات والتواكل والتخاذل إلا أثر من آثار الجهل حتى قبضت هولندا الغربية الصغيرة على جاوة الشرقية الكبيرة وأذاقتهم العذاب الهون بما كانوا يكسبون . يا قوم هداكم الله ان أبيتم إلا التقليد فاقرؤا ما كتبناه عن ابن خلدون وإن حكمتم العقل فما لكم لا تنظرون . وإياكم والرضا لقول أقوام عيونهم فى غطاء عن الذكرى فهم لا يبصرون (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وإن رأيتم أن الأمر ضاع والداء استحكم وعز استئصاله فلم لا تنشؤن كلية تحيون بها مجدا هدم ودينا عفا ودنيا مضت أنحن أصبحنا أقل أهل الأرض قاطبة أيكون ديننا أشرف الأديان ونحن أكسل الأمم حتى ترقى اليابانى

والأوروبى والأمريكى وارتقى المثلث وعابد الشمس و بقى الموحد يرسف فى قيود الذل والنكال (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ها هى صواعق نيران المدافع وكسف القلل النازلة من سماء المدنية الى أرض الجهالة (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين)

الفصل الثامن عشر

فى المقالة الثالثة الأصمعية

نظام الازهر

الأزهر أجل مدرسة اسلامية منها نبغ كثير من الفضلاء والعلماء على ممر الدهور والأجيال وقد سار على شاكلتها مدارس أخرى فى مساجد أمهات القرى كرشيد ودمياط وغيرها فوجب علينا النظر فيها ومن أعجب العجب أن تتعاقب النذر ويتوالى الإرشاد والناس صامتون لا يبدون حراكا . هذا النظام قد ندد عليه ابن خلدون وأكابر حكماء الاسلام بقى الى الآن . أول حركة للطالب أن يحفظ القرآن حفظاً بلا فهم فاذا أتمه وهو فى الغالب ابن ١٥ سنة انتظم فى سلك تلك المدرسة الجامعة وهو لا يعرف من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه ناشدتكم الله يا قوم أليس يضيع زمنه بلا علم ولا تعلم أليس التلميذ فى المدارس قد يأخذ البكالوريا وسنه ١٥ فيكون حفظ القرآن وحده بلامعنى كالابتدائية والتجهيزية أليس من الصواب الرجوع الى ما قاله ابن خلدون ولا ريب أن طريقته تشبه طريقة مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ومدرسة القبه الخديوى مصر عباس

رأى الكاتب الأصمعى

الذى أراه أن تجعل[1] له مدرسة ابتدائية تحت نظر الأزهر وتدار بادارته وتلك

(١) بعد ظهور هذه المقالة قام بهذا العمل العلامة الشيخ محمد شاكر فنحمد الله ونشكره

المدرسة يدخلها من عرفوا مبادىء القراءة والكتابة فى الكتاتيب ثم يقرؤون النحو والانشاء والحساب وعلوم الأشياء ممزوجة بمبادىء التوحيد وعلوم الأخلاق ، وبالجملة تكون على مقتضى نظام المدارس الخيرية مع حفظ القرآن وفهم معناه بوجه بسيط كما هو الحال في مدرسة القبة التى هى حسنة كبرى من حسنات الخديوى عباس حتى إذا أتم الطالب سنين معدودة امتحن فاذا نال الشهادة انتظم فى سلك الطلبة الذين يخوضون فى غايات العلوم ولعلك يا أخى تقول أن الأزهر ليس عنده استعداد لانشاء مدرسة

قلنا لم لايجعل قسم خاص يكون فيه الدرس على هذا النمط حتى يكون القرآن معروفاً لفظا ومعنى ، فان قلت أن القديم يبقى على قدمه أقول هذا هو الانحطاط بعينه وإذا كانت الأمة تشكو من القضاء الشرعى وانحطاطه وتدعو بالويل والثبور مع انتشار الخرافات بين الخاصة والعامة .

ألم يكن ذلك من تلك التربية الضعيفة ، وكيف يبقى الطالب ١٥ سنة أو نحوها وهو لم يدر فى الدنيا شيئاً ثم يتعلم بعد ذلك .

أليست الملكات قد رسخت عنده وتعسر اقتلاعها ، أليس ابقاؤه تلك المدة بين يدى معلم جاهل كافياً لاذهاب الفطنة من رأسه وخروجه من الحياة صفر اليدين

أليست العلوم تبقى بعد ذلك سطحية إذ المؤثر على المرء مايسمعه فى أول حياته ويتلقاه فى مبدإ صباه وهل أتاك نبأ التدريس بعد ذلك وهو لعمرك نبأ عظيم لايدخل العلم فى الأذهان إلا من وراء حجب الجدال العنيف

يبتدىء الطالب وهو لايحسن قراءة سطرين ولا فهم جملتين ولا إعراب كلمتين وأول ما يبدأ إذ ذاك بالبسملة وإعرابها وإن لها تسعة أوجه ويقال بسم الله الرحمنِ الرحمن الرحمنُ وإن هذه الأوجه الثلاثة مع أوجه الرحيم الثلاثة بضربها فى بعضها تبلغ تسعة ثم يقال له هذا هو النعت المقطوع ففى حال النصب يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره أمدح الرحمن أمدح فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة ظاهرة فى آخره والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا والرحمن منصوب وعلامة نصبه فتحة

ظاهرة فى آخره وهذا بعض اعراب وجه من الأوجه التسعة ويجرى الباقى على مقتضاه فيكون إعراب الأوجه التسعة شاغلا كراسة بتمامها ثم يحفظ هذا النظم ليعلم أن وجهين منها ممنوعان وليكون ضابطا وقانونا

أن ينصب الرحمن أو يرتفعا فالجر فى الرحيم قطعا منعا
وأن يجر فاجز فى الثانى ثلاثة الأوجه خذ بيانى
فهذه تضمنت تسعا منع وجهان منها فادر هذا واستمع

ومن المدهشات أن علم الفقه تقرأ عباداته ومعاملاته من البيع والشراء والقرض وغيرها تعبداً ، ويبقى الطالب ما بين العشرة إلى الخمس عشرة سنة وهو يتعلمها ثم يجلس على منصة الأحكام فيضل فيها بعد أن ضاع الزمان ومات شطر من عمره وهذا التلميذ يدخل مدرسة الحقوق ويقرأ لغتين فيها ويلم بأطراف القوانين والأحكام ، ثم يكر كرة على اللاتينية فيتعلمها ليعرف كيف يفهم القانون الرومانى كل ذلك فى أربع سنين وكيف يرى ذلك القاضى الأهلى نفسه أرفع مقاما من ذلك العالم الدينى أليس هذا كله من جراء طريقة التعليم ورداءتها

أقول هذا وأنا أعلم أنه لن يقدر هذا القول حق قدره إلا علماء الأمة وأكابرها والمأمول من أولياء الأمور أن ينظروا فى هذه المدرسة وينقذوا طلبتها وطلبة مدارس أخرى ربما بلغت ١٥ ألفاً من الضياع .

وإذا كان نظام التعليم يبقى على ما هو عليه الآن ، فلا غرابة إذا كان القاضى والمفتى المتخرجان يقضيان ويفتيان بما نرى ونسمع كل يوم وكيف يجوز السكوت على هذه الوصمة وقد أحاطت بنا الأفرنج من كل جانب وأحدقت بنا الأعين تزلقنا بأبصارها فمها سهونا أو لهونا فدوسنا بالقدم وسوقنا إلى العدم أسرع من لمح البصر سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة تبديلا

الفصل التاسع عشر

فى المقالة الرابعة الأصمعية

الغزالى والعلوم فى الأزهر

ذكرنا فيما سبق ما قاله علماؤنا رحمهم الله تعالى وما يوجبه العقل والنقل فى طريقة التعليم وتغييرها واتباع أحسنها ، والآن نبحث فى العلوم الواجب على الأمة معرفتها والاستبصار بها فانى علمت أن كثيراً من عقلائنا يخدعهم قول القائلين

إن علوم الدين إذا صحبت غيرها أضر ذلك بها موهمين الناس أن علوم الدين الاسلامى قاصرة على ما يقولون ولا شاهد على ما يقولون

من لى بأن يقرأ العقلاء ما سطره الغزالى فى الجزء الأول من الاحيا من الحط على العلماء وذمه الاقتصار على فنون محدودة وترك الطب الذى يعتبره علماء الشريعة حجة فى الفتاوى و بين الأسباب الداعية للتوغل فى الفقه وأبان أن ذلك للدنيا وحدها لا للدين وقال ما نصه (أعلم أن الغرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالاضافة إلى الغرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه كالحساب والتجربة مثل الطب والسماع مثل اللغة .

فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود و إلى ما هو مذموم و إلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية و إلى ما هو فضيلة وليس بفريضه

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فانه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها .

وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد و إذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا أن الطب والحساب من فروض الكفايات فان أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة ، بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وعرضوا أنفسهم إلى الهلاك فان الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله

وأما ما يعد فضيلة لافريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج ، وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات . وأما المباح فالعلم بالأشعار التى لاسخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه) ثم قال بعد كلام طويل ما نصه (فان قلت لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا — فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم وخلق الدنيا زاداً للميعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود

فلو تناولها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة الى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان الى قانون يسوسهم به وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطها لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا ولعمرى انه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة فان الدنيا مزرعة للآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فمهدوم ومالا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة

الأولى بل هو معين على مالا يتم الدين إلا به فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم ان الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس من العرب فى الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق الى الحج شيء ثان والقيام بالحراسة التى لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث ومعرفة طرق الحراسة وقوانينها شيء رابع وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة) ثم قال رحمه الله (ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهاراً فى حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه فى الدين واذا روجع فيه قال اشتغلت لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء الأمر فى فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين بل لقدم عليه كثيراً من فروض الكفايات ، وكم من بلدة ليس فيها طبيب من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به ويتهافتون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع .

فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة واهمال مالا قائم به هل لهذا سبب الا أن الطب ليس يتيسر للوصول به إلى تولى الاوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الاقران والتسلط به على الاعداء هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء فالله المستعان واليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان

الفصل العشرون

فى المقالة الخامسة الاصمعية

الكليات والترقى

قال رحمه الله (لاينبغى للطالب أن يدع فنا من فنونه المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم أن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم كثيرة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه فى الحال الأنفكاك من عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم) قال الشاعر

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها اما سالكة بالعبد إلى الله تعالى أو معينة على السلوك نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد والمقصود والقوام بها حفظة كحفاظ الرباط والثغور ولكل واحد مرتبة وله بحسب درجته أجر فى الآخرة) انتهى كلامه بالحرف الواحد ثم تقول عجبا كيف يدعى قوم أنهم عرفوا التوحيد وهم يجهلون ماذرا الله فى الكائنات أم كيف يقرأون القرآن وهم عن آيات الله فى السموات والأرض معرضون (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) من لى بأن يقف عقلاء الأمة على مابين أيدى القوم الآن من عبارات مشوشة مشؤومة وماسطره المتقدمون هذا اعظم كتاب بين ظهرانينا (جمع الجوامع) وكم يطنطنون بقولهم « شكر المنعم واجب » وكثيرا ما جعلت هذه العبارة امتحانا للطالب فى علم الأصول حتى يقرر عالما فياليت شعرى ما الذى يستفيده القارىء من تلك العبارات والمجادلات والمناقضات والخلاف بين أهل السنة والمعتزلة وبعد هذا وذاك تقول احدى الحواشى لم يرد فى علم الفقه ان شكر المنعم واجب ..

دعنا من هذا الخطب الجلل المدلهم العظيم وانظر الشكر فى الجزء الرابع من

الاحياء وكيف فصله وقسمه وتأمل كيف ذكر سعادة الانسان فى دنياه ودينه وكيف فصل السعادات تفسيما عجز عنه فطاحل علماء الغرب وهاهو العلامة جون لبك الانجليزى أحد أعاظم الانجليز الآن الذى يشار اليه بالبنان بين أمته و جميع علماء أوربا قد ألف كتابا فى سعادة الحياة وترجم الى اكثر اللغات و إذا قارناه مع ضخامته وحسن تركيبه وترصيعه وما حوى من حكم وأمثال وحمال لانجده قسم السعاده وفصلها ورتب أقسامها واستوفاها كما فعل الغزالى فى باب الشكر مع الوجازة فليراجعه من أراد ولينظر و يقارن بين عالم شرقى مضى له تسعة قرون وعالم غربى وليتأمل فلسفة الفريقين وحكمة الرجلين فى باب السعادة (الذى جعله الغزالى استطرادا فى باب الشكر كما قدمنا) وكيف أدخل رحمه الله جميع أقسام العلوم والمعارف وأحوال الدنيا والآخرة فيها ثم لنكر كرة على جمع الجوامع ونقرأ شكر المنعم فيه فماذا ياقوم تحكمون قال علماؤنا علوم العربية كلها من علوم الدنيا يقرؤها المسلم واليهودى والنصرانى والمجوسى وعابد الشمس وكل صاحب دين ونحلة ولكن يتوقف عليها معرفة الكتاب والسنة وعلم الطبيعة ومعرفة ما خلق الله فى الارض والسماء مما يتوقف عليها معرفة الله وجماله وحكمته فى خلقه وأن أبيت ياصاح الا الافصاح فاقرأ باب التفكر فى الأحياء فهل ترى الا نظرة فى علم الطبيعيات التى حرم منها طلبة العلم وتعلمها أصغر تلميذ فى مدارس أوروبا

هاهم ياقوم أهل الغرب قاطبة وتبعهم يابان الشرق يدرسون من كل علم طرفا أولا حتى إذا نالوه و وصلوا غايته الوسطى (الشهادة الثانوية) رأيت كل واحد اختار فنا للتضلع فيه وصار ركنا فى الأمة لهذا الفن ياقوم أليس هذا ماقاله الغزالى من نحو تسع قرون . ياقوم كنا ملوكا على الأسرة فأصبحنا أذنابا للتقليد والجهل فهل أنتم منتهون . . . أحيل القارىء على تفسير الرازى لينظر كيف ذكر فيه من كل فن من الطبيعيات والرياضيات والالهيات أتقول بعد هذا أن هذه العلوم ليست من الدين ياقوم مالنا أصبحنا ننكر الضروريات وعميت علينا السبل ياقوم ان فؤادى لينفطر الآن على ما أصاب جسم الأمة ومادهى رجالها وهذا مقدورى وغاية وسعى به أخرج من حد الكتمان وهل يجوز بعد هذا أن ينكر من تربوا تربية ناقصة حتى اذا مروا على حكمة من حكم الله أو عجيبة من عجائبه

قالوا هذا ليس من الدين . العلوم شجرة أصلها ثابت فى الأفئدة فروعها كل علم ثمرتها الأعمال وأصل العلوم معرفة الله تعالى وجماله ولا سبيل الى ذلك إلا بالعلوم الطبيعية التى جعلها الله أول واجب على الانسان لمعرفته كما فى مئات الآيات وأقوال أكابر العلماء وسنبين ذلك فى المقال الآتى من كلام ابن رشد صبحاً . أليس الصبح بقريب

الفصل الحادى والعشرون

فى المقالة السادسة الأصمعية

الأزهر وابن رشد

ذكرنا فى سابق قولنا طرفا من كلام ابن خلدون والغزالى فى رداءة التعليم والقصور فى العلوم وهاهو ذا ابن رشد رحمه الله قال (ان فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعنى من جهة ماهى مصنوعاته فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك فيبين ان مايدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع وإما مندوب اليه فاما ان الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به فذلك بين فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله (فاعتبروا ياأولى الأبصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى أو العقلى والشرعى معاً ومثل قوله تعالى (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) وهذا حث على النظر فى جميع الموجودات واعلم انه ممن خصه الله تعالى بهذا العلم وشرفه ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وقال تعالى (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت) وقال (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض)

إلى غير ذلك من الآيات التى لاتحصى كثرة اه ثم قال فى موضع آخر (اعلم ان الذى قصده الشرع من معرفة العالم هو انه مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له وانه لم يوجد عن الاتفاق من نفسه فالطريق التى سلك الشرع بالناس فى تقرير هذا الأصل ليس هو طريق الأشعرية فانا قد بينا ان تلك الطرق ليست من الطرق اليقينية الخاصة بالعلماء ولا هى من الطرق العامة المشتركة بالجميع وهى الطرق البسيطة أعنى بالبسيطة القليلة المقدمات التى نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها وأما البينات التى تكون بالمقاييس المركبة الطويلة التى تنبنى على أصول متفننة فليس يستعملها الشرع فى تعليم الجمهور ومن سلك بالجمهور غير هذا النوع من الطرق أعنى البسيطة وتأول ذلك على الشرع فقد جهل مقصده وزاغ عن الطريقة وكذلك أيضاً لايعرف الشرع بأمثال هذه المقاييس من الأمور إلا ما كان له مثال فى الشاهد وما كانت الحاجة إلى تعريفه الجمهور به وكيدة مثل ذلك بأقرب الأشياء شبها به كالحال فى أحوال المعاد وما لم تكن لهم به حاجة إلى معرفته فى هذا الجنس عرفوا انه ليس من علمهم كما قال تعالى فى الروح واد قد تقرر لنا فى هذا الأصل فواجب ان تكون الطريقة التى سلكها الشرع فى تعليم الجمهور حدوث العالم من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع وواجب ان كان حدوثه ليس له مثال فى الشاهد أن يكون الشرع استعمل فى تمثيل ذلك حدوث الأشياء المشاهدة فاما الطريق التى سلكها الشرع فى تعليم الجمهور ان العالم مصنوع لله تبارك وتعالى ، فانه اذا تؤملت الآيات التى تضمنت هذا وجدت تلك الطرق هى طريق العناية وهى احدى الطرق التى قلنا انها الدالة على وجود الخالق تعالى وذلك انه كما ان الانسان إذا نظر إلى شىء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما وقدر ما ووضع ما موافق فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة فى ذلك الشىء المحسوس والغاية المطلوبة حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل و بغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة علم على القطع ان لذلك الشىء صانعا صنعه ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره تلك المنفعة وانه ليس يمكن أن يكون اجتماع تلك الأشياء لوجود المنفعة بالاتفاق مثال

ذلك انه إذا رأى انسان حجرا موجودا على الأرض ووجد شكله بصفة يتأتى منها الجلوس ووجد أيضا وضعه كذلك وقدره علم ان ذلك الحجر انما صنعه صانع وهو الذى وضعه كذلك وقدره فى ذلك المكان وامامتى لم يشاهد شيئا من هذه الموافقة للجلوس فانه يقطع ان وقوعه فى ذلك المكان ووجوده بصفة ماهى بالاتفاق ومن غير ان يجعله هكذا فاعل . كذلك الأمر فى العالم كله فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التى هى سبب الأزمنة الأربعة وسبب الليل والنهار وسبب الأمطار والمياه والرياح وسبب عمارة أجزاء الأرض ووجود الناس وسائر الحيوانات البرية وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية والهواء للحيوانات الطائرة ولو انه اختل شىء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى ههنا علم بالقطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التى فى جميع اجزاء العالم للإنسان والحيوانات والنبات بالاتفاق بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراده هو الله عز وجل وعلم على القطع ان العالم مصنوع وذلك انه يعلم ضرورة انه لم يمكن أن توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده عن غير صانع بل عن الاتفاق فاما ان هذا النوع من الدليل قطعى وانه بسيط فظاهر من هذا الذى كتبناه وذلك إن مبناه على أصلين معترف بهما عند الجميع أحدهما ان العالم بجميع أجزائه يوجد موافقا لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات التى ههنا والأصل الثانى ان كل ما يوجد موافقا فى كل جميع أجزائه لفعل واحد ومسدد نحو غاية واحدة فهو مصنوع ضرورة فينتج عن هذين الأصلين بالطبع ان العالم مصنوع وانه له صانع وذلك إن دلالة العناية تدل على الأمرين معا ولذلك كانت أشرف الدلائل الدالة على وجود الصانع و إما ان هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود فى الكتاب العزيز فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التى يذكر فيها بدء الخلق فمنها قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) الى قوله (وجنات ألفافا) فان هذه الآية اذا تؤملت وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان وذلك انه ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الأبيض والأسود وهو أن الأرض خلقت يأتى لنا القيام عليها

وانها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير شكلها أو فى موضع آخر غير هذا الذى هى فيه أو بقدر غير هذ القدر ما أمكن ان توجد فيها ولا أن تخلق عليها وهذا كله محصور فى قوله تعالى « ألم نجعل الأرض مهادا » وذلك ان المهاد يجمع الموافقة فى الشكل والسكون والوضع وزائدا الى هذا معنى الوثارة واللين فما أعجب هذا الاعجاز وأفضل هذه السعادة وأغرب هذا الجمع وذلك انه قد جمع فى لفظ مهاد جميع ما فى الأرض من موافقتها لكون الانسان عليها وذلك شىء قد تبين على التمام للعلماء فى ترتيب من الكلام طويل وقدر من الزمان غير يسير والله يختص برحمته من يشاء وأما قوله تعالى « والجبال أوتادا » فانه نبه بذلك على المنفعة الموجودة فى سكون الأرض من قبل الجبال فانه لو قدرت الأرض أصغر مما هى كأن كانت دون الجبال لتزعزعت من حركات باقى الاسطقسات أعنى الماء والهواء ولتزلزلت وخرجت من موضعها ولو كان ذلك كذلك لهلك الحيوان ضرورة فاذن موافقة سكونها لما عليها من الموجودات لم تعرض بالاتفاق وإنما عرضت عن قصد قاصد وإرادة مريد فهى ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة له على الصفة التى قدرها لوجود ما عليها من الموجودات ثم نبه أيضاً على موافقة وجود الليل والنهار للحيوان فقال تعالى « وجعلنا الليلَ لباسا وجعلنا النهار معاشا » يريد ان الليل جعله كالسترة واللباس للموجودات ههنا من حرارة الشمس وذلك انه لولا غيبة الشمس بالليل لهلكت الموجودات التى جعل الله حياتها بالشمس وهو الحيوان والنبات فلما كان اللباس قد يقى من الحر مع انه سترة وكان الليل يوجد فيه هذان المعنيان سماه الله لباساً وهذا من أبدع الاستعارة وفى الليل أيضاً منفعة أخرى للحيوان وهو أن نومه يكون فيه مستغرقا لما كان ذهاب الضوء الذى يحرك الحواس الى البدن الذى هو اليقظة ولذلك قال تعالى (وجعلنا نومكم سباتا) أى مستغرقا من قبل ظلمة الليل ثم قال تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شددا وجعلنا سراجا وهاجا » فعبر بلفظ البنيان عن معنى الاتقان الموجود فيها والنظام والترتيب وعبر بمعنى الشدة عما جعل فيها من القوة على الحركة التى لا تفتر عنها ولا يلحقها من قبلها ملال ولا تخاف ان تخر كما تخر

السقوف والمبانى العالية الى هذه الاشارة بقوله تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظاً) وهذا كله تنبيه منه على موافقتها فى أعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الأرض وما حولها حتى انه لو وقف جرم من الاجرام السماوية لحظة واحدة لفسد ما على وجه الأرض فضلا عن أن تقف كلها وقد زعم قوم أن النفخ فى الصور الذى هو سبب الصعقة وقوف الفلك ثم نبه على منفعة الشمس الخاصة وموافقتها لوجود ما على الأرض فقال تعالى «وجعلنا سراجا وهاجا» و إنما سماها سراجا لأن الأصل هو الظلمة والضوء طارىء على ظلمة الليل ولولا السراج لم ينتفع الانسان بحاسة بصره بالليل وكذلك لولا الشمس لم ينتفع الحيوان بحاسة بصره أصلا وانما نبه على هذه المنفعة للشمس فقط دون سائر منافعها لأنها أشرف منافعها وأظهرها ثم نبه تعالى على العناية المذكورة فى نزول المطر وانه انما ينزل بمكان النبات والحيوان وأن نزول المطر بقدر محدود وفى أوقات محدودة لنبات الزرع ليس يمكن يعرض عن الاتفاق بل سبب ذلك العناية بما هنا فقال تعالى (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتا وجنات ألفافا (والآيات التى فى القرآن فى التنبيه على هذا المعنى كثيرة مثل قوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الارض نباتا) ومثل قوله تعالى (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) ولو ذهبنا لنعدد هذه الآيات ونفصل ما نبهت عليه من العناية التى تدل على الصانع والمصنوع لما وسع ذلك مجلدات كثيرة وليس ذلك قصدنا فى هذا الكتاب ولعلنا أن مد الله فى الأجل ووقع لنا فراغ أن نكتب فى العناية التى نبه عليها الكتاب العزيز وينبغى أن تعلم أن هذا النوع من الاستدلال فى غاية المضادة للاستدلال الذى زعمت الأشعرية أنه الطريق الى معرفة الله سبحانه وذلك انهم زعموا ا أن دلالة الموجودات على الله تبارك وتعالى ليس من اجل حكمة فيها تقتضى العناية ولكن من قبل الجواز أى من قبل ما يظهر فى جميع الموجودات أنه جائز فى العقل أن يكون بهذه الصفة أو ضدها فانه ان كان هذا الجواز على السواء فليس ههنا حكمة ولا توجد ههنا موافقة أصلا بين

الانسان وبين أجزاء العالم وذلك انه ان كان يمكن على زعمهم أن تكون الموجودات على غير ما هى عليه كوجودها على ما هى عليه فليس ههنا موافقة بين الانسان وبين الموجودات التى امتن عليه الله بخلقها وأمره بشكره عليها فان هذا الرأى الذى يلزمه أن يكون أمكان خلق الانسان جزء من هذا العالم كامكان خلقه فى الخلاء مثلا الذى يرون أنه موجود بل والانسان عنده يمكن أن يكون بشكل آخر وخلقة أخرى ويوجد عنه فعل لانسان وقد يمكن عندهم أن يكون جزء من عالم آخر مخالف بالحد والشرح لهذا العالم فلا تكون نعمة ههنا يمتن بها على الانسان لأن ما ليس بضرورى ولا من جهة الافضل فى وجود الانسان فالانسان مستغن عنه وما هو مستغن عنه فليس وجوده بانعام عليه وهذا كله خلاف مافى فطر الناس وبالجملة فكما أن من أنكر وجود المسببات مرتبة على الاسباب فى الامور الصناعية أو لم يدركها فهمه فليس عنده علم بالصناعة ولا الصانع كذلك من جحد وجود ترتيب المسببات على الاسباب فى هذا العالم فقد جحد الحكيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقولهم أن الله أجرى العادة بهذه الاسباب وأنه ليس لها تأثير فى المسببات باذنه قول بعيد جدا عن مقتضى الحكمة بل هو معطل لها لان المسببات ان كان يمكن أن توجد من غير هذه الاسباب على حد ما يمكن أن توجد بهذه الاسباب فأى حكمة فى وجودها عن هذه الاسباب وذلك أن وجود المسببات عن الأسباب لا يخلو من ثلاثة أوجه اما أن يكون وجود الاسباب لمكان المسببات من الاضطرار مثل كون الانسان متغذيا وإما أن يكون من أجل الافضل أعنى لتكون المسببات لذلك أفضل وأتم مثل كون الانسان له عينان واما أن يكون ذلك لا من جهة الافضل ولا من الاضطرار فيكون وجود المسببات عن الاسباب بالاتفاق وبغير قصد فلا تكون هنالك حكمة أصلا ولا تدل على صانع أصلا بل انما تدل على اتفاق وذلك انه ان كان مثلا ليس شكل يد الانسان ولا عدد أصابعها ولا مقدارها ضروريا ولا من جهة الافضل فى الامساك الذى هو فعلها وفى احتوائها على جميع الأشياء المختلفة الشكل وموا فقتها لامساك آلات جميع الصنائع فوجود أفعال اليد الذى هو

عن شكلها وعدد أجزائها ومقدارها هو بالاتفاق ولو كان ذلك كذلك لكان لافرق بين أن يخص الانسان باليد أو الحافر أو بغير ذلك مما يخص حيوانا من الشكل الموافق لفعله وباجملة متى رفعنا الاسباب والمسببات لم يكن ههنا شيء يرد به على القائلين بالاتفاق أعني الذين يقولون لا صانع ههنا وان جميع ما حدث فى هذا العالم انما هو عن الاسباب المادية لأن أحد الجائزين هو أحق أن يقع عن الاتفاق منه أن يقع على فاعل مختار وذلك انه إذا قال الاشعرى أن وجود أحد الجائزين أو الجائزات هو دال على أن ههنا مخصصا فاعلا كان لأولئك أن يقولوا ان وجود الموجودات على أحد الجائزين أو الجائزات هو عن الاتفاق لأن الارادة انما تفعل لمكان سبب من الاسباب والذى يكون لغير علة ولا سبب هو عن الاتفاق إذ كنا نرى أشياء كثيرة تحدث بهذه الصفة مثل ما يعرض للاستقساط أن تمتزج امتزاجا بالاتفاق فيحدث عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود آخر فتكون على هذه جميع الموجودات حادثة عن الاتفاق أما نحن فلما كنا نقول أنه واجب أن يكون ههنا ترتيب ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن منه ولا أتم منه وأن الامتزاجات محدودة مقدرة والموجودات الحادثة عنها واجبة وأن هذا دائما لا يختل لم يمكن أن يوجد ذلك عن الاتقان لأن ما يوجد عن الاتقان هو أقل ضرورة والى هذا الاشارة بقوله تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شيء) وأى إتقان يكون ليت شعرى فى الموجودات ان كانت على الجواز لأن الجائز ليس هو أولى بالشيء من ضده والى هذا الاشارة بقوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) وأى تفاوت أعظم من أن تكون الأشياء كلها يمكن أن توجد على صفة أخرى فوجدت على هذه ولعل تلك الصفة المعدومة أفضل من الموجودة فمن زعم مثلا أن الحركة الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية لم يكن فى ذلك فرق فى صنعة العالم فقد أبطل الحكمة وهو كمن زعم أنه لو كان اليمين من الحيوان شمالا والشمال يمينا لم يكن فى ذلك فرق فى صنعة الحيوان فان أحد الجائزين كما يمكن أن يقال فيه إنما وجد على أحد الجائزين من فاعل مختار كذلك ممكن أن

يقال أنه إنما وجد على أحد الجائزين بالاتفاق إذ كنا نرى كثيرا من الجائزات توجد على أحد الجائزين بالاتفاق وأنت لتتبين أن الناس بأجمعهم يرون أن المصنوعات الخسيسة هى التى يرى الناس فيها أنه كان يمكن أن تكون على غير ماصنعت عليه حتى أنه ربما أدت الحساسة الواقعة فى كثير من المصنوعات التي بهذه الصفة أن يظن أنها حدثت عن الاتفاق وأنهم يرون أن المصنوعات الشريفه هى التى يرون فيها أنه ليس يمكن أن تكون على هيئة أتم وأفضل من الهيئة التى جعلها عليها صانعها فاذن هذا الرأى من آراء المتكلمين هو مضاد للحكمة والشريعة ومعنى ماقلناه من أن القول بالجواز هو أقرب الى نفى الصانع عن أن يدل على وجوده مع أنه ينفى الحكمة عنه وأنه متى لم يعقل أن ههنا أواسط بين المبادىء والغايات فى المصنوعات تترتب عليها وحدها وجود الغايات لم يكن ههنا نظام ولاترتيب واذالم يكن ههنا نظام ولا ترتيب لم يكن ههنا دلالة أن لهذه الموجودات فاعلا مريداً عالما لأن الترتيب والنظام و بناء المسببات على الأسباب هو الذى يدل على أنها صدرت عن علم وحكمة وأما وجود الجائز على أحد الجائزين فيمكن أن يكون عن فاعل غير حكيم عن الاتفاق عنه مثل أن يقع حجر على الأرض عن الثقل فيه فيسقط على جهة منه وعلى موضع دون موضع أو على وضع دون وضع فان هذا القول يلزم عنه ضرورة اما ابطال وجود الفاعل على الاطلاق وإما ابطال وجود فاعل حكيم عالم تعالى الله وتقدست أسماؤه عن ذلك وأما الذى قاد المتكلمين من الأشعرية الى هـذا القول فالهروب من القول بفعل القوى الطبيعية التى ركبها الله فى الموجودات التى ههنا كما ركب فيها النفوس وغير ذلك من الأسباب المؤثرة فهربوا من القول بالأسباب لئلا يدخل عليهم القول بأن ههنا أسبابا فاعلة غير الله وهيهات لا فاعل ههنا إلا الله اذا كان مخترع الأسباب وكونها أسبابا مؤثرة هو باذنه وحفظه لوجودها وسنبين هذا المعنى بيانا أكثر فى مسألة القضاء والقدر وأيضاً فانهم خافوا أن يدخل عليهم من القول بالأسباب الطبيعية أن يكون العالم صادرا عن سبب طبيعى ولو علموا أن الطبيعة مصنوعة وأنه لا شيء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة فى الاحكام

لعلموا أن القائل بنفى الطبيعة قد أسقط جزءاً عظيما من موجودات الاستدلال على وجود الصانع العالم بجحده جزءاً من موجودات الله وذلك أن من جحد جنسا من المخلوقات الموجودات فقد جحد فعلا من أفعال الخالق سبحانه ويقرب هذا ممن جحد صفة من صفاته فلما كان نظر هؤلاء القوم مأخوذا من بادىء الرأى وهو الظنون التى تخطر للانسان من أول نظرة وكان يظهر فى بادىء الرأى أن اسم الارادة انما يطلق على من يقدر أن يفعل الشىء وضده رأوا أنهم ان لم يصلوا الى أن الموجودات جائزة لم يقدروا أن يقولوا بوجود فاعل مريد فقالوا ان الموجودات كلها جائزة ليثبتوا من ذلك أن المبدأ الفاعل مريد كأنهم لم يروا الترتيب الذى فى الأمور الصناعية ضرورياوهو مع ذلك صادر عن فاعل مريد وهو الصانع وهؤلاء القوم غفلوا عما يدخل عليهم من هذا القول من نفى الحكمة عن الصانع أو دخول السبب الاتفاق فى الموجودات فان الأشياء التى تفعلها الارادة لا لمكان شىء من الأشياء أعنى لمكان غاية من الغايات فهى عبث ومنسوبة الى الاتفاق ولو علموا كما قلنا أنه يجب من جهة النظام الموجود فى أفعال الطبيعة أن تكون موجودة عن صانع عالم وإلا كان النظام بالاتفاق لما احتاجوا أن ينكروا أفعال الطبيعة فينكروا[1] جنداً من جنود الله التى سخرها الله تعالى لايجاد كثير من موجودات باذنه ولحفظها وذلك أن الله تبارك وتعالى أوجد موجودات بأسباب سخرها لها من خارج وهى الأجسام السماوية وبأسباب أوجدها فى ذرات تلك الموجودات وهى النفوس والقوى الطبيعية حتى انحفظ بذلك وجود الموجودات وتمت الحكمة فمن أظلم ممن أبطل الحكمة واقترى على الله الكذب فهذا مقدار ماعرض من التغيير فى هذه الشريعة فى هذا المعنى وفى غيره من المعانى التى بيناها قبل ونبينها فيما يأتى ان شاء الله تعالى فقد تبين من هذا أن الطرق الشرعية التى نصبها الله لعباده ليعرفوا منها ان العالم مخلوق له ومصنوع هى مايظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التى فيها وبخاصة

(١) ان آراء العلامة ابن رشد فى هذا المقام كنت اطلعت عليها بعد أن ألفت كتابى جواهر العلوم وميزان الجواهر فسرنى هذا القول الذى وافقنى فيما أكتبه وهاهو ذا كتابى نظام العالم والأمم على النمط الذى اختاره ابن رشد وهكذا كتابى الجواهر فى تفسير القرآن اه المؤلف

بالانسان وهى طريقة نسبتها فى الظهور إلى العقل نسبة الشمس فى الظهور الى الحس واما الطريق التى سلك بالجمهور تصور هذا المعنى فهو التمثيل بالشاهد وان كان ليس له مثال فى الشاهد اذ ليس يمكن للجمهور أن يتصوروا كنه ما ليس له مثال فى الشاهد فأخبر تعالى ان العالم وقع خلقه اياه فى زمان وان خلقه من شىء إذا كان لايعرف فى الشاهد مكون إلا بهذه الصفة فقال سبحانه مخبراً عن حالته قبل كون العالم وكان عرشه على الماء وقال تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) وقال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) إلى سائر الآيات التى فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى فيجب أن لايتأول شىء من هذا للجمهور ولا يتعرض لتنزيله على غير هذا التمثيل فانه من غير ذلك فقد أبطل الحكمة الشرعية فاما أن يقال لهم ان عقيدة الشرع فى العالم هى انه محدث وانه خلق من غير شىء وفى غير زمان فذلك شىء لايمكن أن يتصوره العلماء فضلا عن الجمهور فينبغى كما قلنا أن لايعدل فى الشرع عن التصور الذى وضعه للجمهور ولا يصرح لهم بغير ذلك فان هذا النوع من التمثيل فى خلق العالم هو الموجود فى القرآن وفى التوراة وفى سائر الكتب المنزلة ومن العجب الذى فى هذا المعنى أن التمثيل الذى جاء فى الشرع فى خلق العالم يطابق معنى الحدوث الذى فى الشاهد أطلق ولكن الشرع لم يصرح فيه بهذا اللفظ وذلك تنبيه منه للعلماء على ان حدوث العالم ليس هو مثل الحدوث الذى فى الشاهد .

وانما أطلق عليه لفظ الخلق ولفظ الفطور وهذه الألفاظ تصلح لتصور المعنيين أعنى لتصورا لحدوث الذى فى الشاهد وتصور الحدوث الذى أدى إليه البرهان عند العلماء فى الغائب فاذن استعمال لفظ الحدوث أو القدم بدعة فى الشرع وموقع فى شبهة عظيمة تفسد عقائد الجمهور و بخاصة الجدليين منهم ولذلك عرضت أشد حيرة تكون وأعظم شبهة للمتكلمين من أهل ملتنا أعنى الأشعرية وذلك انهم لما صرحوا ان الله مريد بارادة قديمة وهذا بدعة كما قلنا ووصفوا ان العالم محدث قيل لهم كيف يكون مراد حادث عن ارادة قديمة فقالوا ان الارادة القديمة تعلقت بايجاده فى وقت مخصوص وهو الوقت الذى وجد فيه فقيل لهم ان كانت نسبة الفاعل المريد إلى المحدث فى وقت

عدمه هي بعينها نسبته اليه في وقت ايجاده فالمحدث لم يكن وجوده في وقت وجوده أولى منه في غيره إذا لم يتعلق به في وقت الوجود فعل انتفى عنه في وقت العدم وان كانت مختلفة فهنالك ارادة حادثة ضرورة والاوجب أن يكون مفعول محدث عن فعل قديم فان مايلزم من ذلك في الفعل يلزم في الارادة وذلك انه يقال لهم اذا حضر الوقت وقت وجوده فوجد هل وجد بفعل قديم أو بفعل محدث فان قالوا بفعل قديم فقد جوزوا وجود المحدث بفعل قديم وان قالوا بفعل محدث لزمهم أن يكون هنالك ارادة محدثة فان قالوا الارادة هي نفس الفعل فقد قالوا محالا فان الإرادة هي سبب الفعل في المراد ولو كان المريد اذا أراد شيئا ما في وقت ما وجد ذلك الشيء عند حضور وقته من غير فعل منه بالارادة المتقدمة لكان ذلك الشيء موجودا من غير فاعل وأيضاً فقد يظن انه ان كان واجبا أن يكون عن الإرادة الحادثة مراد حادث فقد يجب أن يكون عن الإرادة القديمة مراد قديم والا كان مراد الإرادة القديمة والحادثة واحدا وذلك مستحيل فهذه الشبه كلها إنما أثارها في الاسلام أهل الكلام بتصريحهم في الشرع بما لم يأذن به الله فانه ليس في الشرع انه سبحانه وتعالى مريد بإرادة حادثة ولا قديمة فلا هم في هذه الاشياء اتبعوا ظواهر الشرع فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولا هم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولا هم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته في علوم اليقين ولذلك ليسوا من العلماء ولا من جمهور المؤمنين المصدقين وإنما هم من الذين في قلوبهم زيغ وفي قلوبهم مرض فانهم يقولون بالنطق الخارج أشياء يخالفها النطق الباطن منهم وسبب ذلك العصبية والمحبة وقد يكون الاعتياد لأمثال هذه الأقاويل سببا للانخلاع عن المعقولات كما نرى يعرض للذين مهروا بطريق الأشعرية وارتاضوا بها من الصبا فهؤلاء لا شك محجوبون بحجاب العادة والمنشأ فهذا الذي ذكرناه من أمر هذه المسألة كاف بحسب غرضنا) اه كلام ابن رشد فترى بهذا أنه قد أنحى على رداءة تعليم التوحيد وفصل ما يدرس الآن في الأزهر منه تفصيلا وأخذ يشرح العقائد واحدة واحدة وقال ان هذا غير ما شرحه القرآن وما طلبه الرسول واقتضاه الدين وأشار بتغيير هذه الطرائق بطرق أخرى تطابق كتاب الله الذي طلب النظر في العوالم ومعرفة

الحكمة وإلا فكل ما بيننا الآن إنما هى فضلات من حثالات اليونان القديمة المحشوة فى الكتب المنافية لشريعتنا ومن العجب انك ترى الكتب تحارب أعداء ماتوا ليس لهم وجود وما مثل هذه فى محاربتهم لليونان وجذالهم فى الكتب وذمهم على الألسنة إلا كمثل قوم من الخوارج الآن يحاربون معاوية واليزيد وغيرهما ويتركون كل ما أحاط بنا من كل جانب كأنه كتب علينا أن نذر مصالحنا وننذب ما مضى وليت شعرى هذه أوروبا وأمريكا أخذ أهلوهما بحظ وافر من العلم واهتدوا بهدى علمائهم وحكمائهم وهذه الأمة مضى لها قرون طويلة وأعمار وهى تنبذ الحكماء وتبغض المصلحين . هاهم نبذوا ما أشار به الغزالى وما فسره ابن رشد وما أنذر به ابن خلدون وكل أمة هذا شأنها حق عليها ما ذكرا الله عن اليهود (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا يقتلون) نادى ابن رشد بالاصلاح فطرده الأندلسيون فأزال الخرافات والضلالات من أنفس امتلأت من ترهات الأحبار والرهبان وأطلقها من أغلال الأوهام فرعت فى أرض جنة الحكمة وشربت سلسبيلها فانظر كيف تدلت الأنداس الى حضيض الجهالة فمزقت كل ممزق وتفرق أهلها أيدى سبا وكيف ثم كيف سارت أوروبا من يومئذ فى سبيل الرقى المادى والأدبى وكان ما كان من انتشار العلم والتعليم واكتشاف الأرض الجديدة كأمريكا والأقيانوسية كما يشهد بذلك كريستوف كولمب نفسه إذ قال انى علمت إن فى الأرض قسما آخر من تعليمات ابن رشد ثم تغلب الاسبانيون على المسلمين وأجلوهم وأوسعوهم قتلا وسبياً وأسراً أليس ذلك عبرة للباقين من الأمم الاسلامية أيظن قوم انهم علماء وهم لم يدرسوا ما سطرته يد القدرة فى أكناف البسيطة من سطور الحكمة وآثار العظمة ومن سمع قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) عرف ان العلماء هم الذين يعرفون علوم الطبيعيات من النبات والحيوان والانسان واختلاف الألوان إذ أعقبه بقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) هل ضل الرازى فى تفسيره واهتدى

البسطاء هاهو الرازى شرح عند كل آية ما يناسبها من الحكم المودعة فى الطبيعة وجمال الألوهية اللهم انا نضرع اليك أن ينظر عقلاء الأمة وحكماؤها فى مستقبل بلادهم وأمتهم . هل من العقل والحكمة أن ينبذ الرازى وابن خلدون وابن رشد والغزالى وأحزابهم ونصغى الى قوم أسفل منهم بدرجات باعترافهم أنفسهم وقولهم هؤلاء أرقى منا عقلا وأرفع شأنا وأعلى كعباً ونحن قوم ضعفاء فيالله ويالجهل والعار وياضيعة الاسلام والمسلمين وياحسرتا على هذه الأمة ذهبت ريحها

معاشر الاغنياء والعقلاء ها أنا ذاقصصت عليكم ما يخرجنى من التبعة والاثم والكتمان إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله فهل أنتم مستمعون وان عجزتم عن اصلاح الازهر وظل سائرا نابذا سنة الترقى فلماذا لاتنشؤون الكليات والا بقى التعليم منحطا أبد الآبدين ودهر الداهرين (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) وهاهى ذه كسف المدافع لم تبق ولم تذر فى أقطار البلاد وما هى الا نتيجة العقول المثقفة والآراء المهذبة والعلوم المدونة فما الماديات الا نتائج للعقليات فغلبة المدافع والبنادق ترجمان عن عقول منيرة وحكم صافية فاذا لم تستنر العقول بالحكم احترقت الاجسام بالكسف والقلل اذ العالم فى ترق مستمر فمن حاد عنه كان نصيبه الذهاب من الوجود وسنذكر فى المقال بعد هذا ناموس الترقى من القرآن ونقابله بأعمالنا الآن عبرة لمن اعتبر

الفصل الثانى والعشرون

فى المقالة السابعة الاصمعية

كليات الاسلام وناموس الترقى

هل درى أولئك الذين ينبذون معرفة ما فطره الله فى الكائنات وما سطره على صفحات الطبائع فى الارض والسماء أن الترقى سنة فى الحياة وأن القرآن هو أول مقرر

لمبادئه حاث عليو قد بينه على طرق شتى تاره بتعاقب الاديان وطوراً بالطبيعيات وآونة بالاقوال وكثيرا بالقصص وسنة الماضين

(١) الاديان : تعاقبت الأديان وناسب كل زمانه ومكانه فنسخ ما قبله فكأنها سلسلة يتبع بعضها بعضا وكان آخرها نزولا هذا الدين الذى سمح بالترقى لكل فرد وعمل وندد على من وقفوا على ما خطه رهبانهم وحرره أحبارهم وتحكمت به قسيسوهم وأفهم أن ذلك داع للانحطاط والتدلى والذهول عن الترقى فقال (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا) ثم قال يريدون ليطفؤا نور الله المنبعث الى العقول بفطرتها وبوحى آخر ما أنزل واطفاؤه بالافتراء من الأحبار والرهبان الداعى إلى انعكاس الرجاء والوقوف أمام ترقيها (والله متم نوره ولو كره الكافرون) فالترقى محتم على العالم ومن وقف أو رجع خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

الناس فى الدنيا مسافرون إلى الكمال متوجهون الى العلا كوكب سائر فى طريق فيه المدلهمات مشعلات والمخاوف محيطات من كل جانب فأى راكب توقف وسط الطريق عن المسير أو قفل راجعا تناوشته السباع وانتاشته الذئاب وهلك من الجوع والعرى وظمأ الهواجر ونار السعير ولكن الركبان مأمورون أن يسيروا مسوقون بقوة قاهرة وسلطة قوية مضروبون بيد من حديد مكسوة بألين من الحرير واذا كان الترقى هو سنة الله وهو الفطرة فمن خالفها فقد ضل وغوى وأهلك نفسه بوادى الخسران وهلاك الفرد أحرى من هلاك الجماعة ومن العيب أن تقف الجماعة لواحد أو ينبذوا مقرهم و يتبعوا هذا السكاسل

ولما لم يعلم الناس ذلك بعقولهم أنزلت الكتب السماوية لايقاظهم فلما غفلوا أرسل الصواعق النارية عليهم ليعظهم بالعمل بعد العظة بالقول (والله يؤتى ملكه من يشاء)

رأينا رقى الأمم حولنا ووقفنا نحن وتركنا مدارسنا الكليات فى أمهات مدن القطر و بقى القديم على قدمه و بيننا العقلاء والأذكياء فما لهم لا يقرؤن وما بالهم

لا يتكلمون وما للعامة لا يسألون أيخرج التلميذ من مدارس الأجانب بعد الخامسة عشر عارفاً أربع لغات مع نحو عشرة علوم ونحن فى تلك السن لا يعلم متعلمنا إلا كلمات لا يعقل معناها ثم يقضى حياته فى لغة لا يقدر أن يحرر بها خطابا هان على الأملس مالاقى الدبر . يقف التلميذ فى أول أمره على أقوال العلماء فى أوجه البسملة وإعرابها وكون الباء حرف جر زائد أو أصلى والنعت مقطوع أو غير مقطوع رموز لا يفهمها إلا بعد سنين فأين سنة الترقى

(٢) الطبيعيات . وتارة ترى ناموس الترقى فى الكتاب يضرب أمثال طبيعية مما يشاهده الناس من الماء والمعادن يعلوها عند نزول الأول وجريانه وسبك الثانى وغليانه زبد فاذا تمايزا ذهب الزبد جفاء و بقى الماء والحلى نافعا للناس هذا هو المثل المضروب فى الكتاب (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال)

(٣) القول . هل قوله (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الا نفثة من نفثات ناموس الترقى وهل حسن القول إلا بمعناه وهل هو إلا انتخاب الأحسن واختيار الأجمل فيتبع وها هو مشاهد محسوس أن البشرى تابعة لمن سلك مسلكا راجحا (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

(٤) وهل ذكر عاد وثمود وقصص نوح وغيره الا مذكرات لناموس الترقى وهل قوم نوح لما طغوا وبذوا ما وعظوا به فأغرقوا إلا عبرة للأمم ان يهلكوا كما هلك أولئك لما تتابع الانذار فيهم حينا بعد حين قرونا وعلم أنهم لن ينجعوا وليس فيهم قابلية ذهبوا من الوجود حتى قيل (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) وملخصه ألا يبقى إلا الأصلح للوجود وهو عينه ناموس الترقى

(٥) علم الله أن ستنام أعيننا وقلوبنا ونخبط خبط عشواء فنسخ آيات وأحاديث

بغيرها كما هو رأى كثير من العلماء كأنه يقول النسخ فى كل شىء على شريطة أن يكون الثانى أصلح وهنا أنا نسخت آيه بآية وحديثا بحديث فوجب عليكم أن تتبعونى وتنظروا ما يصلح من المنافع والعلوم فى كل زمان ومكان وما كان هذا إلا كمالا وشرفا

فياقوم هاهو ذاالقرآن وقصصه والأمم وأخبارها والطبائع والشرائع كلها داعية للتغير والنسخ ومناسبة الزمان والمكان فلماذا يادعاة الانسانية ورجال الأمة يبقى القديم فى الكليات على قدمه ولا تنظرون فى أمرها ولئن نسيتم من الأزهر إصلاحه وعجزتم وتركتموه هكذا فناشدتكم الله لماذا لا تنشئون الكليات لتعوضكم مافقدتموه ياقوم لم تضنون بالأموال وها نحن أولا نرى اليابانى يجود بروحه [1] لسد مدخل بو ر ارثروالانجليزى بالانفاق على مدرسة غوردون فى السودان والروسى يخرج من ماله لوطنه ومالنا والأمم القاصية هاهم أولا إخواننا القبط بين ظهرانينا نحو نصف مليون وهم نصف عشرنا كيف يجمعون فى جلسة واحدة لمدرسة صنائعهم أربعين ألفاً من الأصفر الرنان وهل أصبحنا أقل أهل الأرض قاطبة نبذنا الأقربون والأبعدون حولوا نظركم عن المشرق والمغرب وولوها شطر أسلافكم الماضين وآبائكم الأقدمين ماذا فعلوا جادوا بالمال والرجال فبقى ذكرهم و إن غابت أشخاصهم خرج أبو بكر يوماً من ماله كله وعمر من نصفه فوقفا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالا هذا القول فقال عليه الصلاة والسلام « بينكما فى الفضل ما بين كلمتيكما » فبماذا تجيبون وعلى ماذا تقدمون . لقد رأيت سلطانا من سلاطين الاسلام فى جزائر المحيط قد أخرج من ديار ه وأمواله وأولاده و بساتينه لا يملك شروى نقير أخرجه الفرنساويون فماذا أفادت هذه الأموال يا قوم أين لم تنفقوا طوعا وتنشئوا الكليات لحفظ جامعتكم لبث الصنائع والعلوم الافرنجية ليذهبن مابقى من آثار مجدنا ولا تظنوا ان الاحتلال شىء مذكور فى جانب احتلال الصناعة وانتشار مدارس الأجانب وتقدم تجاراتهم ولئن تركنا الأمور على هذا لتفلتن دور وتذهب أموال وثروات ولاتغرنكم اللذات . (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم

(١) بعد هذا النداء فى الجرائد أنشئت الجامعة والكليات بعد الطبعة الأولى بسنين المؤلف

وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره)

الفصل الثالث والعشرون

فى المقالة الثامنة الاصمعية

الواقفون والعلماء

الناس فى الدنيا درجات بعضها فوق بعض فمن كان علمه أدوم نفعا وأتقن صنعاً وأرقى للمدنية كان أقرب زلفى لله وأكثر ثناء من الناس فبقدر ماتدوم المنافع والثمرات تبقى الذكرى والشكران ويتجدد الأجر والثواب والأعمال هى الميزان المعنوى تقاس بها فضائل العمال وهذه هى المضاعفة (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) أعلى الانفاق نشر الحكمة بين الناس وأرفع الناشرين لها مقاما الأنبياء فعلى قدر أممهم والتابعين لهم تكون منزلتهم فى القرب من ربهم وارتفاع شأنهم فى الدنيا والآخرة يليهم الحكماء فالعلماء ومعيارهم فى التفضيل ظهور الثمرات فى تابعيهم كثرة وقلة وبالجملة ففضل الرجل على مقدار ظهور أمره فى الناس كفضل الشمس على القمر والقمر على السيارات فكما ان مقادير تلك الكواكب متفاوتة بتفاوت أضوائها فهكذا العلماء يتفاوتون بتفاوت هداياتهم فى الأمم ولذلك يفضل النبى الحكيم والحكيم العالم والعالم العابد قال عليه الصلاة والسلام (فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أمتى) ثم التفاوت بين الملوك يجرى على هذه النسبة فمن أراد المقايسة بين عالم وملك فلينظر لمقدار أثرهما فى اصلاح العالم فمهما كان الملك أكثر تأثيراً فى سياسة الأمة من العالم فهو أفضل منه بتلك النسبة ومهما كان العالم أكثر هداية فى الحال والاستقبال فهو أرقى من الملك بنسبة ذلك من الملك وبالجملة فالأعمال زرع والمنافع العامة فى الأمة

ثمراتها والعمال زارعون وعلى هذه القاعدة يجرى الواقفون والمصلحون فمن وقف لأرباب التكايا والمساجد والكتاتيب الصغيرة والأضرحة فلتقس نتائج أفعاله بهؤلاء ومن غزر علمه وعقله وفهم حكمة الله فى خلقه علم ان ثمرة العلماء أرقى فان العالم يهتدى بعلمه خلق كثير ويتسلسل الأمر فيكونون كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة فالواحد على الأقل يهدى سبعة والسبعة قد يهدى كل واحد مائة وكل واحد من المائة قد يهدى آلافا وتزكو الأمة ويتضاعف عدد الهداة والمهديين وتعم الحضارة والعمران وترتقى الأمة فهذه نسب درجاتهم عند ربهم يوم القيامة (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) فالمضاعفة قد رأيتها والأجر العظيم يكون على وفقها (جزاء وفاقاً) وقال الغزالى (الأفضل أن يكون المتصدق عليه من أهل العلم خاصة فان ذلك اعانة له على العلم) والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النيات وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له لو عممت فقال انى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فاذا اشتغل أحدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقدر على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل ومن أراد أن يظهر له ذلك رأى العيان فليتأمل الأمم الراقية كيف يبذل الأغنياء أموالهم فى سبيل المنافع العامة وكيف أثمرت ذكر احسانهم فى الدنيا ورقى أممهم فيها والجزاء للمؤمن يكون على هذه النسبة فوا أسفاً على أغنياء الاسلام نبذوا المرشدين فضلوا فى طريق الانفاق والوقف فترى همهم على قدر عقولهم وتعليمهم فأغلب الأوقاف للأمور القاصر نفعها ولعمرى ان بين العالم والعابد كما بين النبى وأدنى رجل فهكذا فلتكن النسبة بين الواقف للأول والواقف للثانى هذه أموال المسلمين تنهال جزافا على التكايا فما الذى أفاد المسلمين منها إلا ضحك الافرنج على أمور تنكى وتبكى وتؤلم العقلاء

من ذا الذى كان يظن أن تصل هذه الجامعة لدرجة تحت الصفر يعلوها ثلج ركام فيموت علماؤها ويحيى جهالها حتى دك شامخ مجدها وباذخ سعدها

ياقوم رعاكم الله هل أصبحنا أقل الأمم ادراكا وفهما هل فقدنا رشدنا حتى احتجنا

لقيم علينا أيدرك الماء اليونان والطليان والانكليز والألمان والفرنساويون والأمريكان واليابان والهنود فيتبرعون بالمال للكليات ونبقى نحن فى حضيض الجهل . مات رجل ألمانى وترك سبعة ملايين جنيه فأوقفت ابنته نصف هذا المبلغ لعلوم الطبيعة التى يظن المسلم أنها تنافى دينه الآن . هذا القول فهل من سميع هذا الارشاد فهل من مجيب

قام سسل رودس الانكليزى فأوقف ماله كله على المنافع العامة لا لأمته خاصة بل لها وللأمم كلها وللسلام العام

انفقوا ياقوم أموالكم الآن وأحيوا كليات القطر فى الأزهر والمساجد لتحملوهم على قراءة العلوم كلها وان أبى العلماء ووقفوا فى مدار واحد وعلى نمط مخصوص فدعوهم وشأنهم وأوقفوا لمدارس كليات بشروط تناسب الزمان والمكان ألا فلتنفقوا فقد سبقكم الأمم . أنفقوا أوقفوا قبل أن تذهب ريحكم وتزول البقية الباقية من الأمة فقد غلبتم على الزراعة والصناعة والتجارة (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقكم الله من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) ان لم تتحدوا على الكليات وتعميم التعليم الآن فما تمضى سنون قلائل إلا و يقفل باب الاصلاح و ينادى من قبل السماء فيقال (أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين) . (الصيف ضيعت اللبن) . (سبق السيف العذل) ياقوم أيجمل أن يتخطى الانجليز جزائرهم التى هى فى بحر الظلمات بعيداً عن المعمورة تكتنفها الأمواج فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ووراءها لجج لا آخر لها ولا منتهى إلا فى الشرق تسعى لانشاء مدرسة غوردون فى البلاد السودانية وتدفع مائة ألف جنيه ونحن نأبى أن نصرف مثل هذا المبلغ على أبنائنا فتباً لقوم لايفهمون وتعساً لنا إذا تمادينا فى الضلال . هذه ثمرات الأعمال ظهرت فى الأمم حولكم مصداقا لكتابكم فياقوم لم قصرت همم الواقفين ولأى شىء قصرت إرادتهم على الأمور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة . هل كتب علينا الشقاء فمن ذا الذى يضع الحجر الثانى بعد الأول الذى وضعه (المحسن الكبير الذى علمنا انه سعى فى انشاء كلية) ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا و يفقه الحكمة العامة

فى الأمم ورقيها فيضع الحجر الثانى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون) وليس الصالح هو ذاك المنتكس على الرأس فى أعماله وأقواله فى التكايا كلا ثم كلا انما الصالح هو ذاك الذى يصلح لعمارة الأرض ويعرف حكمة ربه فيضعها فى موضعها . الانتكاس فى الفهم جر الى نوم الغفلة والجهالة حتى انك لترى الأوقاف القديمة كلها راجعة إلى أمور قاصرة على ثمرات طفيفة فكانت النتيجة مانحن فيه الآن . فهل لنا من رجل يقول هاأنا ليشجع غيره ويبنوا الكليات ويعمموا العلم (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ان الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما)

الفصل الرابع والعشرون

فى المقالة التاسعة الأصمعية

خطاب لوجهاء الأمة

أدعو بقولى الآن وجوه الأمة وعقلاءها وأغنياءها دعوة مخلص فى قوله ناظر لمستقبل أمته كيف وجهتم التفاتكم إلى شؤون الحياة صغيرها وكبيرها وعظيمها وحقيرها وقديمها وحديثها حتى شملت العناية المراحيض وبيوت الخلاء وتركتم كليتكم العظمى وهى الجامع الأزهر تندب حظها وتشكو زمانها وتنادى بالويل والثبور مدوا أيديكم رعاكم الله إلى اصلاحها فان أبى القائمون بها وغلبوكم على أمركم فما لكم لاتسعون فى انشاء كلية اسلامية تكون ملجأ لبنى العظماء يتعلمون فيها ويتخرجون وقد درسوا أنواع العلوم يا قوم مالى أرى الحركة بطيئة والنوم طويلا والنفوس فى حجاب والعقول فى غفلة وهل أتاكم نبأ اليابان وقد قامت من غفلتها فى سنين معدودة وهل يسبقنا الهنديون ونحن لا نبدى ولا نعيد اللهم إنا نضرع اليك أن تهدى سراتنا وأغنياءنا سواء السبيل من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط

ألا نفوس أبيات لها همم ألا كريم على الخيرات معوان

هل من عظيم من العظماء يقوم فيمد يده بما يدونه له التاريخ فى الاصلاح ومستقبل الزمن فيقتدى به الباقون والأمل عظيم فى الأسرة الخديوية وعباسها العظيم وكم من سامع هذ القول يناجى نفسه ومن أنا حتى أجدد مجدا عفا وريحا ذهبت فينام نومة لا قيامة بعدها

ولو درى ذلك ما تومئ اليه قطرتان فى السحاب تناجتا بلسان يفهمه العلماء المتبصرون ويجهله المقلدون الغافلون

قالت إحداهما للأخرى (وقد رأت زراعا فى حقله واضعا رأسه على كفه نادما حزينا كئيبا) انى أرثى لهذا الفلاح ولقد احترق فؤادى وانضنى جسمى حتى أحسبنى استمت دمعة باك بعد قطر ساق فقالت الثانية ما أنت أيتها المسكينة ومثلك لا يملك للرجل نفعا ولا ضرا ولو قطرت من السماء ونزلت لم تغن عودا من القمح فضلا عن الحقل كله وما هى إلا لحظة تبقين فيها على ورقة ثم تنشفك الرياح أطرق كرى ان النعام فى القرى

فقالت الأولى ان الوجود خير من العدم ووجودى فى الحقل ينعش فؤاد صاحبه فقهقهت الثانية ضحكا وقالت ما أقبح الحزن بعد الفرح والبكاء بعد الضحك فقالت الأولى ان لى فى ذلك ثلاث خصال الأولى ان أدخل السرور على قلب صاحب الحقل الثانية أن أؤدى ما على من الخدمة الصادقة وأظهر ما كمن فى من الفضل الثالثة أن تقتدى القطرات الأخرى و بها يسقى الحقل و يتم الأمر وما كادت تتم قولها حتى سقطت على ساق من نبات القمح فتبعتها الثانية وغيرها وهلم جرا فروى الحقل ونما القمح وما مثل القطرتين المتناظرتين إلا كرجلين أحدهما يطلب الاصلاح والآخر ييأس منه وهذه فى الحقيقة طريقة الأنبياء والحكماء ألم تر كيف يقول الله لرسوله (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) على إنه لا يأس من روح الله فقد دلت الحوادث على ان من سعى فى أمر باخلاص نال كله أو بعضه وهذا

سر التوكل على الله وهو الاعتماد على النفس فى العمل مع توجيه الهمة لمدبر العالم كله وبه يصرح (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) والمراد بالايمان إيقان النفس بأن ما تعمل حق وعسى أن نسمع مجيباً لندائنا يرفع صوته لتحى لأمة ليحى الوطن لترتق الصناعة والزراعة والتجارة

من ذا الذى يضع الحجر الثانى فى بناء هيكل مستقبل الاسلام فأما الحجر الأول فقد وضعه المحسن الكبير وإنى أحذركم ذهاب الأمر من أيدينا فى كافة شئون الحياة أو نذل إلى الأبد

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

فإن سمعتم النداء فهذه الحياة الطيبة وإلا فالذل أولا والدمار آخرا (قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

الفصل الخامس والعشرون

فى المقالة العاشرة الأصمعية

العالم مدرسة كبرى والله سيدها والناس الطالبون

انتبذت من القاهرة مكاناً قصياً يوماً مع أخ من أصدقائى وتنزهنا فى فلاة ذات أشجار وأنهار ومزارع وحقول وقد ضربت السماء علينا قبة زرقاء تحجبها أخرى من السحاب الملون بالسواد فى موضع والبياض فى آخر والنسيم يلعب بالأغصان وهو عليل فأخذنا نحوب أطراف الغيضة ونتمشى فى جوانبها وقد خلا لنا فسيح الجو وعرفنا نعمة سكون الضوضاء والجلبة خارج القاهرة وتذكرنا حال الجنة وإنها لا لغو فيها ولا تأثيم لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما فاهتاجت نفوسنا لمحاسن جمال الطبيعة وتأملنا فيما حولنا اذ بجماعات من النحل وأخرى من النمل وغيرها من الطيور فصفا الفكر الى تذكر

ما عرفنا وما كاد قلبي يذكر إلا وقد فاجأني صاحبي بقوله نحن عرفنا في المدرسة اتقان هذه الحيوانات في غدوها ورواحها ومستقرها ومستودعها واني لأذكر ما قرأته آنفاً عن النمل وأنها تهندس مساكنها بأعمدة منتظمة وترضع أولادها وتغسلها لتنظفها وتأخذ الاسرى تحت سيطرتها وتقتني حشرات كالأنعام عندنا لتمتص لبنها بخراطيمها وتزرع الأرز بهندسة عجيبة في حقولها وهكذا النحل يشاهد بعضه اسفاط (مقاطف) على مؤخر أرجله ليضع فيها مادة الشمع ويخبز منها لأولاده وغير ذلك وإني اشعر بلذة عند تذكر هذه المعلومات ويا ليت شعري ما فائدة هذه اللذة وهل دراستها ترقى المدنية أم هي من المسليات للانسان كآلات الملاهي فقلت إن الشيء كلما كان نفعه أعظم كانت اللذة به أكبر فبمقدار اللذة به يكون نفعه وهذه السماء ذات نجوم بأقدار متباينة وأحجام وأضواء وحساب مختلفات يتكون منها علم الفلك وهذا العالم الطبيعي ذو صنائع متقنة مما ذكرت وما لم تذكر كل هذه من علويات وسفليات تذكرة للناس وميزان لهم فأي أمة أخذت حظها من العلوم واقتدت بملك الملوك في معرفة مخلوقاته كانوا هم خلفاءه في الأرض وسيطروا على الأمم وكل قوم ضلوا فهم هذه وفرحوا بما عندهم من العلم حاق بهم ما كانوا يستهزئون قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه)

فما العالم إلا مدرسة وما الناس إلا متعلمون والله بيده الميزان يرفع ويخفض فمن رآهم تأملوا صنعته وقلدوها في الأحكام والاتقان وسابقوا كل حيوان في عمله والفلك في حسابه فازوا بالسبق في الدنيا ومن نكصوا على أعقابهم عوقبوا بالحرمان والخذلان (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب)

ولعمري كيف تكون الأمة خليفة في الأرض إذا لم يقم كل جماعة منها بصناعة أو علم كما ان كل أمة من الحيوان اختصت بصناعة أو علم وكيف يمكن التوغل في ذلك لا بالمدارس الكلية الكبرى وهل يمكن في بلادنا إلا ببذل المال من ذوي الثروة الواسعة وقد أصبحت بلادنا مزدحم الأمم جميعا في التجارة والصناعة والزراعة وتلك

لعمرك يتضاءل فى جانبها المزاحمة الإدارية فاذا لم يقم الوطنيون بمدارس كلية فلا بد من تغلب العناصر الأجنبية على الثروة وينقرض العنصر الوطنى على تمادى الزمان كالأمريكان الأصليين واليه الإشارة بقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) وقد خربت كثير من بلاد الاسلام وغيرها قديماً وحديثاً كاسبانيا وأهل أمريكا الأصليين (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجون)

دعوة عامة للناشئين الى جمالى العالم والعلوم

أيها الناشئون هلموا الى كمال النفس الناطقة بالعلوم والعرفان وزينوها بالنظر والفكر وحلوها بعقود راق منظرها وحسن نظمها من مناظر الافلاك البديعة والطبائع المتقنة وعجائبها البهجة وغرائبها المدهشة قف فى الفضاء والليل ساكن الحركات هادىء الانفاس وحدق بصرك الى قبة تراها أينما حللت أو ارتحلت مرصعة بالدرارى اللامعة المشرقة فى جوانبها كأنها سمرت فيها رقشها مبدعها بما لا يصل اليه أمكان الانسان فى كل زمان ولو أن صانعا سقف منزله بقبة مزرقة اللون وزينها بالمصابيح الجميلة وراعى بينها مسافات بالنسب الهندسية والابعاد الحكمية التى بين الكواكب فى ما يوازيها من قبة السماء ثم وضع هذا أملس خاليا من الفطور بريئا من الشقوق ناهجا نهج ملك الملوك لكان سقفه أعجوبة الاعاجيب وخلابة الفطن اللبيب ولو خطر هذا الخاطر لأحد المهندسين لهرعت اليه الناس أفواجا من كل حدب ينسلون ولتنافسوا فى سقوفه

ولو تأملت النجوم لرأيت أشكالا هندسية ما بين مثلث ومربع ودائرة وخط مستقيم وآخر منكسر وأخرى حيوانية فهذا كأسد وهذا عقرب وهذا حمل الخ .. ونراها ما بين أحمر وأبيض وصغير وكبير وان عددتها تجدها ثلاثة آلاف بالعين العادية

وان أخذت صورتها (بالآلة المصورة) الفتوغرافية بلغت مائة مليون[1] وهناك ما أعجز الناس بابصارهم وآلاتهم واختراعهم عن معرفته مصداقا لقوله تعالى (ويخلق مالا تعلمون والله واسع عليم) فاذا راقك هذا المنظر ترى النفس قد أشرقت وابتهجت وفرحت بما لاحظت من جمال هى به أخرى وتقرأ فى سطور تلك النجوم كلمات العبر وآيات الحكم تعبر عن صانع قادر وحكيم عظيم وتدخل اذ ذاك فى عداد من ذكر الله بقوله (أن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا)

فاذا شاقتك نفسك إلى مرتبة العلماء والسادة الحكماء ولم تتمتع بأول مراتب الجمال ولم تستطع صبرا على مبدأ الكمال فعرج على علم الفلك وشاهد ذلك الجمال بالبصيرة بعد البصر وادخل جنة العلوم والعرفان فى هذه الدنيا تقدك إلى الجنة الأخرى (جنة عرضها السموات والارض) فانظر نتيجة التقويم واقرأ ما سطره علماء حسابها من تلك الرقوم الدالة على سير الشمس والقمر والكواكب سنة فسنة فاعلم أن منظرها الجميل وراءه ما هو أجمل منه وأبهى وأن الظاهر عنوان الباطن فكما جمل منظرها بالعيون حارت فى حسابها الدقيق العقول وترى نظاما متقنا غفل عنه الجاهلون ووصل اليه العارفون فان رغبت مع هذا أن تعرف براهينها وابعادها ونسب بعضها إلى بعض فهناك البهاء وتخرج من زمرة من عيرهم الله بقوله (ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وتدخل فى عداد من مدحهم وأثنى عليهم فقال (شهد الله انه لا إله إلى هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)

العالم السفلى

وليس العالم السفلى كما يراه العامة مبعثراً مشوش التركيب بل هو محكم منظم عجيب وإذا اتبعت مارسمناه فى هذا الكتاب وقرأت ما سطرناه فى كتابنا (العقد

(١) كان هذا المقال فى هذا الكتاب منذ نحو ٢٥ سنة ولكن الان عرفوا أن النجوم التى تمكن معرفتها تبلغ ٢ مليون مليون مليون مليون انظره فى كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن المؤلف

الثمين فى آراء العرب ومذهب (دروين) الذى مضى فى هـذا الـكتاب لعجبت كيف اتسق خلق الجماد والمعدن والنبات والحيوان والانسان وصارت هذه كلها سلسلة واحدة أخذ بعضها بحجز بعض فترى الجماد تتلوه المعادن من قصدير ورصاص ونحاس وحديد وفضة وذهب يرتقى عنها النبات أصغر فصغيراً فكبيراً فأكبر حتى تصل النخل ثم الصلة التى بينه وبين الحيوان وتدخل فى عالم منظم من هوام فى البحر والبر فحشرات فحيوان بحرى فطيور فجوارح فبهائم فأنعام فوحوش فسباع وهكذا حتى يصل إلى الانسان نازل الترييه فآخر فاصل حتى يصل الى الأنبياء فالملائكة الـكرام وأريد أن تلاحظ جمال العالم ملاحظة دقيقة وتقف على ما سطره علماء الافرنج وتلاحظ الترتيب العجيب وتقرأ قوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) ومن ذا الذى يعد نفسه فى مصاف العلماء وهو لم يشهد الابداع ببصيرته وكيف يظن أنه من أولى العلم مالم ير هذا الترتيب العجيب والخلق الجميل الذى يعرب إبداعه عن القسط والعدل ولعمرى من ذا يدعى أن بينه وبين رب العزة فى العطف مرتبة واحدة فى قوله (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائـكة واولوا العلم قائما بالقسط) وهو لم يشهد بنفسه قيام الله بالقسط والعدل فى إبداعه ولم يلاحظ هذا الاتقان البديع و ياسبحان الله كأن مبدع الـكون ألهم النوع البشرى من آدم فمن دونه أن يبحث أولهم وآخرهم عن ترتيب الـكائنات كأنه نقش على ألواح بصائرهم وكتب فى مكنون نفوسهم إن ربكم حكيم فى صنعه مبدع فى نقشه فترى العرب وضعوا له الجدول الدال على أبعاد الـكواكب الذى رأيته فى العلويات ولاحظوا السعود والنحوس والافرنج وضعوا آخر وحسبوه من واحد الى مائة فيها وهكذا ترتيب الـكائنات العضوية والعنصرية سائر بنسق واحد كنسق الـكواكب وهو عند العرب أمر شائع فى كتبهم أما الافرنج فلم يوقظهم له إلا (دروين) مع ما فى سيره من النتائج المخالفة واعلم أنك إذا لاحظت هذا العالم السفلى ونقشه وإبداعه وصوره وأشكاله وعجائبه وغرائبه من النبات والحيوان ولاحظت ما خط على جلودها وصورها دخلت فى عداد من أثنى

عليهم الله فقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء) فانظر كيف خص خشية الله بمن عرف هذه العلوم بدليل ذكرهم بعد هذه العجائب وأعلم أن هذا الفكر كان شائعاً فى الأعصر الأول زمن دولة العباسيين وفى قرون أخرى قليلة ولما انقطع سند كثير من العلوم ظن الناس أن الفقه والآلات كافية فى هذا الوصف مع أن أدنى التفاتة إلى تاريخ أسلافنا رحمهم الله تعالى وإلى معنى هذه الآية وغيرها يريك أن خشية الله مختصة بمن عرف هذه العلوم التى رسمناها لك فى كتبنا وأمثالها من عجائب صنعه عز وجل وهذه المرتبة لا تنال إلا بعد العمل بالشريعة والتخلق بها بقدر الامكان ومقدمته الفقه فلما ضعفت مدنيتنا وقفنا فى مبدأ الطريق هذا وكيف تخشى النفوس الانسانيه من لا تعرف إبداعه ولا أعماله ولا آثاره . الرقى فى الحياة الدنيا مداره على هذه العلوم وكيف ترتقى أمة وهى تجهل ما حولها وما يحيط بها ولقد أنذر الله أمة هذا شأنها وهددها وأوعدها فقال (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) فياحسرة على بلاد الاسلام وشبان الشرق وأبناء العرب جاء القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم ينادى فى آلاف من الآيات بالعلوم الطبيعية والفلكية والنظر فى الأمم وفى كل شيء وأوعدهم وهددهم فجاء من صدهم عنها من ذوى القصور فأصبحوا وقد صدق عليهم (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) اللهم إنى دعوتهم بما أودعته فيما كتبت إجابة لدعوتك وحباً فيك ورغبة إليك وشوقاً لذاتك وأنذرت وحذرت معذرة اليك وان عسى أن يعلموا فضل الأمم الراقية فى الحياة الدنيا ونكون فى الآخرة مع الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله

الفصل السادس والعشرون

فى المقالة الاولى الملقبة بالرازية

هذه العلوم فأين الرقى

تساءل الاصحاب فيما بينهم آسفين حزنا وأنا بينهم صامت لأسمع ما يقولون قالوا ياويلتنا مالنا لا نرى رجالا نعدهم من الأخيار إلا نزرا ولاحكماء نابغين ولا مرشدين ولا مصلحين إلا ركزا . بلادنا والحمد لله غنية . مصر محط رجال الشرق والغرب فينا جم غفير ادمغتهم ملأى باللغات العربية والفرنسوية والانجليزية والالمانية من مقتصد وسابق وأيديهم ملآى بالكتب وشوارعهم بالمدارس يتناولون الفنون أنواعا و يزاولون الصناعات تباعاً

هل نالنا ما نال القدماء من يونان ورومان ومصريين من اختصاص طائفة بشرف التعليم ! أم انقضت علينا صاعقة محكمة التفتيش تنقب على القلوب الواعية والانفس الراقية (كما كانت)فى أوربا حكمة حار فيها الفطن . خلت المثلات وتعاقبت النذر واعتاص الجواب فهل من مجيب

قال قائل . حوادث الايام وصروف الدهر وكوارث الزمان وأرزاء الهون والهوان واستبداد الملوك السالفين وظلم الظالمين من صناجقة المماليك البرية والبحرية من التركمان وتأله الفاطميين وغيرهم من الفاتحين المستبدين . فقال الآخر لكل من الامم نصيب وافر من الظلم وهذه أوروبا خلقوا عبيدا للأشراف غنما لهم طعمة هنيئة بلا ثمن ومع ذلك لم يعقهم عن الاشراف على المدنية والرقى فيها ولم نسمع قط أن أحدا من آبائنا الأولين سيم خسف الاستعباد ولا ضرب عليهم الرق ولا بيع مع الارض والماشية كما بيع الافرنسى والسكسونى والجرمانى وغيرهم ثم التفت إلى وقال ماذا ترى ؟ فقلت لاتعليم اليوم ولو صح ماعاقتنا شبا الطياة ولا زحزحتنا قلل المدافع وما مثل العلوم فى الامم إلا كمثل النار تتقد فاذا غشيها الوقود زاد لهيبها والتهب سعيرها وتطاير شررها

وأرعد زفيرها فتشخص لها الابصار وتحدق بها الانظار

أو مثله كمثل الماء يسيل فيجول فى كل واد إذ لا يصده سد العرم ولا الحجر الصلد ولا التراب ولا الطين وكل شيء

نعم عندنا تعليم مبدؤه جثمانى . أسه الالفاظ بناؤه الاعراب سقفه التفيهق والثرثرة زخرفه النكت الادبية غايته خبز سميذ وعجل حنيذ وشرب النبيذ وثوب من باريز

فويل لأمة كانت علومهم قشورا ودارهم بورا وآمرهم مأمورا . وبعبارة أجلى وأوضح . للعلم غايتان عليا وسفلى جسمية وعقلية كما أن للانسان جزءين جسما وروحا يحمل الاول الثانى ويسيطر الثانى على الاول فهكذا العلم له غايتان تحمل الاولى الثانية وتسيطر الثانية على الاولى

فاذا أردت بالعلم اكمال عقلك وشغل فؤادك بما جمل وحلا فلا ريب تنال بالاولى ما يقيم جسمك فاما أن أردت حظ الجسم نابذا حظ العقل والفهم نبذ النواه فلن تصل اليه أمد الدهر (وأن ليس للانسان الا ماسعى . من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب)

وسأتلو على مسامعك قصصا يوضح المقام ويزيل الابهام فيما سترى ان شاء الله تعالى

الفصل السابع والعشرون

فى المقالة الثانية الرازية

هل لك أن تستوضح ما قررته لك أمس من أن الامم اذا كانت وجهة علومها جثمانية محضة ـ زالت الصلة بينها وبين مبدعها وتدهورت فى مهاوى الخسران وباءت بالنكال ولأقص لك قصصا يوضح ما انبهم ويحل ما استعقد

كان فى الامم الغابرة عالم يسمى بلعام نبغ بين اخدانه فاستظهر العلوم العقلية

والنقلية وصار يشار اليه باطراف البنان وسارت بذكره الركبان وإذا دعا ربه أجاب

وكان النبي موسى عليه الصلاة والسلام مرسلا إذ ذاك فسار في جيش من بني اسرائيل إلى أرض بلعام فأجمع القوم أمرهم أن يستظهروا ببلعام فأبى لعلمه أن النبي من عند الله فاحتالوا على زوجته بالمال فغووها فأضلته فاتبع هواهم فانقلب علمه جهلا فأتبعه الشيطان فأخذ يفكر في الحيل والدهاء والمكر وأساليب الخبث السياسي فانسلخ من الكمال فكان من الغاوين . والخلاصة أنه حول العلم الذي ضاء به قلبه إلى دهاء ومكر لينال به أشباع بطنه وسد عوز شهواته فكان من الخاسرين وكان قبل ذلك مجاب الدعوة فأقفل بابه بعدها وحرم بهجة العلم ورونقه وأنذر بالحرمان والطرد وذلك مثال لكل عالم في الارض لا يريد بالعلم إلا أن يكون آلة

والمثل الأوضح أنك إذا أحضرت كلباً لدى ملك عظيم وألبسته بزة نضرة وتاجا مرصعاً وأجلسته في تخت الوزراء وأوقفت الجند حرساً والأشراف خدما والحكام حشما ثم رأي عظما معروقا أو لحما متروكا على سدة باب جرى مسرعا إليها شرهاتاركا ما كان معظماً حامله موقراً لابسه مجملا ناثله

فهذا هو حال الكلب إن حملت عليه بالعصا لهث فأخرج لسانه مندلعا وإن تركته لم يزل على حاله جشعا لا يعرف المشقة من الراحة ولا الجحيم من النعيم

بل ذلك مثل كل متعلم نال أمنيته من العلم ثم سولت له نفسه أن ذلك لشهوة النفوس فحسب وصد النفس عن جنتها ونعيمها من الارتواء من أنهاره وورود حياضه وسلسبيله وأشجاره واقتطاف أزهاره وجنى ثماره ذلك هو العائق عن الوصول الى المدنية كما وصلت الأمم المحيطة بنا من كل جانب فاذا شئت أن تقرأ هذه المعاني والقصص ونتائجه في القرآن فاقرأ قوله تعالى في سورة الأعراف

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) إشارة إلى بلعام وكل من تعلم علما ماحتى الجغرافيا والأشياء (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) إشارة الى اتخاذ العلم آلة فحسب مع نبذ رقي النفس والعقل به ثم أوضحه فقال (ولو شئنا لرفعناه

بها ولـكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) ثم أوضحه بمثل الـكلب فقال فمثله كمثل الـكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) وأبان أن تلك المثلات إنما هي غواش من الحجب النورية أو سرادقات من العلم تضم فيها أسراراً من الحـكمة فلم يدعها عند حد التمثيل بل صرح وأوضح فقال (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وجهلوا نفوسهم وغرتهم الأماني فباؤا بغضب الـكسل على غضب الجهل . ثم أبان أن الغرض من القصص آثارها ومن المثلات علومها وفهمها ومن النار نورها ومن القصص مغزاها ومقصودها وأن الجامدين على أحاديثها والمنكبين على إعرابها و بيانها والغافلين عنها ساء مثلهم فتسربت إليهم التعاسة والشقاء فقال (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) ثم أخذ يشرح صفات رجال الأمم المنحطة وعقلائها وذوى النفوذ فيها وأنهم يقنعون بجسوم العلوم دون أرواحها أو المباني دون المعاني أو يسمعون القصص فيتخذونها سلوة وإذا رأوا حكمة ردوها للشهوات فقلوبهم غلف وآذانهم صم وأعينهم في غطاء فقال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)

ميزان و برهان

اذا شئت أن تسبر أمتك بهذا المسبار فانظر خواصها فان ألفيتهم متكالبين على الرسوم لذاتها والوظائف رابضين قانعين بما أوتوا من الرزق متكالبين عليه وشغلوا القوة العاقلة بهذا وحده فبشرها بالحياة الحيوانية والاستعباد الأدبي و بضدها تتميز الأشياء

كيف السبيل

انما السبيل لذلك أن تؤلف الرسائل المشوقة للعلم الحاثة عليه كالأحاديث المحببة فيه حتى يرغب لذاته كقوله عليه الصلاة والسلام (أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب

العلم رضاء بما يطلب) وقوله عليه الصلاة والسلام (من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا الى الجنة) اهـ

الفصل الثامن والعشرون

فى حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى

يا قوم ألم يأن لنا أن ننظر فيما حولنا من الكائنات (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) ياقوم نرى كل يوم خبراً جديداً سارا بانشاء مدرسة كذا وتبرع بكذا ووقف فلان مائة فدان على المدارس وثلاثمائة وهكذا ثم نبحث فلا نجد الا أموراً تافهة لاترضى أى دولة فى المدنية عجباً وألف عجب قامت النهضة فى بلادنا وظهر لأغنيائها أن الفضل والفخر فى البذل وانتشار الصيت ولكن قصرت تبرعاتهم على الأمور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة

عار على أمة يبلغ أهلها نحو عشرة الملايين ولا يكون فيهم مدرسة جامعة للعلوم مازجة لمصالح الدين والدنيا مدخلة فى غضون ذلك ان هذه العلوم لآبائنا الأولين حاث عليها القرآن الشريف بكثير من الآيات وكذا الأحاديث ونذكر أيضاً تلك الآيات ولا نقتصر على نحو (ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) فالقرآن مملوء بذلك بل أكثره فيه

أليس من المحزن أن يظهر فينا محسن كبير ومحسن صغير وسيظهر (أظن) محسنون على تمادى الأزمان ولايجدون من يفهمهم ان مدرسة عليا (بشرائط مخصوصة) تجعل مصر فتاة فى ريعان شبابها الا يجمل بنا وقد عجز مصلحو الأزهر عن القاء ما يفرض الدين علينا من الخلال الجميلة والاستعداد للطوارئ ان تنشئ مدرسة جامعة تكون ملجأ للسورى والبغدادى والتركى والهندى والجاوى والمراكشى والجزائرى

والتونسى مع شرائط مخصوصة كما فعل سيسل رودس الانجليزى ، زار العلامة المستر دوارد براون الانجليزى مصر وتحادث مع عقلاء المصريين فى أمور شتى ، وتكلم فى مسألة مدرسة يراد انشاؤها بهمة أحد الأغنياء وما الذى يجب بالنسبة لها فقال لكاتب هذه الأسطر أن فلانا أوجب أن تدرس فيها لغة أجنبية فما تقول ؟ فقلت أما أنا فان اهتمامى راجع الى الكليات لا الجزئيات والذى أعتقده ان مؤسسى هذه المدارس جهلاء لا يعرفون من العلوم الا مباديها ولا تجمعهم جامعة الا مع من لم يدرسوا من أحوال المدنية شيئاً ولا تاريخ أسلافنا الأولين كيف لاوهم لم يزيدوا شيئاً على ما هو حاصل فالأزهر والمدارس الاسلامية فى المساجد وكتاتيب نظارة المعارف ومدرسة دار العلوم تغنى عن مثل هذا وانما أقول كان يجب أن تجعل مدرسة تعلم فيها العلوم العالية ويجعل هؤلاء صلة بين المسلمين عامة ان أمكن

يا قوم انى ليحزننى أن يكثر عددنا ولا نجد من رجال العلم من يحدثهم بشأن مدرسة جامعة هل قال المحققون من العلماء نعم نعم والنفر القليل منهم محسودون . هل تخطى العلم الشرق وذهب الى الغرب ، هل كانت ثمرة القرآن محرمة علينا . هل ختم على قلوبنا وسمعنا وأبصارنا ، هل رفع القرآن فنعذر فى الجهل . نحن أمة حق عليها القول (وقالَ الرَّسُولُ يارب إنَّ قومى اتَّخَذُوا هذَا القُرآنَ مَهْجُوراً) جهلنا الأشياء ولم نحط علماً بما بين أيدينا فضلا عما عداه فحق علينا القول (بَلْ كذَّبُوا بما لم يُحيطُوا بعِلْمِهِ ولمَّا يَأتهم تأْويلهُ) والآية شاملة لكل مالم يحط بعلمه ثم هدد بقوله (كذلك كذَّبَ الَّذين مِن قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الحوادث متشابهة والأيام متتالية والأدوار متتابعة كان الأمراء فى دولة الجراكسة لبساطتهم وعدم اهتمامهم بالاسلام عموماً يقصرون أنظارهم على وقف تكية ومسجد وكتاب ، والآن ترقى العمل الى مدرسة صغيرة. ألم يأن لنا أن نصل الى الدور الثالث فنقلد المعز الفاطمى فى بناء أزهره

انى يا قوم ليسرنى أن تبنى مدرسة يجعل فيها على الأقل قسم تعلم فيه العلوم العالية

لا كالنورمال ومدرسة دار العلوم بل يوسع فيها أكثر من ذلك ، ولنا فى همة الواقفين وحبهم للخير وغيرتهم الوطنية وصداقتهم الدينية وحميتهم الملية خير نصير

وهنا نذكر شيئاً لا يجوز لنا إغفاله وهو أن نذكر أفاضل رؤساء الجمعيات الاسلامية أن يلفتوا أنظارهم لموضوع مهم إلا وهو أن يدرس فى السنين الأولى نباتات وحيوانات البلاد درساً طبياً زراعياً توحيديا فيذكر ان الفجل مثلا يدر البول ويطرد حصاة الكبد ورمالها ويسكن آلامها وانه يثير شهوة الطعام وانه يحدث انتفاخات غازية وإن البقدونس يدر البول نافع لأمراض الكلى وأن الشعير ماؤه ملطف مبرد مغذ مدر للبول وإن البصل يصدع الرأس ورائحته تورث عداوة الأصدقاء ولذلك كان أكله مكروها فى الشرع ولكنه يصلح السائل المنوى ويقتل بعض المكروبات ويصلح الهضم ونحو ذلك مما هو مشهور عند الأطباء

ثم يقال لهم تأملوا حكمة الخالق وصنعه وكيف صور وخلق وقدّر وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى (وفى الأرض آيات للموقنين . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) وهكذا مما لا يحصى . ويذكرون مثلا النحل وكيف يبنى بيوته ويشرب من الأزهار وكيف يأتى لنا بالعسل وكيف سخر الله هذا الحيوان الضعيف نافعا للانسان وكيف نفع الانسان بالعسل الناتج منه وما منافعه الطبية وهكذا وانه ذكر فى القرآن الشريف ويعلمون حسن الملاحظة كما فى العنكبوت وكيف هندس وبنى بيتا محكما أقفله من الداخل واحترس من الأعداء . لعمرى ان هذا الشكل يشوق التلاميذ لفهم جميع العلوم ولا يخرجون من سنتهم الأولى إلا وقد درسوا ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فانتفعوا ونفعوا . وإنى أكرر القول ان رؤساء الجمعيات مسؤلون بين يدى الله تعالى وبين يدى النوع الانسانى عن هذا الأمر وهل يليق أن يعلم الانكليز والفرنساويون أبناءهم فى الكتب الصغيرة تلك العجائب الكونية ونحرم نحن منها . نعم نحن نخالفهم فى شكل التعليم فيجب علينا أن نجعل للأحاديث والقرآن وكلام علمائنا الحظ

الأوفر عند الكلام على كل علم وإلاضاع شكل هذه الأمةومزقت كل ممزق كأهل سبا مزقوا تمزيقا جسمانيا فهكذا نحن نمزق تمزيقا عقليا فيصبح هذا درويشاً وذاك أبله وهكذا . وكأن تذكر دودة القطن وكيف وضع الله أبا دقيق ملونا بلون جميل وكيف يموت الذكر بعد اللقاح وكيف تموت الأنثى عقب ترتيب البيض ووضعه وضعه متقنا هندسيا وكيف علمت هذه الهندسة وكيف تكون الشرنقة معرضة للتقلبات الجوية وهى سلة منها بحيث تقاوم مالا تقاومه كثير من الحصون والبيوت العظيمة الانسانية أليس ذلك لحكمة باهرة وعظة ظاهرة (ان ربك هو الخلاق العليم) ويذكر كيف يعرف الورق الذى عليه الدود وكيف يحترس منه فينزع وهكذا . فيخرج التلميذ من المدرسة وهو رجل المستقبل وقد عرف ربه ووحده وعرف دينه ودنياه . ودرس قطنه وخلصه من الهلاك وعرف الصحة والمرض والداء والدواء وقد صار رجلا عظيما كبيراً وقد أنذرت وحذرت وكررت مراراً وانى سألت خاصة المسلمين وعامتهم وعلماءهم وجهلاءهم عن سبب انحطاط هذه الأمة لأجابوك بلسان واحد هى المعاصى هى المعاصى ثم تسألهم عن تعدادها فلا يجيبونك إلا بالغيبة والنميمة والأزبكية وما شاكل ذلك ويقرؤن (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا) فترى هذا الجواب منطبقاً تماما على الآيات القرآنية وهذا حق وصدق يطابق القرآن والوجدان ولكن هل تفسير المعصية بما ذكر كاف كلا ثم كلا . هذه المعاصى المذكورة هى الظاهرة وهناك أخرى باطنة تربو على هذه فى العقاب آلاف مرة كالأمراض القلبية والأخلاق السيئة والجهل العظيم بل أكبر معاصى المسلمين الآن الجهل قبح الله الجهل قبحه . نادى القرآن على الجاهلين وعيرهم ووبخهم وأنذرهم بخراب مدنهم فقصرناها على أمور قليلة وفاتنا العلم بما حولنا من الكائنات والمواليد الثلاثة حتى جهلنا النبات المحيط بنا والحيوان والانسان فلم ننتفع بالأولين ولم ننج من خطر الأخير (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) الجهل بالنبات والحيوان أورث الأمراض وهلاك الزرع . لكل ذنب عقاب يخصه . فليس عقاب أعضاء الجسم الانسانى

أكل الدودة للقطن كلا . وانما هو عقاب الجهل والتفريط وعدم البحث من أهلها بالعلوم والمعارف (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) العلوم كلها والصنائع فرض كفاية على المسلمين عامة اقرأ كتب الأئمة الأربعة تر صدق هذه القضية . يعذب المسلمون أميرهم وصعلوكهم وكبيرهم وصغيرهم على تفريطهم فى العلوم والصناعات من القدوم والمسمار إلى الكهرباء والبخار ومن السكين والسيف إلى المكسيم والدم دم وأكبر صواعق العذاب تنزل على أغنيائها إذا لم ينفقوا وعلمائها إذا لم ينذروا فيحق العذاب على الأمة فى الدنيا فيجعل عاليها سافلها وأعزة أهلها أذلة ويختم على الأفواه فلا تنطق إلا بما يوافق أهواء القابضين على الأزمة ويسامون فى الآخرة عذاب النار (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

الفصل التاسع والعشرون

محاورات لطيفة فى الاسلام

ونظامه وأسباب انحطاطه وسبيل ارتفاعه[1]

اجتمع رجال من ذوى الفضل يوماً فى عالم العجائب وكنت أسمع ما يقولون فنقلت ما دار بينهم وكان فيهم الحكيم والشجاع والمجتهد والواعظ والمحتسب والمقتصد والعالم والصوفى والمتبحر فى العلوم والصانع والتاجر والغنى والاخلاقى والصائغ والسائح والرياضى اذ الامة كالجسم فلتمثل الأمة الاسلامية به والحكيم رأسه (١) والشجاع بأسه (٢) والمجتهد فكره (٣) والواعظ لسانه (٤) والمحتسب سمعه وبصره (٥) والمقتصد

(١) تنبيه هذا الكتاب ألف من نحو سبعة سنين أى سنة ١٩٠١ ولقد كنا أزمعنا إذ ذاك أن نلخص أم القرى ونضمنها هذه المحاورات التى نراها الآن وبعد أن لخصنا شذرات منها رأينا العدول عنها لاسباب لا محل لذكرها وقصدنا الى مباحث أخرى هى أهم وأولى فأثبتنا ذلك النزر اليسير منها والكثير الذى وضعناه ليكون تذكرة لأولى الالباب اه مؤلف

اعتداله (٦) والعالم عظمه (٧) والعامة لحمه (٨) والصوفية دهنه (٩) والأديب المتبحر فى العلوم والصنائع قلبه (١٠) والتاجر عروقه (١١) والقوى معدته (١٢) والاخلاق جماله (١٣) والصانع يداه (١٤) والسائح (١٥) رجلاه و بعضهم قرأ مقالات فى الجرائد والكتب الحديثة .

ولما رأيتهم جالسين وقد أخذ كلٌّ مكانه خيل لى هيئة الأمة الاسلامية مجتمعة وقلت فى نفسى يا ليت شعرى ما الذى يتفاوضون فيه وجال فكرى قبل أن يتكاموا فى حال الأمة الاسلامية وقلت انى أخاف أن يقبل بعضهم على بعض يتلاومون وذلك انه جرت عادة الله فى خلقه ان كل أسرة أو أمة دك شامخ مجدها وذهب عزها تلاوم أعضاؤها وتقاطع رؤساؤها وكل منهم يحمل الآخر تبعته وهذه سنة الله فى الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا وذلك عام فى حال الحياة و بعد الموت ومنه ما نص الله بقوله (حتى اذا ادَّاركُوا فيها جميعاً قالت أُخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكلٍّ ضِعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون)ولما تلوت هذه الآية فى ضميرى قلت وهذه وان كانت فى الآخرة فهى حاصل نظيرها فى الدنيا عند كل اجتماع على غير كمال ونظام اذ للأمة موتتان موتة أدبية عند الانحطاط فى الدنيا وموتة جسمانية عند انتقالهم الى الدار الآخرة فاذا ذهب مجدها فى الدنيا فهذا هو المسمى عذاب الخزى فى الحياة الدنيا واذا ماتوا ردوا الى عذاب أليم وفى كل من الموتتين يتلاومون كأصحاب الجنة الذين أقسموا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ولا يَسْتَثْنُونَ فطاف عليها طائفٌ من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصَّرِيم فتنادَوا مُصْبِحِينَ أن اغْدُوا على حَرْثِكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون الاَّ يَدْخُلنَّها اليوم عليكم مسكينٌ وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطُهم ألم أقل لكم لولا تُسَبِّحُون قالوا سبحان ربِّنا انا كنا ظالمين فأقبل بعضُهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا ان كنا طاغين وهكذا الرؤساء والمرءوسون وهكذا آيات كثيرات فى الجدال والملاومة بين

الرؤساء والمرءوسين والذين اتبعوا وان كلا يبرأ من الآخر و يود عذابه حتى رد عليهم بقوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم فى العذاب مشتركون)

وهكذا نرى كثيراً من الآيات ذاكرة هذه المحاورات بين الفريقين

ولقد علمت علم اليقين أن الكون متشابه وأن أحوال الدارين متشابهة ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا وما الأخرى الا نتيجة الدنيا أو ثمرتها والثمرة تكون على حسب الشجرة

ولذلك ترى هذه المجادلات والمحاورات جارية بين علماء الاسلام وحكامهم وعامتهم ان لم يكن علانية فهو سر يجرى على القلوب ولا يظهر على الشفاه وهكذا أفراد كل أمة وكل جيل من الناس عند وقوعهم فى عذاب ناشئ عن تقصير منهم يلوم بعضهم بعضا مع انهم فى الحقيقة متضامنون فلذلك يشتركون في العذاب فى الدارين

ومن العجب أن الله تعالى ذكر أن أعضاء الانسان تشهد عليه يوم القيامة وقد قلنا أن الأمة كالجسم فانظر كيف ترى انها تشبهه فى ذلك فترى كلا من رجال الامة بعد انحلالها يحمل التبعة على سواه مع أن الجميع مسؤول فيختم على فم الرؤساء اذ لا وجود لهم بعد انحلالها وينطق أعضاؤها بما فعلوا من الشرور التى أوجبت الهلاك فمن العجيب أن هذا مع ذكره لأعضاء الجسم الواحد يوم القيامة تراه بعينه حاصلا للأمة حين انحطاطها ليتحقق معنى قوله تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) وقد علمت أن النفس الواحدة تشهد عليها أعضاؤها اذا ماتت فهكذا الأمة اذا خمدت أنفاس حياتها نطقت أعضاؤها المتفرقون المتشاكسون المتنافرون فتأمل فى التشابه بين هذا العالم وموافقته لحسن النظام العام فى السموات والأرض وسيره على أحسن نظام ونسق بديع

و بينما أنا تائه فى بحر عميق من هذه السوانح العجيبة وقد ظننت أن هؤلاء الأعضاء سيجرون على هذه القاعدة اذ رأيت منهم أمراً عجيباً وأرونى مالم أر وعلمت منهم أننا أمة لم تزل حية ولم يمت والحمد لله جسمها نعم رأيت منهم بعض التلاوم ولكن

لتلافى ما فرط وظهر لى من كلامهم أن فى المستقبل أملا وطيدا وان من أصولهم التى بنوا عليها (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) * (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) فنسخت شمس أملهم ظلام يأسى وهناك ما سمعته منهم ونقلته عنهم

لما انعقد المجلس قام الحكيم وقال مقتطفاً بعض أقواله من أم القرى يجب على كل منا أن يصرح برأيه ولا يخاف فى الحق لومة لائم ولا يخاف انتقاداً وليس من يبدى رأياً ملزما به بل قد يبديه من لا يعتقده لينظر الجماعة هل يستحسنون وله أن يرجع عنه إذا شاء لأنها خطرات وآراء تعرض للبحث والانتقاد والاستدلال

كلكم تعلمون أيها الاخوان أن مسألة انحطاط الاسلام بنت ألف سنة أو تزيد واذا استحكم وطال عليه الأمد استحق مزيد عناية فى البحث عن الدواء ووصف العلاج الوافى واعلموا أن هذه المسئلة أجل من أن يقوم بها إنسان واحد وكيف يقوم الواحد بما بناه ألوف الملايين إذن لابد من رجال وجميات ينظرون ويتفكرون وقد جرت سنة الكون أن العمل يحتاج الى زمان مناسب له إذ كل شيء بمقدار فالنخل لكثرة منافعها وجزيل خيراتها لا تثمر إلا إذا مرت عليها سنون بخلاف الحشائش والنباتات المعروشات والممتدات كالبطيخ والقثاء فانها تمتد سريعا وتفنى سريعا على هذه القاعدة ليس ينفع هذه الأمة مجرد عصبيات تفور فتفور سريعا أو جميات غير ثابتة تقوم فتسقط أو ثورات حضرية حمقاء لاتلبث أن ينقلب بها الزمان ويحطها الحدثان وانما لابد من التناسب بين الشيء ومقدماته

وهذا الاسلام تفرق شيعاً وذاق بعض المسلمين بأس بعض من قرون فقاموا آمنين مطمئنين وكانت الأمم المجاورة لهم أحط منهم فأخذوا يجاورونهم حتى ساووهم فى القرن التاسع من الهجرة ثم ازدادوا عليهم فى هذه الأربعة القرون بمراحل وأخذوا المسلمين من كل جانب فهب من كل جهة جماعة واستيقظوا لما حل بهم وحاق بهم من المكروه فأخذوا يصفون الحال الحاضرة واعراضها بوجه عام وصفا بديعا يفيد التأثير ثم سبب الخلل النازل والجهل الشامل مع الاجمال والتلميح مع أن المقام يأبى إلا التشريح والتفصيل

ثم أخذوا ينذرون قومهم و يصفون هول المطلع وسوء المنقلب فى هذه النوازل ثم يلقون التبعة على الأمراء والعلماء والعقلاء والكافة لتقاعد الجميع عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ومع كل هذا لم يحصل نتيجة معهم الى الآن وقد آن استثمار تلك الأقوال ولا يبئسنكم ما ترون من انحلال جمعياتنا الشرقية سريعا فان هذه الجمعيات الصغيرة مقدمات للجمعيات الكبيرة الثابتة والشرق مشرق العظائم ولا تيأسوا من روح الله فانه ما أضر هذه الأمة فى هذه الأيام إلا اليأس إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم

وما مثل الجمعيات المنحلة فى الشرق إلا كمثل الإرهاص للنبوة فترى الإرهاص الانبياء منبئآت عما سيجرى على أيديهم فتستعد النفوس للتلقي عنهم

ولا يغرنكم الكلمة المشهورة أن الأمة اذا سقطت وكسرت لاترجع شابة فهذه القاعدة لا ثبات لها

وها نحن أولاء نرى الطليان واليونان والأمريكان واليابان كل هؤلاء استرجعوا مجدهم بعد أن فقدوا معدات الحياة وسقطوا فى الهوة فاستعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وليس بيننا و بين غيرنا فرق إلا فى العلم والأخلاق وأمد العلم عشرون عاما والأخلاق أربعون

وهؤلاء قوم موسى لم يرجعوا لمجدهم بعد خروجهم من مصر إلا بعد الأربعين استعملوا فيها الأخلاق وعلا شأنهم

فهلموا للبحث عن داء هذه الأمة ودوائها ولايغرنكم اختلاف المذاهب فاننا كلنا تابعون للسنة والقرآن والمجتهد المصيب له أجران والمخطىء له أجر واحد ولم تنقطع هذه الأمة إلا بتفرقها مذاهب وشيعا كل حزب بما لديهم فرحون مع تركهم مقاصد ذلك الأصل وهو الدين الجامع لجميع المذاهب الموجب لاتحادهم وتصالحهم ضد كل من ناداهم وعاداهم

ولتعلموا أن ظواهر الأسباب تبشر بنيل المأمول وحسن المستقبل فان الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء النبى ونزل جبريل بالقرآن ونجم فى هذه الآية رجال فى أقطار متعددة يعد الواحد منهم بألف

ثم قال انى جبت البلاد شرقا وغربا وعرفت أهل الملل وجبت الهند والصين و بلاد أوروبا وآسيا وأمريكا وافريقيا فوجدت أن المسلمين أينما كانوا أحط من غيرهم صناعة ونشاطا وانتظاما فى أمورهم الخاصة والعامة والدينية والسياسية حتى انك لترى بيتين متجاورين أحدهما فيه مسلمون والآخر فيه غيرهم فيظهر لك الفرق بينهما فى لمح البصر فياليت شعرى ما السبب الذى دعا لذلك حتى قال بعض السواس أن الاسلام والتمدين لايجتمعان ومع هذا ترى المسلمين فى كل بلدة محافظين كل المحافظة على أمهات الأخلاق من الشيم والرفعة والكرم وحسن الأخلاق والعفة والأمانة وليس ينحط عنهم فى النشاط وجميع الأعمال إلا أهل الديانات المتشددة المغالية فى التشديد كالصابئين حول دجلة الذين يضيعون أوقاتهم منغمسين فى الماء تعبداً وكالكنغو من الزنوج وكالبوذية من الهنود المعتقدين ان كل مصائبهم حتى الموت الطبيعى من السحر فهؤلاء أكثر فتوراً من المسلمين و يلحق بهؤلاء الدهريون والطبيعيون الذين يدينون فى نفوسهم الى قوة عظيمة وسموها الدهر والطبيعة ويقولون نحن أشقى الناس لما يرون من مستقبل مظلم وحياة رديئة

فالناس كما قال علماء الأخلاق لهم نوع دين ولايصح أن نسمى إنسانا لادين له بالمره وهذه أوضحت معنى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) وهذا آثار أخذ العهود على البشر بالتوحيد والإيمان فالفطرة عليه اشتركت فيها الناس ثم إن الدين الصحيح إن عمل به ساق الى نظام ونجاح فى الدارين وقد يدخل الفساد على عقول أهله فلا يفهمون معناه كما هو فينقصون أو يزيدون عليه شيئاً أو يجمعون بينهما فان كان الأول فقد ينجحون فى الدنيا ويكونون ناقصى الدين و إن كان الآخران فسدت المدنية وخسروا الدنيا والآخرة

وكل دين باطل قد ينشأ عنه فاسد بزيادة أو بها مع نقص عنه وهاتان توجبان خسران الحياتين أما اذا نشأ فاسد مع النقص فقد يرون مدنية زاهرة اذا هم نظروا بالعقل فى أحوالهم المعاشية وبنوا على أساس علم العمران فى الأعمال وهكذا اذا بقى كما هو باطلا فتلخص أن الصحيح يقود الى العمران بنفسه والباطل لايعطل عن المدنية وهكذا الفاسدان منهما ينقص إذ لاتعطيل فى أعمال الحياة أما الفاسدان بزيادة أو بها مع نقص فانه بهما تتشوش أعمال الحياة فلا دنيا ولا دين

وهذه الاسلامية محجة بيضاء قامت بها هذه الأمة ألفا وثلاثمائة سنة مع ماطرأ من النقص فى الفهم تارة والزيادة فى الخرافات أخرى ومع ذلك حفظت إلى هذا الزمان وما ذلك إلا لقوة المتانة فى أصولها

فالمسلمون ليسوا الآن أحط أهل الديانات جميعاً ولا أرفعهم وانما هم أرفع من كثير منهم ولقد عرفنا ان دينهم صحيح فياليت شعرى ماالذى طرأ على الأفكار حتى شوشها وعلى القلوب حتى فرقها فهذا هو الذى يجب البحث عنه

فقال العالم الذى أراه أنه طرأ عليه بعض قواعد اعتقادية وأخرى أخلاقية كمسئلة الجبر والتزهيد فى الدنيا والحث على اماتة المطالب وترك المفاخر والزينة وعظائم الأمور ولعمرى ان الأولى بعد كل تحوير وتهذيب جعلت الأمة قدرية باطناً مختارة ظاهراً والثانية منافية لما كان عليه الصدر والسلف الصالح من اعتلائهم قمم المجد والشرف فى المطالب ولهذا نفى سيدنا عثمان أبا ذر الغفارى الى الربذة

فقال السياسى مانزل دين من السماء إلا وجاء مضاداً للطبيعة البشرية فاذا رآها مالت لجهة عدل هو إلى الأخرى ليقف الانسان فى الوسط ويكون على الصراط المستقيم وهاك مسئلتى القضاء والتزهيد لم يختص بهما الاسلام بل هما فى كل دين ليتسلى العاجز ولاييأس الطالب بالأولى ويقف شره الطبيعة حينئذ فى الوسط بالثانية لأن الديانات أدوية بها يرجع إلى الصحة ولا صحة إلا بالتوسط وبهاتين العقيدتين تكون الأعمال من الانسان بنشاط وتتقدم المدنية والحضارة اذ كل يسعى بلا قنوط فيوجه

همته إلى نفع أمته. أو لا يرى ان كل الأديان على اعتقاد القدر خيره وشره من الله أو خيره منه وشره من الشيطان أو من النفس ولكن قتل الانسان ما أكفره فانه لايلبث أن يعكس القضية فان جاء له خير افتخر وشمخ بأنفه وقال هو من عندى وان جاء له الشر نسبه لله ولذلك لاينسب البشر أمراً إلى القدر الا عند الجهل بسببه ستراً لجهلهم أو عند العجز عن نيل الخير أو دفع الشر ستراً للعجز . ولما غلب أخيرا على المسلمين جهل أسباب المسببات الكونية والعجز عن كل عمل التجأوا إلى القدر والتزهد تمويها لانديانا . والمشاق والعظائم التى اقتحمها الصحابة والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم لنيل الغنى والرئاسة فضلا عن الثواب كفاية برهان مع ان الأمة كانت زاهدة فعلا لا كالزهد الذى تدعيه الآن كذبا ورياء

فليس القصد من التزهد التعطيل والفقر بل توجيه الهمم إلى النفع العام الذى عليه يبنى الاسلام اما اذا تعطلت الأعمال فلا اسلام ولا ايمان . والسعى فى النفع العام هو المعبر عنه بالجهاد الذى يشمل جميع الأعمال العامة لاخصوص جهاد الكفار كما تظنه العامة والجهاد يكون لاعزاز الجامعة الاسلامية أولا والجامعة البشرية ثانياً إذ الأمة الراقية دينا وعلما ومدنية يجب عليها رعاية الأمم المنحطة كالأب يربى أولاده ومثل الأمم المنحطة كالطفل يتربى بين أبويه حتى يصير مشابها لهما . ثم قال والذى أراه أن سبب هذا الفتور العام تحول مجرى السياسة العام فانها كانت بعد زمن الوحى نيابية اشتراكية أى (ديمقراطية) تماما فى زمن الخلفاء الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية بعدهم بسبب الحروب والانقسامات بين أكابر الأمة ثم صارت أشبه بالمطلقة وذلك ان الأحكام لم تكن مدونة فى زمن الخلفاء بل كانوا مجتهدين بما وقر فى صدورهم ولما تفرق الصحابة فى البلاد قيدوا الأحكام فى زمن الأمويين ومن بعدهم فتشعب الخلاف وبنى على تشعب السياسات فأصبح بأس الأمة بينها شديداً وقلوبهم شتى وأصبحت الأمة جندية محضة وسارت فى تيار المحاربات الداخلية والخارجية وآل الأمر إلى أن صارت أمة جندية صفة وأخلاقاً بعيدة عن الكسب بالوجوه الطبيعية

نعم قد كانت تصادف فى سيرها فترات قليلة يقف فيها دولاب الحرب فتترقى العلوم والمعارف ثم تذهب فى تيار حرب آخر ولا زالت تعثر تارة وتقوم أخرى إلى أن سبقنا الأمم من حولنا بأن صارت الجندية عندهم صناعة ذات قواعد مقررة مفقودة عندنا وذلك من نحو قرنين تقريبا فكانت أولا داخلية وخارجية للمدافعة تارة والفتوحات أخرى ثم صارت للمدافعة فحسب ثم صارت فى القرنين الأخيرين داخلية لاغير وتركت المدافعة لجهلنا بالصناعة الحربية وأصبح بأسنا بيننا شديداً نعيش بالتحايل على الكسب من وجوهه الطبيعية وهذا أجل مايميت النشاط ويولد الخمول

فقال الأديب : ان غيرنا من الأمم قد وجدوا فى انقسامات سياسية وتباينات مذهبية وحكومات مطلقة وفى حروب مستمرة ولم يشملهم الفتور بوجه عام كجرمانيا ثم قال والذى أراه ان هذا الفتور العام انما جاء من تأصل الجهل فى غالب الحكام المترفين الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا حتى بلغ جهل هؤلاء إلى منزلة أحط من منزلة العجماوات التى لها طبائع ونواميس فمنها ماتحمى ذمارها وتمنع عن حدودها وتدافع عما استحفظت عليه وهؤلاء ليس لهم طبائع ونواميس يخربون بيوتهم بأيديهم وهم لايشعرون ومنهم البعض ضالون على علم وهم الذين يشتكون ويبكون حتى يظن انهم مغلوبون على أمرهم ويتشدقون بالاصلاح السياسى مع انهم وأيم الحق يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم يظهرون رغبة الاصلاح وهم يبطنون الاصرار على ماهم عليه من افساد دينهم ودنياهم وهدم مبانى مجدهم واذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لايقر صاحبه لفاضل بفضله لأنه داء الغرور ولايجارى حازما فى مضمار وقد سرى من الأمراء إلى العلماء إلى الكافة فلا يرجى معه شفاء فأجابه الشجاع الحر وقال :

من هم الحكام أليسوا منا ونحن منهم فما الحاكم الا فرد من القوم ترأس عليهم وطبعه من طباعهم ولذلك ورد كما تكونوا يولى عليكم فلو لم نكن نحن مرضى فمن أين يأتى المرض لأمرائنا والحكام أبناء الأمة تسربوا فى حجرها والابن يرث غالباً

صفات أبيه فتحميل التبعة على الأمراء وحدهم غير سديد

ثم قال والذى أراه ان سبب هذا الفتور العام هو فقدنا الحرية وما أدرانا ما الحرية هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه

والحرية هى أن يكون الانسان مختارا فى قوله وفعله ومن فروع الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء وعدم الرهبة فى المطالبة و بذل النصيحة ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات والمباحثات العلمية . ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال

ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض والأمن على العلم واستثماره فالحرية هى روح الدين ولا يمكن أن يقوم بدونها وكيف يقوم الدين بدون النصيحة المتوقفة على الحرية وقد روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الدين النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وروى البخارى أيضا ان صحابيا قال :

أتيت النبى صلى الله عليه وسلم قلت أبايعك على الاسلام فشرط على والنصح لكل مؤمن مسلم فالنصيحة مما تجب المبايعة عليه وانها من أصول الدين العليا الكلية وهذا النصح لا يتم الا بالحرية ومما يحسن ذكره فى فروع الحرية قول سيدنا حسان بن ثابت الشاعر الصحابى

وما الدين الا أن تقام شرائع ... وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فانظر كيف حصر الدين فى اقامة الشرائع وتأمين الناس ولعمرك أن الحرية بفقدها يعم الكسل أفراد الأمة و يتمادى فيهم و يرثه عنهم أبناؤهم لما يرون من ذهاب آراء سديدة وأموال وأعراض ونفوس وشرف ومقتنيات فتقبض الأيدى عن العمل والأرجل عن السعى والقلوب عن الأمل والافكار عن التفكر والاستنباط وعليه تتدهور الأمم تدهوراً فى أسفل سافلين . أجابه الفاضل المحتسب ان هذا الداء وهو نزع الحرية من الافراد غير عام مع عموم الفتور وكيف ينتج العام عما ليس بعام هذا مما لا يمكن

والذى أراه فى سبب عدم التنوّر اننا كنا خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعبد الله وحده أى نتذلل ونخضع له أمرنا شورى بيننا نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الاثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وقد يظن أن أصعب هذه الأمور النهى عن المنكر مع ان ازالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فباللسان فان لم يكن فبالقلب وهذه المرتبة الثالثة متيسرة وذلك بالاعراض عن الخائن والفاسق والفاجر وتجنب مجاملته ومعاملته ولا شك أن ايتاء هذا الواجب الدينى كاف للردع . ولا يتصور العجز عنه مع انه أعظم مايقوم الممالك قال تعالى (ولولادفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وقال (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقال صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب

وبالجملة فترك هذه الخصلة منذر بانقراض الأمم التاركة له من الوجود ، ولقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمن الصحابة والخلفاء الراشدين صادرين من كل مسلم ومسلمة وكانت معيشتهم بسيطة فخلف من بعدهم خلف توسعوا فى الحاجيات والكماليات فشغلوا بنفوسهم فأقاموا محتسبين ثم زاد تفرق الدولة تفرقا عظيما فبطل الاحتساب كما بطل التناصح العلم فأصبح بأسنا بيننا شديدا وأصبح الاكتساب مقام الاحتساب وصارت الأمة أشبه بالجندية المحضة

فقال الحكيم أن هذا يصلح أن يكون سببا من جملة الأسباب ولكنه لا يكفى وحده لايراث ما نحن فيه من الفتور والذى أراه ان أعظم مادها هذه الأمة وأوقعها فى فتورها اعتقادها ان الساعة على وشك القيام كأنهم ظنوا انها تقوم علينا وحدنا وتترك الأمم مع ان علم الساعة عند الله

فقاطع الغنى الحكيم قائلا : هذه المسئلة تجول فى أذهان عامة الناس وخاصتهم

ولم يوضحها لنا أحد ولم يكشف عنها حجاب الخفاء ولذلك أصبح كثير من مريدى الاصلاح يثنون عزائمهم عما قصدوا لاسيما اننا نسمع كثيراً من أهل العلم يقول فيها قولا اجمالياً وان هذه علامات صغرى وهناك علامات كبرى قد آن وقتها مع ان هذا شيء مضى عليه ألف سنة ونيف وثلثمائة وهذا أورث القوم فتوراً عظيما مع اننا نرى نشاط الأمم وتسابقهم إلى الخيرات ونظام المدنية فأرجوك بلسان الاخوان أن توضح لنا هذا الاشكال فقد غمض معناه وأبهم على الجميع فاننا نراك من المحسنين المحققين

فقال الحكيم : من الحكم العجيبة هذه العقيدة عقيدة قرب قيام الساعة مع الجهل . . . . وهكذا القضاء والقدر وزمان الموت فكل هذه انبهمت على الناس مع علمهم بها ليدوم الخوف والرجاء وجميع أعمال الانسان فى الحياة دائرة على محورين هما الخوف والرجاء كالأكل والتزوج فألم الجوع سائق ولذة الطعام قائدة وهكذا ألم الشهوة للتزوج سائق ولذة التزوج قائدة وهكذا جميع أعمال الانسان لابد لها من لذة مطلوبة وألم منفور عنه حتى يعمل الأعمال بنظام فلولا خوف الفقر ورجاء الغنى ما باع التاجر ولا اشترى وهكذا الملوك والأمراء كل يخاف الزوال ويرجو المزيد وهذه سياسة لابد منها

ولما علم مدبر الكون أن لنا أرواحاً ستبقى بعد خلاصها من الأبدان وبعد خروج الأمم من أسر الطبيعة أراد أن يعلمنا بلذة الجنان وخوف النيران لنعمل للرجاء ونتقى للخوف ومع هذا العلم أبهم الوقت ليتمكن الرجاء والخوف ولو علمنا الوقت بعينه لغلب اليأس على الناس فلم يكن هناك رجاء البته ولو ترك أعلامنا بالمرة لم يبق هناك خوف قط فهذه هى الطريقة الوسطى التى تدعو الى قيام الأمم وأفرادها وترقيها الى أوج الفلاح والعلا والسعادة

وقد فهم النبى صلى الله عليه وسلم الأمر على حقيقته هو وأصحابه والصدر الأول من الأمة فأسس دولة وشيد ملكا عظيما وبنى عليه من بعده من الخلفاء الراشدين وبنو أمية وصدر العباسيين ثم خلف من بعدهم خلف وملوك ودول صغيرة استبدوا

بالملك وعزلوا العلماء جانباً عن تنبيه الأمة لما ينفعها وتدهورت الأفهام كلما تدهورت الأمة (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم و إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) فلم يكن ظهور البرق فى السماء ليعتقد الانسان أنه سيحرقه وأن المطر سيملأ الفضاء بدون رجاء نفع و إلا كان البرق عذابا واجبا و إنما جاء للخوف مع رجاء أن ينزل المطر فيحيي الأرض بعد موتها فجاء البرق للخوف والرجاء معا ومامثل يوم القيامة إلا كمثل البرق فاذا قصر على الخوف دون الرجاء أحدث اليأس والقنوط فاذا تغير مافى النفوس من الأمل ولم يبق إلا القنوط انحطت الأمة (أنا عند ظن عبدى بى)

ونرى أن أمتنا غلب على عامتها وكثير من خاصتها هذا اليأس لاعتقادهم ان قرب الساعة زاد جداً حتى أنه ليس للاسلام قائمة تقوم مع أنه ورب الكعبة لابد من بقائه الى آخر الدنيا بحيث تقوم القيامة على مسلمين وغيرهم كما ورد فى حديث البخارى عن معاوية بن أبي سفيان وهو يخطب على المنبر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وانما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله) فهذا نص فى بقاء هذه الأمة

ومن المبكيات أن الأمة كلما تقهقرت اعتقدت اشتداد القرب مع أن هذا لايخطر فى بال السواس الذين شيدوا مدنهم وحصنوا بلادهم ورفعوا أعلام المدينة

ثم سكت الحكيم فقال له أحدهم أشبع لنا هذا الموضوع فانه جدير بالبحث فقال قسم العلماء اشراط الساعة الى قسمين صغرى وكبرى وقالوا أن الصغرى تأتى مقدمة للكبرى و إيضاحه أن هذه الأمم على سطح الكرة الأرضية يتلو بعضها بعضا وكلما ذهبت أمة اتبعتها أخرى (إن يشأ يذهبكم و يستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) وكما أن الشخص الواحد ينذر

بالهلاك وهو الشيب والهرم والأمراض المتنوعة فكل هذه تنذره بالاستعداد للرحيل (وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) ويجىء البرق ليستعد الناس للمطر فهكذا الأمم لكل أمة عند إرادة خرابها نذير ينذر بانقراضها وتلاشيها من الوجود أو دخولها فى عناصر أمة أخرى وجميع الأمم على سطح الكرة الأرضية ينقرضون ويذهبون من الوجود وتتمزق الأرض كل ممزق باجماع الشرعيين والفلكيين والطبيعيين وجميع علماء الأرض قاطبة فى هذا العصر من الافرنج والشرقيين

ونذير الأمة عند انقراضها حلول الأمراض فيها أي أمراض الاجتماع وداء الشقاق (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) وذلك أمور : —

(١) عموم الترف فيها وتطاولهم فى البنيان حتى يعم الطبقة السفلى من الأمة

(٢) اختلاط الأنساب وأن يتزوج الشريف وضيعة النسب فمتى تمادوا عليه حصل الانقسام وذهب التناسب واستحكم الشقاق

(٣) ظهور الزنا وانتشاره جداً فمتى طال أمده كثر قتل الأجنة فذهبت الأمة من الوجود

(٤) قلة العلم وظهور الجهل فيتولى الجهلاء الرئاسة فيظلمون الناس فتضيع الأمة

(٥) شرب الخمر وكثرته والإدمان عليه فانه كما قال علماء العصر الحاضر سبب لتلاشى الأمم الشرقية ولذلك قال هنرى فى كتاب خواطر وسوانح أنه الطريقة الوحيدة فى إبادة الشرقيين فهى حرب حقيقية معنوية

(٦) أن يكثر الرجل من النساء عنده كما كان عند الشيخ المهدى السودانى والتعايشى

(٧) أن يتولى أحكام الناس الذين لا قدرة لهم على ضبط الملك من لا عصبة لهم ولا قوة ولا بأس ولا شجاعة ولا علم

فهذا من أعظم النذر فكل أمة غلبت عليها هذه الصفات أو أغلبها غلبت على أمرها ودخلت فى جسم أمة أخرى وحكمها الأقوى منها فانقرضت من الوجود حقيقة كما

فى عاد وثمود والذين من قبلهم و بعدهم أو حكما كما فى الأمم التى احتلتها أمم أخرى وتسلطوا عليها (و إن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) وهذا كعاد وثمود ومن قبلهم و بعدهم (أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) وهذا كالأمم الباقية فى حكم غيرها وهذه هى التى عملت عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم و يخرجون من الاستعباد الى الحرية

فهذه الصفات السبع التى ذكرناها علامات لانقراض الامة واضمحلالها وهى بلا ريب علامات أجمع عليها جميع العمرانيين الشرقيين والاوروبيين وما من نبى أو حكيم أو سياسى إلا وأنذر قومه وأعظم الناس الحكماء وأجل منهم الأنبياء وأعظمهم نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الذى ظهر و برع فى علوم العمران فان هذه الاسباب السبع ذكرت فى الاحاديث مفرقة فأشار الى الأول والثانى فى حديث البخارى وهو سؤال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والإيمان والاحسان والساعة وهذا نصه : عن أبى هريرة قال كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا للناس فأتاه رجل فقال له ما الإيمان قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته و بلقائه ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام قال الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال متى الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها اذا ولدت الأمة ربها (أى سيدها) واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان فى خمس لايعلمهن إلا الله ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم إن الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم اه

فقوله اذا ولدت الأمة ربها إشارة الى ما أحدثه بنو العباس وملوك الاسلام قاطبة وأمراؤهم وأغنياؤهم من اتخاذ نساء السبى المباحات لهم شرعاً وخرج منهن أولاد صاروا ملوكا وأمراء سادة على هؤلاء النساء وغيرهن فلما تمادى الأمر على ذلك زالت العصبية

وذلك حاصل فى بلاد المغرب والشام وجميع أقطار الاسلام إلا جزيرة العرب فانهم ما زال بينهم النسب محفوظاً الى الآن

فالقصد من هذه العبارة ترك الجنسية وعدم الرابطة القومية فانها من أمهات النذر للانقراض إذ الرابطة تكون بالجنسية والدين واللغة والوطن والصفات المشتركة والجنسية من أقواها .

وقوله واذا تطاول[1] رعاة الابل الخ فالقصد منه عموم الترف فى الأمة فتنقطع الاعمال وتكثر الجبايات و يجتنبون الحرب كما حصل فى أمة الرومان ودولة العرب (و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) . فقلدهم العامة فتطاولوا فى البنيان وزخرفوا منازلهم وشيدوا قصورهم وأكثروا من المعاصى (فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) ثم أشار الى أن هذا علم بقوله (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) والذنوب هنا كل ما يخل باصلاح الأمة كعموم الترف والزنا وغيرها من الأمور السبعة المذكورة وأشار للثالث والرابع والخامس فى حديث البخارى عن أنس قال — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم و يثبت الجهل و يشرب الخمر و يظهر الزنا) وليس رفع العلم إلا ما ورد فى حديث البخارى أيضاً بسنده الى عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله علية وسلم يقول إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

فمن هذا تبين معنى رفع العلم ولا يظن اخواننا أن علم الفقه وحده كاف فى نظام الأمة فلقد سمعت من مشايخنا أنهم يقولون أن قضاة هذا العصر قضاة ضرورة وذلك لأنهم لم يستوفوا شروط القضاء الشرعى ومن لنا بقضاة كعلى رضى الله تعالى عنه وشريح ومن بعدهم فهذا اعتراف بأن القضاء عندنا أصبح ركنه مهدداً وهو تفسير حديث النبى

(١) قد مر هذا فى الفصل الاول فى هذا الجزء واتضح فيه اسراف الامويين العباسيين الخ

صلى الله عليه وسلم ولذلك لما ضعفنا فى غالب الأقطار عن ضبط العامة اغتالتنا الأمم وأصبحنا معرضين لأخطار كثيرة واقتزعت بلاد وخربت أمم ودخلت أخرى فى جسم غيرها من الأمم ولقد حل بنا ما حل بعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وذلك فى بلاد الاندلس فانهم أجلوا عن بلادهم وأهلكوا

وهكذا الأمم الأخرى أصبحت فى الاختلال فأخذها الاختلال جزاء وفاقا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فانه عز وجل يحب البقاء والسعادة لا الشقاء والدمار فان لم تصلح الأمة بنفسها أرسل لها من يصلحها وما كان الله ليضيع العباد فيريح الضالة باحدى أمرين . إما الهلاك من الوجود أو تحكمها أمة أخرى وهذا هو سر هذا الوجود .

ومن أسباب هذا الجهل أن أهل العلم يظنون أن المدار على تعلم قواعد العلوم العربية والأصول وأن تحصل للانسان ملكة الفهم فى العلوم الشرعية وبها يصلح أن يكون قاضياً . مع أنه قد أضاع حياته فيما لا يكفيه ولا يغنيه فترك فهم القرآن والحديث وتهذيب النفس فأصبح من الضالين المضلين فالاقتدار على الفهم شىء والفهم شىء آخر والعمل هو النتيجة فاذا ترك هذا كله لم يبق إلا علم الفتاوى وهو لا يهذب النفوس وانما جعل سلاحا لاصلاح منازعات العامة وأشار الى السادس والثالث والرابع بحديث البخارى :

قال أنس ألا أحدثكم حديثا لا يحدثكم أحد بعدى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء وتقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد .

وهذا نراه حاصلا فى كل أمة كثرت حروبها حتى قربت من الاضمحلال فى كثير من أمراء الشرق الذين يكثرون من الترف وهو علامة على الاضمحلال ودمار الأمة وأشار الى السابع فى حديث البخارى بسنده عن أبى هريرة قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء اعرابى قال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعضهم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم بل لم يسمع

حتى اذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال فاذا أضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف أضاعتها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة

ولما أتم الحكيم كلامه قال له التاجر انا نسمع فى هذه الأحاديث التى تقصها علينا ذكر الساعة ولقد حصل لنا ريب فى هذا فان الساعة هى القيامة وأين القيامة وأين خراب أمة مخصوصة نحن علمنا من هذا التقرير الذى أوضحته لنا ان هذه الأمور توجب دمار الأمم وخرابها لا خراب الكرة الأرضية كلها إذ هى أمور ترجع الى صلاح العمران وفساده واذا فسدت أمة لم يلزم منها فساد أمة أخرى بل الذى دلت عليه التواريخ وجميع التجارب والعلوم انه كلما هلكت أمة أحدث الله بعدها أخرى كما انه كلما هلك انسان أخلفه آخر فى الوجود ليدوم العمران مع أننا نسمع عن أشراط الساعة عن كل نبى من الأنبياء فلقد أشكل علينا الأمر وزاد أشكاله فأزل الريب عن قلوبنا فقد قرب أن نصل الى فهم هذا الموضوع من حسن بيانك فان نظرنا لايضاحك وجدنا هذه منذرات بخراب الأمة التى تقع فيها فقط وان نظرنا لألفاظ الأحاديث وجدناها تذكر الساعة مع ان الأمم كلها لا تنمحى من الوجود الا اذا جاء لها نذير عام وهو المعبر عنه بالاشراط الكبرى كأن تطلع الشمس من مغربها وهذا بلا ريب عند اختلال سير الشمس واضطرابها فى سيرها بحصول تصادم أونحوه من الأمور السماوية التى يعلمها الله تعالى ويجهلها العلماء كافة وبعد ان تأخذ الأرض زخرفها وتتزين ويظن أهلها انهم قادرون عليها ولا يبقى حرب فى الأرض ويظهر جميع أهل الأرض بمظهر الجمال فى الاخلاق والآداب وذلك عند ظهور عيسى كما فى الحديث ويزول الضلال والدجل من الأرض ولا يبقى سوى السلام وهذه الاشراط لا وجود لها الآن البتة فان المدنية التى تراها الآن ملأت الكرة الارضية ظلما وحربا فأين الهدى وأين السلم وما البهتان والزور الا من الأمم الحاضرة الذين هم أساس كل ظلم وعتو فأوضح لنا هذا الموضوع تنل الثواب الجميل

فقال الحكيم : ان أشراط الساعة ذكرت على لسان كل نبي ينذرون قومهم بها وكلهم كانوا يأتون بالقسمين فلنقدر ان الأمم التى قدر الله وجودها على سطح الكرة الأرضية من آدم الى خراب الأرض ألف أمة مثلا فاذا قدرنا الأمم التى مضت من قبلنا تسعمائة وخمسين و بقى الآن ٥٠ ونحن لا نعلمها فكلما هلكت أمة من الخمسين الباقين وهم بلا ريب أقل من التسع مائة والخمسين انذرت بانقراض الدنيا إذ هذه الأمة واحدة من الخمسين الباقية فكلما غرب نجم واحدة قربت القيامة بمقدارها ولذلك سميت السبعة العلامات الصغرى وذلك انها تنذر بأمرين بهلاك أمة عاجلا و بقرب الساعة فبعد ان كانت بقى عليها خمسون أمة يبقى تسع وأربعون

فهنا أمران هلاك لجزء من الناس وانذار لقرب خراب الأرض كلها فاذا بقيت الدنيا بعد هلاك أمة آلافاً مؤلفة من السنين فيقال ان علامات انقراضها من أشراط الساعة فاذا تتابعت الأمم واحدة بعد الأخرى حتى جاء أمر الله جاءت العلامات الكبرى وتحطمت الأرض والسماء وانقلب هذا الوضع الذى نراه . وفائدة هذا الانذار أن الامة قد يكون بها رمق الحياة فتستعد للرجوع ويخلفهم أقوام يجددون مجدا جديداً ويسابقون الناس وربما فاقوا آباءهم الأولين وهانحن نرى الآن اليابان والطليان والأمريكان واليونان استرجعوا مجدهم بعد خروجهم من الاستعباد وهكذا بنوا اسرائيل رجعوا مجدهم لما استكملوا العلم والاخلاق فى أربعين سنة حتى مات الجيل الجبان وأخلفه أهل الشجاعة والبأس (قال فإنها محرّمةٌ عليهم أربعينَ سنةً يَتيهُون فى الارض فلا تأسَ على القوْمِ الفاسِقينَ) وهذا هو الدواء الذى تستعمله الامم لرجوع مجدها وعظمتها . ولعمرك لم يقصه الله فى القرآن الا ليرينا كيف نسترجع مجدنا القديم

وأما الاحتجاج بقرب الساعة فجهل عظيم فانه من تدلى الفهم الدال على تفاقم الخطب ولذلك قال العزيزى فى شرح الجامع الصغير نقلا عن بعض العلماء حديث (الدنيا سبعة آلاف وأنا فى سابعها ألفاً) ما معناه انه حديث مكذوب لا أصل له بل هو قلق التركيب سخيف العبارة سنده فيه وضاع

أظن أن هذه الفكرة جاءت من أمة اليهود التى شاع فيها هذا الكلام تسلية عما فاتهم من الملك ولما ضعف المسلمون ورثوا هذا الكلام عنهم وهذه طبيعة فى النوع الانسانى كلما ضعف عن شئ أحب التسلى كما يتسلى العاجزون بالقضاء والقدر والبطالون بلعب الطاولة والنرد والسكارى يسلون نفسهم عما أصابهم من هموم الدنيا وأحزانها غاية الأمر أن هذا سكر ظاهر وذلك خفى يأخذ بالعقول عن النظر فى الشؤون وكما يتسلى العاجزون عن الفتك بالعدو بتمنى زوال النعم والحسد وما يفتكون الا بأنفسهم وما يشعرون فالأمة التى تتكل على قيام الساعة تدل بذلك على دنو أجلها وموتها وهلاكها مالم يتداركها حكماء علماء ويأخذوا بيديها من وهدة الضيق والهلاك

ومن طبق هذا على أحوال الأمم جميعها رآها مطابقة تمام المطابقة وهذه الأمة العربية لما شاعت هذه الأمور السبعة فيها الى القرن التاسع من الهجرة ابتدأ الدمار فيها تنبيهاً من الله لأهلها ليأخذوا حذرهم ويرجعوا مجدهم وقد ورد فى الحديث ان فتح القسطنطينية من أشراط الساعة وقد جاء مصداقه حين فتح أحد الاسبانيين بلاد الأندلس وقتلوا أهلها وسبوهم فأخذوا وهم لا يشعرون

ولما ذهبت تلك الدولة شرع الافرنج فى احتلال الجهات الأخرى وامتلاكها من الغرب والهند وغيرها (وان من قريةٍ إلا نحنُ مهلِكُوها قبلَ يوْم القيامةِ أو معذّبوها عذاباً شدِيداً كان ذلكَ فى الكتابِ مَسطوراً)فقوله مهلكوها كخراب الأندلس وقوله أو معذبوها عذاباً شديدا كالبلاد التى أهلكها أو ملكها غيرهم كالغرب والهند ومصر والجاوه وكل على حسب جريمته فى الابتعاد عن نظام البلاد وادارتها المعبر عنها بالقواميس الشرعية والقوانين السياسية المطابقة لها وليس هذا كله مانعاً من الترقى مرة أخرى بل جرت سنة الله أن الأيام يداولها الله بين الناس (وتِلْكَ الأيّامُ نُداوِلُها بين النّاس) وهذا الدين لا يزول من الأرض بل آية أمة أضاعته حملته أخرى تقدر على حمله (يا أيُّها الذِينَ آمنُوا مَنْ يَرْتَدّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوفَ يأتى اللهُ بقومٍ يُحِبُّهم ويُحبونَهُ أذِلة على المؤْمنِينَ أعِزّة على الكافرينَ يُجاهِدُون

فى سَبيلِ اللهِ ولا يَخافونَ لومةَ لائِمٍ ذلكَ فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفضلِ العَظيمِ)

ولما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآية وكان سلمان الفارسى جالسا قال مشيراً اليه هم قوم هذا وقد ظهر هذا فان الفرس هم الذين أبرزوا علوم الإسلام وأغلب حملة العلم منهم كما قرره العلامة ابن خلدون ها نحن ان لم نقم بهذا الدين فربما يأتى المستر والمسيو الانكليزى والفرنساوى فيسلم فيغلبون على أمرنا ونحن الآن فينا بقية من رمق الحياة فهلموا للعمل وثقوا بالله (انْ تنصرُوا اللهَ ينصرْكم ويثبّتْ أقدامَكم) ويرجع مجدكم وربما فقتم الأولين وهنا يظهر سر التوكل على الله تعالى فلما سمع القوم منه ذلك قالوا :

لقد شفيت قلوبنا والحمد لله الذى جعل فى الاسلام رجلا حكيما مثلك يبين للناس مانزل اليهم وأكثر فيه من أمثالك

فقال المجتهد أن بيان أخينا الحكيم الفاضل كاف شاف فى هذا الموضوع ولقد بدا لى فهم انتخبته من فحوى كلامه ومرامى أغراضه وذلك ان القيامة قسمان صغرى وكبرى فاذا مات انسان فهى قيامة صغرى له والقيامة الكبرى هى عند خراب الارض وبين موت الشخص وخراب الأرض يموت أنفس كثيرون وكلما ماتت نفس قربت الساعة الكبرى بمقدارها إذ النفوس الانسانية معدودة محدودة وما مثل النفوس بالنسبة للأرض الا كمثل الانفاس بالنسبة للنفس الواحدة فكلما تنفس الانسان مرة ذهب من حياته جزء وقرب موته بمقدار ذلك النفس فاذا ذهب نفس آخر ازداد القرب وهكذا إذا مات شخص ممن قدر وجودهم على سطح الكرة الأرضية قربت القيامة بمقداره وهكذا كلما هلكت أمة دلت على قرب الساعة أو اشتداد قربها وعلى ذلك نفهم قوله تعالى فى عيسى وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها وقوله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين وقوله (أنا النذير العريان) وكان إذا ذكر الساعة أو خطب يظهر الغضب فى وجهه عليه الصلاة والسلام

وقد ورد فى حديث أن جماعة جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن الساعة فقال (إذا مات هذا فقد قامت قيامتكم) وأشار إلى أصغرهم فيفهم منه أنها اسم جنس وهذا هو الذى فهم من الأحاديث وهو المطابق للأخبار ولكن هذا غير مايفهم عامة الأمة فى هذا لزمان . ولقد كان النبيون ينذرون بالأمرين الاشراط الصغرى والكبرى وكان أكثر عنايتهم بالصغرى لأنها هى المهمة القريبة وعلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ويل للعرب من شر قد اقترب ماذا أنزل الليلة من الفتن لقد فتح الليلة من سد يأجوج ومأجوج كذا وحلق بالسبابة والوسطى) مشيراً الى فتح مسئلة التتار وذلك أن الاسلام كان آخذا فى الانتشار ولما انتشر جهة فارس وخراسان قربوا من بلاد التتار وهم يأجوج ومأجوج فعبر عن مقدمات فتح السد بفتحه كما يقال الصحة مفتاح المرض والشباب مفتاح الشيب والحياة مقدمة الموت اذ كل من التوالى نتائج فهكذا ظهور التتار وهم يأجوج ومأجوج نتائج اتساع الفتوحات ومتاخمة بلادهم لبلاد التتار وانظروا كيف ظهر أثر هذا الكلام بعد ٦٠٠ سنة وخرجوا ودوخوا الاسلام كما أوضحناه فى هذا الكتاب

ثم ان كلام الأنبياء عام لا يخص أمة بعينها فمتى حق القول على أمة هلكت واضمحلت وقد تكون لها بقية فترجع كما كانت ولذلك كانوا يعلمون العلامات الصغرى والكبرى لأن أحوالهم عمومية وكان الكون كله أمامهم ينظرونه بمنظار الكشف فيعبرون عنه بما يوحى اليهم والوحى أمر سماوى عمومى فاذا جاء للأمة أخذ كل بما يناسب قواه العقلية فاذا أراد الله هلاك أمة فهمت أن القيامة ستقوم عليهم ووقفت حركتها واذا أراد اعزازها كان هذا سببا فى نشاطها وعلمت أن هذه المنذرات يقصد بها الأخذ فى أسباب السعادة مرة ثانية أو تكون عقولهم ارتقت ويقارنونها بقوله تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

والأمة إذا يئست من روح الله عدت كافرة ولكنه كفر دون كفر لأن هذا يوجب عذاب الدنيا والكفر الآخر يوجب عذاب الآخرة فقال آخر .

هذا السبب لا يصح أن يكون سبباً لاحداث هذا الفتور العام فى الامة إذ فكرة قرب الساعة كما قلنا شائعة فى جميع الأمم فلم تختص بأمة دون أمة على أن فهمها على غير وجهها جاء من انتكاس القرائح والافهام على الرأى الناشىء من الخمول العظيم المستولى على الكافة وهذا ما نبحث عنه والذى أراه يصلح أن يكون سبباً عاماً انقطاع سلسلة الولاء فى الأمة بين الحاضرين والماضين فلم تتطلع الانفس لمجدها القديم وذلك أن غيرنا من الأمم إذا مات عظيم من عظمائهم نصبوا له التماثيل وألفوا الكتب فى تقريظه وذكر أعماله ونشروا أخباره حتى يعرفه الناشئون فى المدارس والمنازل وعلى ألسنة الناس فى المجالس حتى ينسج الناشئون على منواله ويتبعونه اقتداء بما فعل لما يتولد من روح النشاط وحب التقليد فاذا جاءوا عند تمثاله وقفوا أمامه لم يروا شخصاً أمامهم إلا تذكرة لجميع أعماله فى حياته ويتمثل لهم ان هذا الهيكل رمز لتلك السجايا الحميدة والصفات العديدة الجميلة فيشب الناشئون على سير الآباء ومحبتهم والاقتداء بهم ويحبون أوطانهم أما نحن فان عظماءنا وهم الأولياء والملوك والعلماء لا تقرأ فى سير الكثير منهم الا الكرامات وخوارق العادات ونترك كل عمل جليل عملوه مما ينفع الأمة حتى إذا وقفنا عند الأضرحة لم نعمل بما صرح به علماؤنا من أننا نقف معتبرين فى أحوال دنيانا وآخرتنا ونقارن بيننا وبين صاحب ذلك الضريح . وكيف كانت حياته ونفعه للناس واقتداؤه بالأنبياء ونطلب له الرحمة مكافأة على احسانه (فهل جزاء الاحسان الا الأحسان) ونقتدى فى أفعالنا (فبهداهم اقتده) وعلى ذلك تخطينا كل الأعمال الشريفة ووقعنا فى هاوية لا مرد لها إلا إذا عقلنا وفهمنا كتاب الله على وجهته

ولذلك لا ترى انتشار سيرة سيدنا عمر وعثمان وعلى وغيرهم من أكابر الصحابة ولا التابعين ولا الملوك العادلين من العباسيين والأمويين وانما المنتشر على الألسنة بين العامة والخاصة بعض كرامات للأولياء الصالحين والاقتصار عليها مع ترك ذكر الأعمال العظيمة لنفع الأمة وهذه قصة سيدنا الحسين وعلى ومعاوية نراها شائعة ولا

تذكر فضائلهم إلا تبعا وانما المذكور فى الغالب المشاجرة التى أمر العلماء الاتذكروكان الواجب أن تنشر فضائلهم بين الامة ليقتدى الناس بهداهم . ونرى أن المؤرخين يجمعون الحوادث من حيث هى بقطع النظر عن تأثيرها فى النفوس وانما يأتون بكل ماسمعوا مع أن التاريخ حدث فى الامم للاعتبار والاقتداء ولم نجدمنهم من ألف تاريخاً يقصد النفع والتأثير على الافئدة والنفوس بفضائل الاعمال العمومية فيرون التاريخ من حيث مصدره لامن حيث نفعه وتأثيره مع أن الامم الغربية عرفت تأثير ذلك فبحثوا عن سير علمائهم ولخصوا الحوادث تلخيصاً يولد فى الناشئة رغبة صالحة . ولعمرى أن الناشئة متى سمعوا قصص أسلافهم مشحونة بالحرب والضرب والقتال والخداع قلدوهم فى أعمالهم وعلى ذلك نرى قصة أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة وعنترة العبسى وسيرة شائعة بين عامتنا .

فياليت شعرى كيف يفلح قوم شاعت هذه القصص الجاهلية بينهم حتى اننا نرى العامة فى القرى والامصار عندنا بالبلاد المصرية مولعين بهاتين القصتين شبانهم وشيوخهم وصغارهم وكبارهم فانا لله وانا اليه راجعون[1] .

وما قصص الغابرين من الأمة مع الحاضرين إلا كسلسلة اتصل أولها بآخرها فاذا قطع ذكرهم انقطعت السلسلة من الأذهان فتدهورت الأمة وضلت تائهة حتى تأخذها أمة أخرى وتحفظ أنسابها وأشعارها وتاريخها وتنسى سلسلة قومها

ولقد عرف الانكليز ذلك فجعلوا قومهم قسمين محافظين وأحرار فالمحافظون يدرسون الماضى ويبقون كل قديم على قدمه ليبقى نظام الأمة متصلا كما كان أولا ويتصل أولها بآخرها وتبقى رابطتها قوية والأحرار يأتون لكل جديد فيمزجونه بالقديم فيأتون بكل اختراع حادث علما منهم انهم ان انقطع نسبهم عن الأمم المجاورة لهم فى المعمورة تألبوا عليهم وغلبوهم فى الصنائع والمعاملات فأخذوهم فكل أمة تركت مجدها القديم أو لم تنظر للجديد ولم تجار جيرانها هبطت وانحلت واختلت

(١) ليفكر من بعدنا فى هذه القصص وليهذبوها ويبقوا النافع منها حتى تصلح لسماع الجمهور

فبالأول تذهب قوتها وجيشها و بالثانى تنقض عليها الأمم وتنقطع عن سابقتها فتتدهور فى الهاوية و بئس المصير فوجب علينا أن نسلك الطريقتين ونعمل بالأمرين ونقرأ سير الأولين منا ونؤلف تأليفاً نافعا مؤثراً وأن نجارى الأمم حولنا ونستعين بالله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

فقال الأديب اننا نرى فى الأمة جزءاً صالحا من شعائر القومية وارتباط السلسلة ولكنه يحتاج إلى اصلاح وتفليح فلا يصلح هذا أن يكون سببا بل هو من العوارض والذى أراه يصلح سببا عاما جهلنا بأساليب الروايات وهى من الفنون الجميلة أضاعته الأمة وحفظه الغربيون والفنون الجميلة كلها مشوقة للنفوس إلى ما يراد منها والخياليات والروايات أعظم مايقود الأمم للترقى والنجاح وما تركنا هذا إلا لجهلنا بمقصود القرآن والحديث فاننا قصرنا أفكارنا وأضعنا أعمارنا فى استنباط الأحكام الفقهية التى بها نعبد و بها نحكم بين الناس مع أن كلا من العبادة الفقهية والاحكام بين الناس انما هى ظواهر ومقدمات ولها نتائج ونهايات فالعبادات لتفريغ النفوس عن الشواغل إلى المعبود وهذا هو المقصود و إذا لم يحصل فهى قاصرة وهكذا الأحكام بين الناس ماشرعت إلا لفساد الأخلاق والمنازعات بين الأفراد وأرقى منها تهذيب أخلاقهم التى لايحتاج معها إلى تلك الأحكام ولا ريب أن فن الخياليات والروايات كما قيل يسوق النفوس بالوعظ إلى الخالق يشوقها إلى الكمال والآداب التى هى الثمرة المطلوبة فلا يكون هناك دعاوى ولا بينات فهذا الفن يوصل للقرب من الخالق والخلق وهما نتائج جميع الديانات إذ الكون مؤسس على الحب وهو أرقى من الخوف والعبادات والأحكام السلطانية أقرب إلى الخوف وصلاح النفوس وكمالها بالحب وهما النهاية والحب أقوم الأمرين وأفضل الطريقين وأعدل الحكمين .

ولهاتين الغايتين جاء القرآن بقصص الأنبياء والصالحين والملوك والفراعنة والجبابرة وذكرها فيه أكثر من ذكر الأحكام والعبادات اشارة إلى ماقلناه والروايات إما على ألسنة الحيوانات أو الجمادات أو الانسان وهذه الأخيرة تارة عن رجال معروفين وتارة عن مجهولين والأولى إما أن تكون حقيقية أو غير حقيقية ومن الحقيقية

قصص القرآن ومن غير الحقيقية مقامات الحريرى و بعض فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ومما جمع بينهما ألف ليله وليله ومما جاء على ألسنة الحيوانات كتاب كليله ودمنه وكثير من الكتب توضع على هيئة محاورة بين الجمادات ولكل وجهة هو موليها فما وضع على ألسنة الحيوانات والجمادات أسلم عاقبة وأنفع مما وضع على لسان الانسان ون أصل لالتباس الحق بالباطل ولذلك كثر الخلط فى التاريخ بشيوع ألف ليله وليله ونحوه من كتب الروايات ما علمنا ومالم نعلم فلكونها على ألسنة الانسان اشتبه الحق بالباطل وفسدت العقول بعلم التاريخ لما يوردون عن هارون الرشيد وخلفاء العباسيين مما لايجوز فاقتدى بهم كثير من أمراء الأندلس والشرق فضاعت الدول الاسلامية ولم يكن مثل هذا من كتاب كليله ودمنه الذي وضعه الهنود وترجمه الفرس فالذى على ألسنة الحيوانات لا خلط فيه فمثل رواياتنا جعلت لترقية العقول ولكنه نعم السير على بئس العير أما قصص القرآن فقد جاءت حكاية عن الأنبياء ولم يكن فيها إلا الحث على كمال النفوس الانسانية

ولعمرى أن الناظر فيها يعجب جدا من اقتناص مارق وراق من تواريخ أولئك الأنبياء مما يلائم التوحيد وتهذيب الأخلاق والعدل وحسن النظام مع أن حياة كل منهم فيها أمور متفرقة لاتنحصر فواعجبا لحسن هذا النظام البديع المبهج الجميل ولقد عرف من نزل عليه الناموس مغزى تلك القصص وهو الاعتبار فأباح الروايات على اختلاف أنواعها وقال عليه الصلاة والسلام حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج فالمقصود من الحكايات مصادرها لا مواردها لأن فى النفوس البشرية ميلا إلى الكمال والمحاسن بفطرتها وتلك الأقاصيص المروية عن بنى اسرائيل التى كان يحدثهم بها فى أغلب الليالى ولم يجعل عليهم حرجاً فيها إذ هى تحرك مافى النفوس من التحسين والتقبيح بالفطرة وأباح عليه الصلاة والسلام للأمة أن تأخذ الروايات من حيث هى حكم ومواعظ بقطع النظر عن موردها وانما المعتبر مضاربها كما قاله علماء البيان من أنها جميعها استعارات تمثيلية وقال تعالى (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) ولهذا

شحنت كتب التفسير بروايات بنى اسرائيل وكان الصدر الأول يعرفون ماقلنا فخلف من بعدهم خلف غيروا ما بأنفسهم من العلم فتغيرت الأوضاع فظنوا ما نقل عن سليمان وأيوب ويوسف مما ذكر خارج القرآن فى الروايات أمورا محققه فضل البعض فيها والبعض كذبها وقال لا أصل لها ثم خلف آخرون وصاروا يقولون أن الأمة العربية قوم يجمعون الخرافات ويؤلفون المفتريات وهذه كلها من الانتكاس على الرأس وإتيان البيوت من غير أبوابها حتى زاد بعضهم فى الطين بلة ورجع إلى قصص القرآن وأخذ يطبقها على التاريخ وتارة يثبت وأخرى ينفى

ولعمرى أن قصص القرآن لم يكن القصد منها أن تأتى لتراجع على التاريخ وإنما القصد نتائجها والنظر فى عجائبها والانتفاع بها وأما النظر إلى أصل القصة فهو جهل وشك وإن كانت نفسها حقيقة ومتى عدل بالشىء عن قصده كان ضره أكثر من نفعه فساء مثلا القوم الجاهلون ولقد أشار عليه السلام إلى ذلك بقوله لاتضربوا القرآن بعضه ببعض .

النظر فى الروايات أمر طبيعى فى البشر هو مبنى قوامهم وعليه يدور رحى مجدهم فمهما عرفت الأمة أن القصد منها غاياتها فهى بخير ومهما رجعت إلى أصلها فهى ضالة وشاهدنا على ذلك ما كان من الصدر الأول من المسلمين فانا لم نسمع منهم غير الفهم والتفهم والتعقل وهاهى أمة الإفرنج الآن لايزالون يؤلفون الروايات وهم يعلمون أنها خيالية ولعلها إذا مضت فترة من الزمن يأتى قوم آخرون فلا يفهمون ويقولون أنهم مخرفون كما جاء متأخروا الاسلام فظنوا أن أسلافهم مخرفون فى كتاب ألف ليله وليله وغيره

ومن جهلنا بالقصد من قصص القرآن أن الكثير من المتعلمين أصبحوا لايلوون على الاعتبار بها ولا تذكرها بل علماء الفقه أنفسهم والمحدثون لم نرهم يستيقظون قط اليها لظنهم أن الفقه هو المقصود والمهم من القرآن فضيعنا جزءاً عظيما من ديننا

وبعض الناظرين فى تلك القصص يقول مالنا نراها مكررة وهلا ذكرت مرة واحدة ساء مايفهمون أو ماعلموا أن القصة تذكر تارة تفصيلا وأخرى اجمالا وأخرى بين

ذلك بحسب المقامات واختلاف الأحوال وتباين الأغراض فيستشهد فى كل مقام بحسبه بحال من أحوال صاحب القصة ولنوضح هذا الاجمال بقصة ابراهيم إذ ذكرت فى سورة الانعام لمجرد الاستدلال على الله تعالى

فذكر ذم الأصنام ثم البرهان بأفول الكواكب والقمر والشمس على مدبر الكون كله وفى سورة الأنبياء ذكر محاورة بينه و بين قومه فى الأصنام وتكسيرها وادخالهم له فى النار ونجاته منها وانعم الله عليه بعد ذلك فقال :ولقد آتينا ابراهيم رشده الآيات :

وذكرها فى سورة الشعراء فشرح كيفية دعائه فقال وان من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم فذكر محاورة بسيطةفى الأصنام ثم شرع يصف الخالق وتدبيره فقال الذى خلقنى فهو يهدينى والذى هو الى أن قال رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين وضمن دعاءه ذكر الجنة والنار والتعريض بقومه انهم غاوون

فنى المرة الأولى أرانا الحجج العقلية وفى الثانية كيف يكون أنعام الله على من نصب نفسه لنفع الامة وكيف يؤيده متى صدق فى نيته ولذلك صدرها بقوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فأشار إلى أن الخالق متى علم من عبد صدق نيته فى نفع أمة نجاه من الاعتداء ونصره وفى الثالثة ارانا كيف يكون الاخلاص لمدبر الكون وكيف يكون الدعاء والتعريض فى الكلام لجلب الخصوم ومقامنا هذا لا يسع تفصيل القصص وأنتم أيها السادة خلاصة من الأمة فمثلكم من يكتفى بالقليل عن الكثير وجميع قصص القرآن على هذا النمط على أن فى تكرارها فوائد تعلم الأمة كيف تؤلف الكتب ومثل القصة فى القرآن كمثل كتب تؤلف فى موضوع والنفس كثيرة السآمة فلا تكاد تثبت على حالة واحدة فاذا قرأت القصة فى موضوعين أو مواضع فى كتابين أو كتب كان لها أشوق وأثبت ولقد نعلم أن الأمم الغربية والشرقية يحيلون على المؤلفات فى تأليفاتهم فينشط القراء لها وهى من أجمل الحيل فى التعلم

ولما غفلنا عن تلك القصص هدمنا كثيرا من بنيان مجدنا وسبقنا اليه الغربيون

وتفرقنا شيعاً وذاق بعضنا بأس بعض ولو عقلنا بعضها لم نتفرق ومن لنا بحكيم يجمعنا على كلمة واحدة ويقص علينا موضعاً رائقا من قصة ابراهيم وهو قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات الى قوله (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) فان هذه الآيات تعلمنا كيف تجتمع الأمة وهى متفرقة فقد ذكر فيها اخلاص ابراهيم واسماعيل فى بناء البيت ودعائهما وانه لما مات وصى بنيه وذكر ان من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من يأمر بالنصرانية ومنهم من يأمر باليهودية وتغالى بعضهم فادعى ان أولاد ابراهيم كانوا يهوداً أو نصارى فأمرهم بالرجوع الى ملة ابراهيم وهو أصل هذا الدين وهو التوحيد بالبرهان وأن النصرانية واليهودية أشبه بالفروع من الأصل و بينهما فرق فى الأعمال والاحكام لافى التوحيد والاعمال والاحكام تتغير بتغير الزمان وقد ذهب الزمان المناسبة له تلك الاحكام فبطلت ببطلانه فلنرجع الى أصل دين ابراهيم وهو التوحيد ولا جرم ان كل أمة من الامم راضية عنه فالمرجع اليه أولى من الشقاق والانقسام

هذا هو مغزى تلك الآيات

ولعمر الله انها لم توضع فى القرآن لمجرد سرد حكاية وانما علم الله اننا سنقع فى هذا الانقسام فذكرها ليأتى قوم حكماء فيقلدون سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ويجددون شريعته التى مزقتها الخلافات وصاروا فرقاً شتى ويقولون أن علماء الأمة كأنبياء بنى اسرائيل ومثلهم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم كمثل أولئك الانبياء لابراهيم وكلهم مصدق بربه ونبيه وكتابه فوجب أن نترك المنافسة فى أمر الصحابة والخلفاء ، لأن هذا ليس من الدين فى شيء وانما هى أمور عارضة ليس لها دخل البتة ونتحد فى الامر العام وهو الخالق والقرآن والنبي وكل يعمل على شاكلته ولا ندخل الاشخاص والتشيع فى ديننا ونقول لمن يتعرض لأحد الأئمة رضوان الله عليهم من آل البيت أو غيرهم من العلماء وأكابر الأمة . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ويترك كل واحد التعصب لمذهبه ، فمثل

الحكيم منا كمثل النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء كالأنبياء وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كابراهيم ودعوة نبينا لتابعي الأمم بتوحيد العقيدة مع الأمر باحترام جميع الأنبياء كدعوة حكيمنا باتباع القرآن والخالق والنبي ونبذ الشقاق واحترام كل مذهب بدون تعصب لأحدهم من آل البيت أوغيرهم وتعظيم كل عظيم من عظماء الأمة فيقول آمنا بما أنزل الينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد فلم هذا الشقاق

ولقد علمت أن قصص ابراهيم جاءت لأمور كثيرة :

(١) برهان التوحيد

(٢) كيفية المحاجة و بيان صنع الله بمن صبر على الجهاد

(٣) كيفية الدعوى و إدخال النصيحة فى قالب الدعاء

(٤) كيف تجتمع العناصر المختلفة من الديانات المتفرقة

وغير ذلك مما لم نذكره و إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لوحدة الدين مع اختلاف الأنبياء فما بالك بمن يدعو لاتحاد أجزاء دين واحد فهو أسهل ولذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك الآفاق ككسرى وقيصر وغيرهما ومما كتبه الى هرقل عظيم الروم :

(و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

ومما يشير إلى هذه الطريقة قوله تعالى (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) كأننا مأمورون بالدعوة لأصل الدين عند الاتفاق كما دعا صلى الله عليه وسلم إلى اتباع الأنبياء له عند اختلاف الديانات

مقاصد علم التاريخ

ومما تفيده تلك القصص من حيث الأسلوب أن يكون تأليف علم التاريخ لمقاصد

وغايات ينتحلها المؤلفون كما يفعل مؤلفو الأمم الأخرى فاننا ما رأينا قصة فى القرآن ذكرت إلا لغاية مطلوبة اختلفت طرقها واتحدت وجهتها وعندى أن هذا أعظم معجزة إذ كيف يستخلص من قصص كثيرة متفرقة متباينة نبذاً مخصوصة لمعان متقاربة تنحصر فى الله والرسل والمحاجات وتهذيب الأخلاق والبعث والحشر والميعاد من الثواب العقاب فعلينا أن نتحرى هذه الطرق ونسلك عند تأليفنا مسلك الارشاد لا الأخبار وإذا كان المقصود من القصص الحث على الفضائل والعقائد فمن قارنها بالتاريخ فقد رجع بها عن أصلها وضل سواء السبيل ومثل من يقرأ هذه القصص ويرجعها إلى التاريخ الأصلى كمثل من يقرأ القرآن والتفسير ويطبقه على النحو والصرف وعلوم البلاغة مقتصراً على ذلك فهؤلاء قوم ما علموا المقصود منه بل خرجوا به عن موضوعه وأتو البيوت من غير أبوابها فلم يفلحوا

فباب القرآن ليس هو التعمق فى العلوم العربية ونحوها ولا التطبيق على التاريخ ساء مثلا القوم الغافلون ولسنا بهذا نذم هذه العلوم فاننا ما عرفنا إلا بها وإنما قلنا أن المقصود وراءها لاهى فمن وقف عليها فهو الضال سواء السبيل .

فى الجملة ففن الروايات فن جميل جهله المسلمون فى كتابهم فجهلوا ثمرته وغفلوا عن أفهام أسلافهم فيه وضلوا مافى كتب التفسير من تلك الروايات عن الأنبياء ظناً منهم أنها حقيقية مع أنها خيالية وليس الحقيق إلا ماجاء به لفظ القرآن منها فحسب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث بها الحديث الليل كله لعلمه أن القصد ثمرة الحديث لا هو وفرق ما بين ما يراد لنفسه وما يراد لغيره وان هذه كلها استعارات تمثيلية ولقد سبقنا الغربيون اليه وضللناه .على هذا أصبح الناس يقرءون سورة يوسف فى القاهرة كسماع قصة عشق وماعلموا أنها مقصودة للعفة والصبر والاحسان إلى العشيرة والعفو عن المذنب عند القدرة وحسن السياسة وترك الزنا وحبس النفس عن الشر وإكرام الأخوة وعدم مؤاخذتهم وغير ذلك ولقد خصت قراءة القرآن بأوقات الأفراح والمآتم وما علموا أنها إنما تكون لنفوس تحيا حياة طيبة بالفهم والعلم .

البرهان والتقليد

فقال السائح هذا أقرب الى الدواء منه الى الداء إذ هو جاء لبيان طريقة الاصلاح ونحن الآن نبحث عن الداء والذى أراه أن هذه الأمة لم تتعمق إلا فى مسائل الأولياء والكرامات وخوارق العادات فقال له الصانع أتنكر كرامات الأولياء فقال لا ولكنى أقرر ما خطر بنفسى فيها وما حكمتها فقالوا امض فى هذا الحديث فقال :

إن هذا الكون مؤسس على نظام وحكمة علية فائقة ومنها أمر الدين . فأية أمة كان فكرها راقياً عرفت دينها بالبرهان و إن سقطت أفكار أفرادها وتفرقت أهواء عقلائها فانهم لا يعرفونها إلا بخوارق العادات وقد أرسل صلى الله عليه وسلم والقرآن أعظم معجزله لأنه راجع الى العقل والفكر وهو الباقى لآخر الزمان أما تلك الخوارق فاذا توقف عليها إيمان الأمة دل على انحطاط أفكارهم ونكوصهم وضعفهم عن فهم دينهم كما نص على ذلك الشعرانى وكان الله لما رأى سرعة شكهم أتى لهم بتلك الكرامات ليطمئنوا علماً منه بأنهم ليسوا مستعدين للتصديق والإذعان بنفوسهم

وهذه الاسلامية فى صدرها لم تكن فيها تلك الكرامات الا قليلا مما وقع لعمر وأبى بكر ونحوهما رضى الله عنهما والايمان المبنى على الخوارق وحدها ضعيف كما حققه الغزالى فى قوم موسى اذ ارتدوا حين رأوا عجلا من ذهب جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم و إله موسى وذلك لأن عالم الشهادة والحس يكثر فيه الخطأ والغرور وعلى هذا ورد قوله تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفاً

ولقد علم الناس ناقة صالح وكيف شاهدها قومه فكفروا فأراد الله أن يجعل معجزات نبيه فى أفكارهم وعقولهم لا فى حسهم الذى يقع فيه الغلط وكان ارسال الآيات الحسية لمجرد الأخذ بحسب الظاهر أو التخويف ولا ريب أن الخوف لا يدوم الاتعاظ والانزجار به انما الذى يدوم الاعتبار بالعقل والفهم والحكمة والموعظة الحسنة

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (أناجيلهم فى صدرهم) كسحرة فرعون الذين آمنوا ايماناً ولم تتغير عقيدتهم بعد بخلاف قوم موسى

وبالجملة فأمتنا الآن تحتاج الى زيادة نور فى الايمان وتثبيت فى العقيدة وفهم للقرآن كما كنا زمن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين وينبنى على ذلك علو الفكر فيسمو من البسائط الى المركبات و يعلمون أن التوحيد ليس أمراً بسيطاً فاذا بقى التوحيد فى القلب ولم يصل للعمل فهو ناقص وما الدين الا قول واعتقاد وعمل فاذا اعتقدنا ولم نقل أو قلنا ولم نفعل فنحن لم نزل فى البسائط ولم نخرج منها الى المركبات ونبقى عبرة للأمم وأول الدين أمر بسيط ونهايته سياسة

العلوم الرياضية والطبيعية

فقال العالم المتبحر فى العلوم أن هذا يصلح أن يكون من الأسباب الداعية لموت الشعور اذ الناس تبقى أفكارهم منحصرة فى أمور جزئية ولاينظرون للكليات ولكنه لا يكفى وحده لعموم هذا الفتور

والذى يصلح أن يكون سبباً فى عموم هذا الفتور اهمالنا العلوم الرياضية والطبيعية مع أنها أصبحت لازمة للحياة لزوم الجسد للروح وأصبحنا نحتاج اليها فى أصغر الصنائع وأدقها وأكبرها وأعظمها وليس احتياج الخياط لها أقل من مسيس حاجة مدير الكهرباء والبخار فى سير القطار وليس لزومها للماديات بأقل من لزومها للعقليات

وهاهو القرآن الكريم يقص علينا قصص الأمم الغابرة تارة و يذكر حكم الكون اخرى وهذه العلوم قد أبانت فى الاكتشافات الحديثة مايدهش الحكماء من أعاجيب الخلقة و بدائع الحكمة فى الطبيعة والكيمياء وما فيهما من مقادير معينة فى المركبات وتناسب المقادير تناسباً عجيبا حتى انها سارية بقوانين لا تتعداها فاتضح بها قوله تعالى وكل شىء عنده بمقدار وقوله وأنبتنا فيها من كل شئ موزون وقوله وهو أسرع الحاسبين وقوله ان الله سريع الحساب وقوله والذى خلق كل شىء فقدره تقديرا وقوله

الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقوله انا كل شيء خلقناه بقدر وقوله الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وقوله والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وقوله وأنزله من السماء ماء بقدر وقوله وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وقوله الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وقوله وكفى بنا حاسبين وقوله أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد وقوله شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم وقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أوفى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير وهذه الآيات كثيره يطول شرحها منتشرة فى القرآن كأنها جواهر منتثرة فلنقتصر على ما ذكرنا وكفانا هذا الاجمال .

فقال له الأديب

ايضاح فى العلوم الطبيعية

أيها الفاضل أفض فى هذا الموضوع وفصل الكلام تفصيلا فان الاخوان كلهم آذان صاغية وأننى طالما كنت أقرأ فى كتب الأقدمين أن جميع الموجودات وضعت بمقادير هندسية وحسابية وكنت أراهم يسمونها نسباً تأليفية ويقولون انها أفضل النسب لجمعها بين الهندسية والحسابية وهذه العلوم المكتشفة حديثاً قد أوضحت الأشياء إيضاحا تاماً وأنت بها خبير فأوضح المقام وغرابته فانه من ملحقات البحث فى الاسلامية وما آل اليه أمرها وعلاقة هذه العلوم بها فان المسلمين اذا علموا أنها تفسر القرآن وتجعل معناه ظاهراً فى الطبيعيات نشطت عقولهم من عقال الجهل الى حرية العلم

فقال إن العالم مركب من أجسام كثيرة وعناصر متباينة تزيد عن سبعين عنصراً وهذه العناصر هى التى وصل إليها الاستكشاف الآن وقد كان الأقدمون يعتبرون البسائط أربعه فقط وهى الماء والتراب والهواء والنار فأصبح ما كان بسيطاً عند

الغريبين والمراد بالعنصر ما لا يمكن تحليله إلى جسمين آخرين وهذه العناصر منقسمة إلى قسمين معادن وغير معادن تسمى أيضاً فلزات والمعادن أجسام صلبة كلها إلا الزئبق وهى موصلة للحرارة والكهربائية بحيث أن الكهربائية والحرارة إذا وصلت إليها أسرعت فيها كما تسرع النار الاشتعال فى الحطب وهى تلمع متى صقلت كما هو مشاهد فى النحاس والحديد والذهب والفضة والخارصين والرصاص وغيرها حتى أن الأقدمين كانوا يتخذون المراءات من الحديد فيصقلونها حتى تصير كالزجاج .

والعناصر التي ليست معدنية وتسمى لافلزية تكون على الأحوال الثلاثة المادة وهى الغازية والسيولة والصلابة كالهواء وكالماء وكالأحجار ومنها عنصر يسمى الاكسوجين وآخر يسمى الأدروجين وهما يتكون منهما الماء ومتى حلل بالآلات انفرد كل عنصر بنفسه كما يحلل الماء إلى أكسوجين وأدروجين ومن عجيب الاتقان أن كل عنصر له هيئة مخصوصة فالاكسوجين الذى هو أحد ركنى الماء جسم كثير الوجود فى الكون داخل فى الهواء والماء والصخور والأحجار فاذا انفصل منها صار جسما غازياً كالهواء عديم اللون والطعم والرائحة يقبل السيولة بضغطه ضغطا عظيما أو تبريده تبريداً شديداً وهو أثقل من الهواء قليل الذوبان فى الماء وليس الاشتعال الذى نراه فى غاز الاستصباح والبترول والزيت إلا من اتحاد عناصر هذه الأجسام وإذا اتحد معه الأدروجين صار ماء طهورا والأدروجين اسم مشتق من كامتين يونانيتين معناهما المولد للماء ووجوده على حالة الانفراد نادر جدا ولكنه كثير الوجود فى الكون على حالة الاتحاد فى الماء والمواد العضوية الحيوانية والنباتية وهو غاز يسيل بضغطه ضغطاً قوياً و بتبريده تبريداً شديدا وهو أخف الأجسام المعروفة يلتهب بلهيب باهت قليل النور شديد الحرارة وإذا وضع فيه جسم متقد تارا ينطفىء بسرعة فهذا الغاز غير صالح للاحتراق ولا للتنفس فاذا وضع فيه حيوان مات مختنقاً لعدم وجود أكسوجين معه وهذه الصفات بلا ريب تخالف صفات الاكسوجين وذلك انه إذا وضع فيه سلك من حديد ملتف لفاً حلزونياً وفى طرفه قطعة من الصوفان متقدة فان السلك يلتهب

و ينتشر منه قطع صغيرة وصلت حرارتها إلى درجة الاحمرار وهذا الاحتراق حاد جداً يدوم بدوام الأكسوجين

وبالجملة فالأكسوجين والأدروجين مختلفا الصفة فالأول يحرق والثانى يطفى والأول حار جداً والثانى بارد جداً والأول يتجه عند تحليله إلى القطب الموجب فتكون كهربائيته سالبة والثانى إلى القطب السالب فتكون كهربائيته موجبة فان الأجسام المكهربة تطلب أضدادها دائماً

فتأملوا أيها الاخوان كيف وضع صانع هذا الكون هذين الجسمين مع بعضهما وهما متنافران متضادان فى الصفات فكونا شيئاً واحداً آخذاً صفات متوسطة وهى الماء الذى جعله الله حياة كل حى وما أشبه هذا التركيب بتركيب نوع الحيوان من ذكر وأنثى و باتحادهما دام الوجود

وما ذكرت هذا إلا مثالا واحداً لتعلموا أن كل جسم فى الكون سار على هذا النسق أفراداً وتركيباً واختلافاً وائتلافاً . ولأذكر لكم كيف اتحد هذان الجسمان وما مقاديرهما وكيف ظهر هذا السر ووافق المعقول المنقول لتقيسوا عليه جميع المقادير فى الكمياء فإن جميع التراكيب فى الكمياء تنقاد لقانونين القانون الأول قانون (المقادير المحدودة) وهو أن نسبة مقادير الأجسام المركبة لبعضها تكون ثابتة لاتتغير وبعبارة أخرى أن اتحاد الأجسام ببعضهما يكون بمقادير محدودة ثابتة فى كل حركة .

القانون الثانى قانون النسب المتضاعفة ويسمى قانون دالتون وهو (إذا اتحد جسمان ببعضهما وتكون عنهما عدة مركبات فلو بقيت كمية أحدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة) .

ولنوضح القانون الأول فى مثالنا وهو الماء فنقول :

إن الماء مركب من ذرة واحدة من الأكسوجين وذرتين من الأدروجين فإذا حللنا الماء نجد الذرات الداخلة فى تركيبه من الأكسوجين نصف الذرات الداخلة فيه من الأدروجين فأي مقدار من الماء حللناه وجدناه هكذا الثلث فى الحجم أكسوجين

والثلثان أودروجين وفى الوزن نجد أن ذرة الأكسوجين (الذرة عندهم هى أصغر جزء وصل إليه العنصر) قدر ذرة الأودروجين ست عشرة مرة والذرة الواحدة من الاكسوجين معها ذرتان من الادروجين وحينئذ يكون نسبة الاكسوجين إلى الادروجين كنسبة ثمانية إلى واحد

وحينئذ يقال :

١ : ٨ : : ٢ : ١٦ : : ٣ : ٢٤ : : ٤ : ٣٢ : : ٥ : ٤٠ وهكذا إلى مالا يتناهى

من مياه الارض حميعها وهذه نسبة هندسية و بالنظر لمقادير أحدهما وحده تكون نسبة عدديه فكأن العنصرين لم يتحدا إلا على نسبة عددية ونسبة هندسية معاً وهذه القاعدة كما قلنا سارية فى الماء كله

وهذا بعض الحساب والميزان وغيرها الذى ذكره الله فى القرآن حتى أن الماء لو دخل فيه ذرة من الايدروجين مثلا زائدة عن هذه النسبة فانه لا يقبلها كما يشاهد فى العمليات الكيماوية فى تحليل المواد وبهذه نفهم قوله تعالى (يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله)

فانظروا كيف عبر بالذرة التى عبر بها الكيماويون وفهموا أن جميع الذرات فى الصخر وجميع الأجسام لايمكن أن تختل عن مقاديرها المعينة ثم أعقبه بقوله (إن الله لطيف خبير) مشيراً إلى اللطف فى التدبير ومعرفة بواطن الأشياء فهذا وأمثاله يفهم آيات القرآن . وقال تعالى (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وقال وما تكون فى شأن وما تتلومنه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) فتأملوا كيف ظهر وزن الذرة المذكورة وكأن الناس أصبحوا بهذه العلوم يشاهدون هذا الحساب المتقن الذى هو كتاب مبين و إنما قال ولا أصغر من ذلك ولا أكبر مع أن الذرة لم يمكنهم تحليلها

إلى أقل منها لأن علماء الغرب لايزالون يقولون أن الذرة تقبل التحليل الذى لم تصل إليه .

فهذا هو الميزان السارى فى الكون كله ، و بهذا وأمثاله نفهم قول قدمائنا أن الحب سار فى الموجودات كلها وقولهم أن بين الكائنات نسبة محفوظة وهذه النسب بعينها كنسب الحروف السواكن والمتحركات فى علم الشعر وعلم الموسيقى فانهما من واد واحد كالمقادير الكيماوية فان بحر الوافر مثلا وزنه مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن نسبة عدد الأسباب فيه إلى الاوتار كنسبة ١٠ إلى ٦ وفى نصفه كنسبة ٥ إلى ٣ فهى نسبة هندسية منفصلة وما فيه من العلل والزحافات فهى كمرض فى جسم الحيوان

و إذا نسبنا الاسباب لبعضها والاوتاد كذلك كانت نسبة عددية ٣٠ : ٦ : ١٢٠٩ وهكذا أو ٥ إلى ١٠ إلى ١٥ إلى ٢٠ وهكذا أى فى شطر وشطرين وثلاثة وهكذا ، ونسبة السواكن إلى المتحركات كنسبة ٦ إلى ١٣ فنقول الشطر فيه ستة حروف سواكن و١٣ حرفاً متحركا ونقول ٦ ١٣ : ١٢ : ٢٦ : ٢٤ . ٥٢ فهى هندسية و إذا نسبنا السواكن إلى بعضها والمتحركات كذلك كانت نسبة عددية ، وهكذا جميع أوزان الشعر .

فيظهر أن مقادير الكيمياء هندسية حسابية كمقادير أوزان الشعر ومثلها الموسيقى أيضاً واكتفينا عن الكلام فيها بالشعر لأنهما من أوزان متقاربة جداً موضوعة على هذه النسب المحددة وما أشبه هذه المقادير المتناسبة بمقادير حساب الكواكب الجارية فانها كلها تجرى بحساب متقن .

وكل هذا الكون جار على مثل هذه النواميس ، وكم من عاقل ينظر فى ميزان القبان ولا يعلم أنه موضوع بنسبة هندسية حسابية عرفها أهل تلك الصناعة حتى أن نسبة الذراع القصير إلى الذراع الطويل كنسبة الرمانة إلى ما يوزن معادلا لها وهكذا السفينتان العائمتان على وجه الماء نسبة وزن إحداهما إلى وزن الأخرى كنسبة الفراغ الذى شغلته إحداهما فى الماء إلى الفراغ الذى شغلته الأخرى أو كنسبة وزن الماء

الذى أزاحته إحداهما إلى الذى أزاحته الأخرى وهكذا الحجر النازل والنسبة التربيعية التى يتوالى تضعيفها بقانون محدود كلما نزل الحجر فكل هـذه تعرفنا ما ذكر من الآيات وقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان)

فها نحن من هذه العلوم أصبحنا نعرف معنى هذا الميزان الذى سرى فى الكون كأنه مشاهد بالبصر من شدة وضوحه وهذا هو القسط والوزن والحق

ولما كان فن الكيمياء مبنياً على نسب هندسية وحسابية وضعوا معادلات كمعادلات الجبر حتى أصبح معنى هذه الآيات محسوساً وحق علينا قوله تعالى

(وكاى من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)

وإنى أعوذ بالله أن نقول أن قلوبنا غلف كما قال اليهود لصاحب شرعنا فحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين

ولقد عرف علماء الغرب أن جميع هذه الذرات المكونة منها العوالم متحركة دائما حركة سريعة كحركات الكواكب وهذا غامض جداً على من لم يقرأ علوم الطبيعة وإذا كانت كلها متحركة وهى على تلك النسب المذكورة فحركاتها موسيقية طبعاً وتكون أصواتها لذيذة إذا صفت النفوس وخلصت من عالمنا الذى نحن فيه وبهذا عرفنا معنى قول فيثاغورث أن العالم مركب من موسيقى . وهناك تفسير آخر لهذا القول وهو أن الموسيقى لا يقصد بها إلا النسب المحدودة المذكورة آنفاً وإنما ذكرت الموسيقى لأنها أظهر منها وأسهل وأوضح

وأما المركبات العنصرية فهى صعبة الفهم على غير المتعلمين وإذ فرغنا من ذكر القانون الأول فلنبين الثانى وهو قانون النسب المتضاعفة ومثاله اتحاد الأزوت بالأكسوجين فانه يكون خمس مركبات الأول يحتوى على ١٤ من الأوزوت و١٦ من الأكسوجين والثانى على ١٤ من الأوزوت و١٦ × ٢ من الأكسوجين ، والثالث على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٣ والرابع على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٤ من الأكسوجين والخامس على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٥ من الأكسوجين

فنسبة مقادير الأزوت لبعضها المساواة ونسبة مقادير الأكسوجين لبعضها عددية لأنه يزيد ١٦ دائما ونسبة مقادير الأوزوت فى كل واحد من المركبات إلى الاكسوجين تكون هندسية ولا أكتف بهذا القدر فانى أطنبت فيه لما أرى من تخاذل عقلائنا وخاصتنا وعامتنا فى العلوم ، وظنهم أنها تخالف الشريعة مع أنها هى سرها وخلاصتها إذ بهذه المقادير والنسب المحفوظة ، ذقنا الطعم وشممنا الريح وسمعنا الصوت وأبصرنا الكون ولمسنا النعومة مثلا فما كان على النسبة الجميلة قبلته تلك الحواس وما ليس عليها لا تقبله

فالسمع إنما يلتذ بما كان على تلك النسبة فى الشعر وبقية الحواس لا يلذ لها إلا ما كان بتلك المقادير المتناسبة فى تركيب المركبات (إن ربك هو الخلاق العليم) ، وليس القبول وعدمه الا الحب أو البغض ومنه تبت أن العشق سار فى الكون كله وأنه تابع للحساب والهندسة بل أضحى المسلمون محتاجين الى الحكمة العقلية التى كادت تجعل الغربيين أدرى منا بكل حسى حتى ديننا كاستدلالهم بالقايسة على أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل العالمين عقلا وأخلاقا وكاثباتهم بالمقابلة أن ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية وعندى أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون فى هذا الفتور

والأمل بعناية الله تعالى بعد زمان قصير أو طويل أن يلتفتوا لهذه العلوم النافعة فيستعيدوا نشأتهم بل يجلبوا إلى دينهم العالم المتمدين لأن نور المعارف بقدر ابعاده العقلاء عن دياناتهم يقربهم من الاسلامية لأن الدين المملوء بالخرافات والعقل المتنور لا يجتمعان فى دماغ واحد ، ثم أن تبعة التقصير تشمل علماء الأمة المتقدمين والمتأخرين وهؤلاء الذين عاصروا الأوربا ويين أكثر اثما وأشد عذابا بتقصيرهم واقتصارهم على تدريس شىء من اللغة والفقه وقطع من المنطق مظلمة متلبسة غير مستعمله وشىء من الحساب إكمالا للفرائض والمواريث تدريسا غير مرتب قلما يفيد ، فهؤلاء العلماء المتأخرون هم المسؤولون يوم القيامة عن هذه الأمة وضياعها ووقوعها فى شرك الردى والهوان لتركهم البحث فى الأحوال الحاضرة والعلوم النافعة فى هذا العصر .

وكما شمل التأخر علماءنا شمل الوعاظ والزهاد فالأولون مقتصرون على حكايات لزهاد من صحيح وموضوع ورواية كرامة الانجاب والاقطاب والنقباء والابدال وعلى بعض الاناشيد فى الحفلات والترنمات ولا تنس خطباءنا واقتصارهم على تكرار عبارات فى الدعاء للغزاة والمجاهدين وتعداد فضائل العبادات .

وبالاجمال فابتعادنا عن العلوم النافعة وانحيازنا فى جانب عظيم من الجهل هو الذى جعلنا أحط الامم ولو بقينا على هذا خمسين سنة بعدت النسبة بيننا وبين جيراننا كبعدها بين الانسان والحيوان ، والنتيجة أن ناموس الارتقاء هو الذى سبب هذا الفتور العام كما قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)

فقال المجتهد هذا يعد سبباً فى الانحطاط ولكنه لايكفى وحده لهذا الانحطاط العام ، وفقد الاحساس الملى ، والاخلاق الفاضلة ، والذى أراه يصلح سبباً لذلك أننا كنا قادة للامم سادة هداة فاغتررنا ونمنا آمنين مطمئنين وتنبه غيرنا ونحن لانشعر وسبقونا ونحن لاندرى حتى اذا تيقظنا من كهفنا رأينا الشوط بعيداً فيئسنا من المباراة واليأس أعظم مسقط للأمم قال تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) فما أخرنا الا يأسنا من المباراة واللحاق للامم الراقية واليأس فى الحقيقة كفر بالمواهب التى أفرغها الله عز وجل فى الوجود وجهل به وأى كفر أطم وأعم من جهل الوجود وما حواه ، فقال السائح هذه شكاية حال ولا تفى بالغرض ولا توضح السبب .

وما المسلمون بالأبعدين كأهل الصين ولا المتوحشين العريقين فى التوحش كأهل أمريكا الأصليين .

والذى عندى اننا فقدنا الهداة والمرشدين والأكابر المصلحين فلم نجد أميراً يدخل الأمة فى حكمه آخذا بخطام الرغبة أو سائقا بسوط الرهبة ولا حكيما معترفاً بفضله ولا تربية متحدة المبادىء فيشيب الولدان ويشبون وهم بها متحدون ولا جمعيات منتظمة تسعى للخير ولذلك حل فينا الفتور وإلى الله ترجع الأمور . فقال التاجر

إن ما ذكرته من الآمر المطاع والحكيم المتبع لا يكونان فى الأمم المنحطة إلا اتفاقاً وأما الرأى العام والجمعيات فلا يفقدان إلا بفقد الاحساس العام وهذا ما نتساءل عنه

ثم قال والذى أراه أن الداء العام هو فقد المال والفقر الآخذ بالزمام فالفقر هو السبب الأكبر فى جهلنا وفساد أخلاقنا وتشتت آرائنا حتى فى ديننا وفقد احساسنا وهكذا من كل ماحل بنا

هذه فطرنا لانقص فيها عن غيرنا وعددنا كثير وبلادنا متواصلة وأرضنا خصبة ومعادننا غنية وشرعنا قويم وفخارنا قديم فلا ينقصنا من الأمم الحية غير القوة المالية التى أصبحت لا تحصل إلا بالمال الطائل فوقعنا فى مشكل الدور فنحن نحتاج للعلوم وهى لاتحصل إلا بالمال والمال لايكون إلا بالعلوم وهذا الدور إن لم نهتد لحله دخلنا فى قانون فناء الضعيف فى جانب القوى من قانون الارتقاء

تنازع البقاء

فقال الفقيه أشرح لنا تنازع البقاء وأفض فيه أيها الفاضل فانك مغوار في البحث فقال : اعلموا اخوانى إن هذا الكون مؤسس على أن الأقوى يغلب الأضعف وليس هذا خاصاً بالانسان بل هذا حكم سار فى النبات والحيوان والصنائع فالنبات الأقوى يغلب الأضعف متى تجاورا فمتى زرعت بذور من أنواع مختلفة منه ونمت فى تربة واحدة ثم حصدت معاً وزرعت كرة أخرى وهكذا مرارا لايبقى منها إلا أقواها وأوفقها للأرض وأكثرها تحملا للحوادث الجوية ولو تنازع نباتان فى قفر لما بقى إلا أقواهما على احتمال القيظ كما لايفوز بالبقاء فى زمن القحط إلا من كان أشد صبراً على الجوع كما ذكره ابن خلدون . وأما الحيوانات المنفردة بالبقاء المنازعة لغيرها فأمثلتهما كثيرة إذ رأوا أن الخيل والبقر الوحشية التى تسرح قطعانا لايحصى عددها فى سهول أمريكا الجنوبية الواسعة انما أصلها عدد قليل أتاها من أوروبا يوم غزوة الاسبانيول وقد قدر بعضهم عدد الخيل الوحشية فى سهول بلادها الواسعة بنحو ثلاثة ملايين ثم النباتات

والحيوانات التى أدخلت من أورو با إلى استراليا المكتشفة حديثاً قد تكاثرت حتى كادت تغطى الأرض هناك وفازت فى الأرض بالبقاء ولا يخفى أن الذى يفوز بالبقاء على ماسواه انما هو ما تميز بصفات جسدية أو عقلية تجعل له هذا الفوز .

وهذه الصفات كثيرة جداً فقد تكون فى الإقدام أو القوة أو كبر القد أو صغره أو وسائط الهجوم والدفاع أو الجمال أو السرعة أو الصبر على الجوع أو حسن الكساء أو الحيلة أو حسن التدبير فى تحصيل القوت أو الحكمة فى اتقاء الشر و بعض الحيوان يفيده لونه كالجمل الأبيض والدب الأبيض اللذين يقطنان فى الجهات القطبية المغطاة بالثلج دائما وكذلك الذباب الأخضر الذى يعيش على أوراق النبات و بعضها بفروه الذى يتلبد إذا أقبل الشتاء و بعضها بسرعته فى الهرب أو شدته فى القتال .

ثم لتعلموا أيها الأخوان أن التنازع إنما يكون بين الأنواع الأقرب بعضها إلى بعض لاشتراكها فى المتنازع عليه ويقل كلما ابتعدت بعضها عن بعض حتى يفقد وكلما كانت الصورة قديمة ضعفت عن مقاومة أخصامها الاحداث لاتخاذ الاحداث فى التنازع صورا تناسب التغييرات الحاصلة فى أحوال الحياة فتجعلها أقوى وكل صورة غابت لاتعود أبداً إذلا تعود قادرة على الثبات فى التنازع و إذا أردت مثالا زيادة عما تقدم فهناك بلاد هولاندا الجديدة (استراليا) فان هذا القسم لانعزاله عن العالم مرة واحدة وعن كل منازعة بقيت نباتاته وحيواناته متأخرة جداً فأعلى حيواناته رتبة ذى الجراب الذى عاش فى أورو با فى الدور الثانى وتلاشى لتغلب أنواع أخرى عليه أقوى وأكمل و إنما بقى مثل هذا الحيوان فى استراليا إلى يومنا هذا ولم يضمحل لعدم وجود منازع شديد البأس ولكن من يوم دخلها الانكليز أخذ كل ما فيها فى التلاشى حتى كاد يضمحل لعدم صبره على منازعة ما أدخلوه معهم ولم يسمع قط ضد ذلك فلم يسمع أن حيوانات ونباتات استراليا أمكنها أن تتأصل فى أورو با .

فمن هذه الأمثلة التى رأيتها فى كتاب لويز بختر الألمانى المترجم إلى اللغة العربية تعلمون أيها الاخوان كيف تغلبت نباتات أورو با وحيواناتها على نبات وحيوان

فارتى أستراليا وأمريكا ولم يمكن تلك الحيوانات والنباتات أن تقف أمام هذه التى دخلت عليها

غلبة الرجال

وليست الغلبة خاصة بنوع الحيوان والنبات بل سرت الى نوع الانسان فأصبح الأوربى هو العنصر الوحيد فى أمريكا أما أهلها الأصليون فأصبحوا آلافا معدودة بعد ان كانوا ملايين فانقرض جُلهم ودخل بعضهم فى العنصر الأقوى وتناسلوا وهكذا أصبح العنصر الاسود فى استراليا يقل أمام الجيش الجارف من أوروبا وهكذا أهل جنوب افريقيا كل ذلك جار على الناموس العام من فناء الأضعف فى الأقوى

كما فنى المسلمون السابقون فى الأمم التتارية الآتين لهم من الجنوب ففرقوهم شذر مذر واحتلوا بلادهم وأخربوها وملكوا ديارهم وأموالهم واعتنقوا دينهم وصاروا هم أغلب المسلمين اليوم فى الهند والصين ومنهم تكونت أغلب أمم أوروبا الآن فقد تكاثر دخولهم اليها حين اختلطوا بالمسلمين وحاربوهم فى القرن السابع من الهجرة واغتالوا الروسيا وقد تغلبوا من قبل ذلك مراراً عليها قبل زمن النبوة فمنهم هذا العنصر كما أثبتناه فى كتابنا هذا

فهم بقايا يأجوج ومأجوج الذين كانوا من كل حدب ينسلون

غلبة الآلات والصنائع

ومن العجيب أن الغلبة لم تقتصر على الحيوانات والنباتات والانسان بل سرت أيضاً الى الآلات فهانحن نشاهد فى بلادنا كيف غلب وابورهم طواحيننا وسواقينا ونواعيرنا وشادوفنا تلك الآلات القديمة الضعيفة وكيف تقاوم هذا السيل الجارف وكيف يسامى الخبيث الطيب وكيف يقف الضعيف أمام القوى أم كيف يقوى الضار على مقاومة النافع قال تعالى(وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) وقال تعالى(يريد

الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث)وهكذا غلب وابور حرثهم محراثنا

بل مخض اللبن واخراج الزبد منه وتربية الخيل والبهائم كل ذلك تقدموا فيه تقدماً باهرا ولا دليل أقوى من العيان

وما عليكم الا أن تنظروا نظرة واحدة تروا الأمر واضحاً جلياً فى مراعينا و بيوتنا وأحوالنا المعاشية كلها وفى الزراعة وتربية المواشى وهكذا غلبت منسوجاتهم وخبزهم وطحنهم منسوجاتنا ومطبوخنا ومخبوزنا واضحى تجارهم أقوى من تجارنا ومر بيتهم أقوى من مر بيتنا وسياويهم أقدر من سياوينا وسواسهم أقدر من سواسنا ورؤساء دينهم أقوى تأثيرا على النفوس فى دينهم من رؤساء ديننا فى نفوسنا وجمعياتهم المؤلفة ثابتة لها نتائج مهمة دينية وسياسية وتجارية وصناعية حتى جاهلهم أرقى من جالنا فغلبوا ذاتاً وصفة وتجارة ورئاسة وجمعية ان فى ذلك لعبرة لمن يرى وما سبقونا الى ذلك حتى تقدموا فى الصفات النفيسة كالصدق والأمانة وغيرها بل متدينهم أصدق من متديننا فى دينه كما أخبرنا به غير واحد ممن جابوا تلك الأقطار

فهذا يا قوم معنى فناء الضعيف فى جانب القوى وهذه سنة فى الكون سارية فيه لا تتجاوزه . فكل أمة تمسكت بالقديم جداً من الأعمال ولم تحسنه ولم تبادر الى الاعمال دخل الجديد عليه فأباده

وهذا مصداق قوله تعالى كل يوم هو فى شأن فأية أمة وقفت على قديمها ولم تعبأ بما طرأ ولم تغير الأساليب حسب الزمان أهلكها الله وهذا هو السر فى أمره تعالى بالسير فى الأرض لنعلم أن الكون متغير دائما

والسير فى الأرض يهدى الانسان الى كل ما حدث وعندى أن السير فى الارض الآن ومعرفة الصنائع الحديثة فرض وتركهما اثم كبير بل هو أضر على الأمة من كل معصية هذا هو اجمال ما نعلمه من الكلام على فناء الضعيف فى جانب القوى وناموس

الارتقاء. وهذا وان لم يكن من موضوعنا الآن ولكن شرحته اجابة لطلب حضرة الفاضل الفقيه

ولنرجع الى مبحثنا الأصلي في أن السبب في ضعف الأمة هو فقرها وهو أصل كل تأخر مادياً وأدبياً فقد سبقونا في كل ما سمعتم من الصنائع والتجارات والزراعات بالمال والغنى وهما حاصلان بالعلم والعلم متوقف على المال فمن لنا بحل هذا الدور المشكل حتى نسير على صراط مستقيم

فأجابه الفاضل الفقيه فقال أن المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لم يعوزهم المال للتدرج في العلوم حتى للسياحات البحرية الى الجهات القطبية لأن فريضة الزكاة على مالكي النصاب والكفارات جاعلة لفقراء الأمة وبعض المصاريف العمومية نصيبا غير قليل في مال الأغنياء بحيث اذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة أمنوا الفقر . وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي الذي يسعى لأمثاله كثيرون من الجمعيات كطائفة السوسياليست (الاجتماعيون) والنيهليست (العدميون) وهم يريدون اعدام البشر لأنه أصبح في نظرهم شرورا وقبائح تجب ابادته والكومونولست (الاشتراكيون)

فكل هؤلاء يسعون لغرض واحد وهو الاشتراك العمومي في المال وهم وان اختلفت أغراضهم ظاهراً فباطنهم إرادة ذلك وهذه الجمعيات مكونة من ملايين يريدون التساوي أو التقارب في الأموال وملوكهم وأغنياؤهم أحبوا الاختصاص والشرع الاسلامي جاء طريقا وسطاً بين هذا وذاك (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)

فتعطيل الزكاة والكفارات أوجب بعض هذا الفتور المبحوث عنه كما أوجب ترك الزكاة فقد ثمرات عظيمة بين المسلمين وهي أن يعرف المسلم مقدار دخله وخرجه عند الحصاد أو حولان الحول في السوائم فتعلمه كيف يقتصد وبالجملة فليس المسلمون فقراء وإنما هم لم يحسنوا التصرف في المال .

الاجتماعات

والذى أراه يصلح سبباً حقيقيا لهذا الفتور العام جهل المسلمين بما فرض الله عليهم من الاجتماعات الدينية التى هى أساس كل مفاوضة سياسية فعدموا حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج وترك خطباؤهم ووعاظهم الوعظ والارشاد والتعرض للشؤون العامة كما أن علماءهم صاروا يسترون جهلهم بجعلهم التحدث فى الأمور العامة والخوض فيها من اللغو الذى لا يجوز و ربما اعتبروه من التجسس أو السعى بالفساد فسرى ذلك من الخاصة والعلماء الى العامة والجهلاء ، وصار كل واحد لايهمه إلا حظ نفسه وحفظ حياته فى يومه كأنه خلق أمة واحدة ويموت غداً جاهلا ان له على الجامعة الاسلامية والجامعة البشرية حقوقا وأن لها عليه مثلها ذاهلا عن أنه مدنى بالطبع لايعيش إلا بالاشتراك ناسيا أوامر الكتاب والسنة

ولما مضت قرون وتوالت عصور على الأمة وهى بتلك الحال تأصل فقد الاحساس فى الأفراد وتبعثرت الجامعة تبعثراً لم يبق معه إصلاح

والعجب من شريعة هذا شأنها من الحكمة قررت اجتماعات متكررة وجعلتها فرضا دينيا لازما ومضى زمان طويل فنسوا المقصود منها

ولعمرى أن هذه الأمة محتاجة إلى رجال مجددين للنهضة مقررين ومشوقين الى علوم القرآن فى قلوب الناشئة الحديثة ليشوقوهم الى المعالى والشرف والاجتماع ونحن الآن كما ذكر الله)ولاتكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قست قلوبنا وما قستها إلا من عدم معرفة الحكمة فى المشروع لنعمل للغرض المطلوب

أما الغربيون المعاصرون لنا فلما لم يكن لديهم من الدين اجتماعات كافية استدعوا طرقا واحتالوا بحيل الاجتماعات استرعاء للاسماع بوسائل شتى . فيخصصون أياما

لذكرى مهمات الأعمال لأعاظم رجالهم الماضين لينسج على منوالهم الحاضرون ويعدون فى مدنهم ساحات ومنتديات ييسهل الاجتماع ويكثر القاء الخطب وإبداء المظاهرات ويكثرون من المتنزهات الزاهية العمومية ويحرون فيها الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات ومنها اعدادهم فى التشخيص أماكن بقصد اراءة العبر واسترعاء الاسماع للحكم أو لوقائع واستسهلوا ما تضمنته الخلاعة المتخذة شبا كا لمقاصد الجمع ويعتبرون نفعها أكثر من ضرها ويعتنون غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريخهم الملية المفصلة المدمجة بالعلل والأسباب تمكينا لحب الجنسية ويحرصون على حفظ العاديات المنبهة وادخار الآثار القديمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر . ويقيمون النصب المذكرة بما نصبت له من مهمات الوقائع القديمة وينشرون فى الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكريه ويبسدون الأغانى الوطنية المبهجة للشعب الى الحمية الوطنية

فهذه عشرة أنواع من أهم اجتماعات الغربيين جعلوها شبا كاللاجتماعات وأما المسلمون فلهم من الاجتماعات ما يغنيهم عن مثل هذه وترانا فى مصر لم نصل الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فقد أصبحت أماكن اجتماعنا للفجور والفسق لاغير والأبرة الخديوية بات ضرها أكثر من نفعها وهذه تواريخنا مصمتة مقفلة ولقد حفظنا الآثار العربية ولكن ليس فى القوم شعور بأنها آثار آبائهم الأولين وأقمنا تمثال المرحوم ابراهيم باشا ولكن ما ذكرنا الا بوقوع بأسنا بيننا وأن قلوبنا شتى . أما الجرائد فعندنا منها جملة صالحة والأغانى الوطنية قليلة

وبالجملة فنحن أضعنا ثمرة الاجتماعات الدينية وقلدنا فى اجتماعات الغربيين ولم نصن الأول ولم نعرف الثانى فخسرنا الصفقتين ورجعنا بخفى حنين

فأجابه الحكيم أن هذا بالدواء أشبه منه بالداء وهو المبحوث عنه

ثم قال والذى أراه أوجب هذا الفتور العام اننا فقدنا الحكماء المسيطرين على العلماء والعامة وذلك انه ما من أمة من الأمم الا وجرت العادة أن يكون فيها حكماء يرشدون

العلماء فالأمراء فالعامة وهم الوارثون حقا للانبياء وهم المسمون بأهل الحل والعقد وهم الذين كانت تنعقد بهم الامامة وأمر صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم فقال : (وشاورهم فى الأمر) وشاورهم أول خلفائه الراشدين رضى الله عنهم واقتدى به الثانى حتى ترك أمر الخلافة لهم وهكذا كان معاوية وتبعه خلفاء بنى أمية فكانوا يتبعون مشورة سراة المؤمنين لاسيما بنى أمية

وهذا صدر دولة العباسيين كانوا مذعنين لسيطرة رؤساء بنى هاشم ولما استبدوا بالرأى ولم يكن أمرهم شورى بينهم ذهب الملك منهم وتفرقوا أيدى سبا .

وهكذا كل فرع من فروع الاسلام بل هى حالة كل فرد من نوع الانسان يستقيم أمره بالاستشارة ويعوج ويضل بالاستبداد

وما مثل أهل الحل والعقد فى المسلمين إلا كمثل الأشراف ومجالس النواب فى الحكومات المقيدة ومقام الأسرة الملوكية التى لها حق السيطرة على الملوك فى الحكومات المطلقة كالروسيا والصين ومقام شيوخ الافخاذ فى أمراء العشائر العربية فأولئك الأمراء ليس لهم من الأمر غير تنفيذ ما يبرمه الشيوخ وبالجملة ففقد الحكماء فى الملة الاسلامية هو السبب الأعظم فى هذا الفتور

والمسلمون من حيث الحكماء الآن ينقسمون ثلاثة أقسام قسم فيهم حكماء ينصحون وهم فى الصين وقسم فيه حكماء مسيطرون وهى فارس وقسم ليس فيه حكماء أو فيه وهم متروكون وهى بقية البلاد ما عدا القليل منها كبعض من نبغوا فى مصر .

فأجابه السائح قائلا

ان فقد الحكماء لايصلح سببا عاما وهذه الصين كم فيها من الحكماء وهم لايخافون سطوة الجبارين ومع ذلك لاتزال ترى الفتور شاملا لهم

والذى أراه يصلح سبباً عاما أمران ترك أمور كثيرة فى الدين وزيادات بدع فيه فالزيادة والنقص هما اللذان أوجبا هذا الفتور العام .

ألم تروا أن إخراج الزكاة وإعداد القوة ما استطعنا صارتا منبوذتين الآن أليس

غلاة الصوفية وجهلاؤهم اخترعوا أناشيد لم ينزل بها سلطان واعتنوا بما زادوه وتهاونوا بالفروض الأصلية فلم يوفوها حقها ثم صار التشديد حتما لازما وأصبح المؤمن يلتبس عليه كثير من أمور دينه ويضل فى الفروع الكثيرة فأجابه العالم قائلا :

وما للدين والانحطاط فى شؤون الحياة الدنيا فاذا حصل تشديد فى الدين أوتنويع فى طرق العبادات أو بدع مستحدثة فكيف تؤثر على شئون الحياة الدنيا مع أن الدين غير الدنيا وكيف يعقل ذلك وهؤلاء معاصرونا من الغربيين بالغوا فى هذا حتى ظن بعض حكمائهم أن مدنيتهم لم يستقم أمرها إلا بعد عزل الدين عن شؤون الحياة الدنيا .

فقال السائح :

اعلموا أن سير نوع الانسان فى أعمال الحياة الدنيا كله تعاريج وضرر وآلام ونصب إذ الحياة جارية على تنازع البقاء والاضرار بالغير ومحبة النفس وحب الغلبة مع مر العيش وكدر الحياة وهذه كلها آلام عظيمة فلابد لها من ناموس يخفف وطأتها ولا يكون ذلك إلا الاعتقاد بأمر عام شريف يعم سكان سطح الكرة كلها كما أن الانسانية مشتركة بينهم

وهكذا المادة تتنوع الى صور كثيرة وهى فى الحقيقة واحدة فهكذا نوع الانسان مهما تنوعت أصنافه فلا بد له من اعتقاد واحد يلم شعثه وهو الاعتقاد بقوة غالبة عالية تتصرف فى الكائنات بنظام محدود يعبر عنها الجاهل بلفظ (الطبيعة) والمهتدى الراشد بلفظ (الله)

وكما ان كل قوم اشتركوا فى المعيشة لابد لهم من قانون يجمعهم ودستور يشملهم حتى يرجعوا اليه عند التنازع يناسب أحوالهم المعاشية وكل فرد من أفراد ذلك الشعب لابد أن يجرى على مقتضاه وإلا كان وحشيا منفوراً منه .

فهكذا كل أمة مع الأمم المجاورة لها على سطح الكرة أرضية لابد من عموم أمر بينهم يجمعهم كلهم يكون أعم مما اشترك فيه الأفراد وأبسط إلا وهو الاعتقاد

بالغالب القاهر المتصرف فى العالم على أبدع نظام وإلا كانت شريرة متوحشة تنفر منها جيرانها .

ثم أن هذا الاعتقاد لابد منه للافراد والأمم ليخفف مرارة الحياة ويدفع الناس الى التساوى والانصاف فى الحقوق والرجوع الى الحق وإلا هلكوا أو ضلوا وصارت الحياة أشق شيء (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وكلام الله حق وصدق لامبدل لكلماته فكل فرد وأمة أعرضت عن ذكر ربها ضلت سواء السبيل فى الحياة الدنيا وساءت عقباها

واذا دققنا فى حال جميع الديانات التى ينزل بها الرسل الكرام نجدها فى مبدأ أمرها بسيطة سهلة تقود الى الخير فاذا تمادى الزمان دخلها كثير من الشرك الخفى والتشديد وهما مطية الدمار والخراب فاما أن تبقى على ما هى عليه فتصير الى الخراب والدمار واما أن يرسل الله لها حكماء يهدون الناس ويجددون ما اندرس ويجترفون ما ابتدع فترجع الى مجدها وسابق عزها فاذا لم يتداركوها هلكت أو اندمجت فى أمة أخرى

وذلك كما حصل فى كنعان وبنى اسرائيل فقد كانت تتوالى فيهم الرسل المنذرون والمبشرون كما قصه الله فى القرآن فترجع مدنيتهم زاهية زاهرة

وكما حصل فى عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم فانهم بادوا بالاهلاك العام

وبالجملة فقد وضح ان الأمم كما انه يجمعها نوع واحد وهو الانسان جمعها فكر واحد فى الدين وهو مدبر الكون المعبر عنه بالعبارات المختلفة وكما انهم أصناف مختلفون فمنهم الساميون والحاميون واليافثيون فهكذا تنوعت طرق الديانات باختلاف

الأنبياء والأزمان والأمكنة فتطابق الخلق والأمر (ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تبارك الله ربُّ العالمين)

اعلم أن الايمان بالله والملائكة واليوم الآخر والروح والنفس من أعظم داع لنمو المدنية وتقدم الحضارة اذ هذه مع غموضها على العقول كلف العقلاء بمعرفتها بالبراهين وهي صعبة المرام جدا فكأنهم ألزموا أن يدرسوا هذا العالم درساً صحيحاً ويخرجوا من الماديات الى المجردات وهذا لا يتسنى لهم الا بعد فحص الكون من علويات وسفليات وينتفعون بذلك فى دنياهم

فانظروا كيف كانت علوم التوحيد مبدأ للترقى فى المدنية والحضارة داعية الى التقدم السريع فى الماديات والأدبيات بل مثل البحث عن المجردات كمثل بحث علماء المتقدمين عن علم الكيمياء ليصنعوا منه الذهب فكان القليل منهم يصل الى المطلوب والكثير يعثرون على أشياء كثيرة نافعة فى الطب والزراعة والبيطرة وغيرها

أيها الاخوان ما ذا ترون فى هذه العجائب فلولا بحث الأقدمين عن الذهب ما وصل المتأخرون الى هذه العلوم الناجمة عن علم الكيمياء واليه الرمز بحكاية آدم وشيث فى كلام الأقدمين وانه علمه الكيمياء

فمن هنا عرفنا كيف كان البحث بالبراهين العقلية فى الله واليوم الآخر هو السبب الوحيد فى ترقى الأفكار وتمدين الأمم واثارة الخواطر وقيام الناس من رقدة الجهالة ولذلك لا نرى أمة إلا ودرست الرياضيات ثم الطبيعيات وأعقبت ذلك كله بالالهيات وأدخلت فيها الملائكة والأرواح وأعقبت ذلك كله بالسياسة والأخلاق فتأملوا كيف احتاج نوع الانسان فى تمدينه الى الايمان بالمجردات ليرتبط بعضه ببعض أولا ويبحث عن الحقائق ثانيا ولقد جعلوا العلوم جميعها أنواعا وأصنافا متفرقة مختلفة المشارب والأذواق وكل علم يبحث عن شيء مخصوص من هذا العالم وكل علم تحته فروع ترجع اليه وهذه العلوم يرجعونها الى أصل واحد وهى الالهيات عند اليونان والتوحيد عند المسلمين واللاهوت عند الأوروباويين كما رجعت الدول لنوع الانسان

ورجعت العقائد الى مدبر الكون المحرك له ورجعت العلويات والسفليات لأصل واحد وهى المادة

والذى يهمنا من ذلك كله ملوك الاسلام وأمراؤه ان لم ينسجوا على هذه الحكمة الباهرة فيكون لكل قوم منهم أمور خصوصية ومدنية تناسبهم كما هى طبيعة الكون ولكن تكون بينهم جامعة عامة تشمل الأمم الاسلامية فى جميع الكرة الأرضية فيتناقل العلماء الكتب فيترجم المصرى لكتب الفارسى والفارسى لكتب المصرى وهم جميعا كتب التركى والثلاثة تأليف الهندى وبالعكس وهكذا

ويتعارف العلماء بالأفكار والآراء ويتزاورون وهذه اللغة العربية هى السر الوحيد والترجمان العام فان لم يتواصل ملوك الاسلام ونام العلماء ولم يتعارفوا باخوانهم فى أقطار المسكونة فليبشروا بخراب عام وقيامة تقوم عليهم وحدهم ويخلون الأرض لله يورثها من يشاء من عباده قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)

وهذا العذاب ليس خاصا بالآخرة بل هو فى الدنيا وكفى بما فيه المسلمون عذابا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم منه شيئا

وكل فرد من أفراد علماء الاسلام وملوكهم مطالب بهذا التواصل فان أبوا فجزاؤهم ما حل بنا اليوم فليجتهد العلماء فى التواصل وليتحدوا على التعاون والا عوقب كل فرد بالاثم وحده فاذا فعلوا ذلك فقد سايروا على الناموس الالهى فى الكون ونهجوا منهج القرآن المطابق تمام المطابقة للحكمة الالهية وهذه هى حدود الله (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)

فتكون أمم الاسلام راجعة لأصل واحد وهو التواصل بين الملوك والعلماء بوجه عام فيكون الهندى مع الصينى مع المصرى كالألمانى مع الفرنساوى مع الانكليزى كرجوع العقائد والعلوم والأجهام وأمم نوع الانسان وأسرات المملكة وفروع الشجرة وأوراقها إلى اعتقاد واحد وعلم الالهيات والعنصر البسيط وهو الأثير والانسان و رب

المنزل والملك المدبر العام والشجرة فان هذا الملك متشابه يشبه بعضه بعضا والوحدة هي السر الساري فيه فبقدر ظهورها يتم و بقدر اختفائها يكون نقصه .

وها أنا أيها الاخوان أوضحت هـذا المقام وهو حكمة الإيمان بما غاب عنا من الإله وملائكته و إلى هذا المبحث أشار الله فى أول مرة من الكتاب المبين وهى : (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك و بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

فانظروا إخوانى كيف كانت آية فى القرآن من حيث التلاوة نهاية ماتصل إليه المدنية فى كل أمة .

فالايمان بالله والمجردات أول العلوم ومنتهاها ومبدؤها ونهايتها (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم)

لاغنى للمدنية عنه و إن تظاهر قوم بضد هـذا أمام المسلمين السياسيين فذلك ليرجعوكم إلى التفرق وهم متحدون فليتدبر المسلمون ان كانوا يعقلون .

فقال الحكيم إن هذا من أهم الأسباب و بواعث الانحطاط ولكنه وحده ليس سبباً لكل مانحن فيه من هـذا السقوط السبب الوحيد فى ذلك قصر نظر الأفراد وضعف الهمم والبعد عن المفاخر والتزهد عن المطالب والانقباض عن المكاسب والرضى بالذل والهوان

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

فالأمم إذا هانت ونبذت شرف النفس لم يقدموا على عمل واستكبروا كل ما يرونه وأعظموا الأمور التى يشاهدونها وعجزوا عجزاً صراحا وأضحوا فى انحطاط وخمود وفى الحديث القدسى أنا عند ظن عبدى بى وفى التنزيل (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وفى الحديث النبوى ومن أراد الخير يعطه ومن توق الشر يوقه فكل من كان أقدم على الأمور وأقل تهيباً فاز بالمرغوب وسعد فى الدنيا

ويشير لذلك قصة زكريا ومريم وأنه رآها تأكل فاكهة الشتاء صيفاً وبالعكس فتمنى أن يكون له ولد له صفات كصفاتها وكان فى المحراب فجاءته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب كما كان وقت دخوله على مريم فبشر بيحيى مصدقا بكلمة من الله وهى أيضاً صدقت بكلمات ربها (وسيداً) ومريم سيدة نساء العالمين (وحصوراً) لايأتى لنساء وهى أيضاً كذلك لايقربها الرجال (ونبياً من الصالحين) وهى كانت من الصالحين وقيل بنبوتها فانظروا كيف جاء المتمنى حين صوره فى نفسه جازما به وبالجملة فمعرفة أفراد الأمة أقدار أنفسهم وشرفهم هو الذى يعلى شأنهم ولايصل بالأمة أوج المعالى سوى تثبيت هذه الفكرة فى أذهانهم ولذلك لما كان بنو اسرائيل مستعبدين بين المصريين وأرسل الله سيدنا موسى لهم فأول فكرة بثها فيهم أنهم أفضل العالمين فقال : (وإنى فضلتكم على العالمين) ولما لم تكن هذه الفكرة كافية وحدها بل لابد من العمل التابع أردف هذا بأن أضلهم فى التيه حتى باد الجيل المتعب المتمرن على الذل والانقياد وجاء آخرون تربوا على شظف العيش فى مدة الأربعين التى مضت فى التيه فأمكنهم فتح قرية الجبارين فهذه سنة الله فى الأمم التى يريد ارتقاءها وما من أمة حية إلا وتجد هذه الفكرة منبثة فيهم ويرون أن سواهم أحق بأن يكونوا عبيداً لهم ألا ترى أن أمة انكلترا ذكر فى قانونهم أن الدم الانكليزى أشرف الدماء فلا يراق إلا لأشرف المطالب . وقام بسمارك فى ألمانيا خطيبا وقال نحن الالمانيين لا نخشى إلا الله وجاء فى القرآن قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ، وقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

فإذن يجب على علماء الأمة وشعرائها أن يوقدوا فى نفوس أفرادها نار الغيرة وشرف النفس

فأجابه العالم قائلا أن المتعلم الذى قرأ علوم الإسلام يرى من أساتذته ومحادثتهم

ومحاورتهم فى تقطيب جباههم ما ينفره ويصغر فى عينه كل أمة من الأمم عند ذكر أمتنا فتحن من هذا الوجه آمنون ولم يبق علينا إلا أن يعرف الشبان وجوه المطالب وتترقى فيهم ملكة الاستعلاء وها هو القرآن بين أيدينا فيه آيات لكل خلق من أخلاق الانسانية كالكرم والشجاعة والمحبة والاحتراس من الأعداء والاعتقاد وطلب التفكر وحوز العلوم والجهاد

فلو أن كل فريق من الناس كالشجعان فى الحروب والأطباء فى المستشفيات والأغنياء حفظوا آيات فى النوع الذى هم بصدده لكان ذلك داعيا للاقدام على الأعمال فيقرأ المجاهد وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم والغنى وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والطبيب كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين والعالم المتفكر قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وهكذا مما لا يحتمله المقام

ولقد ألف الشيخ الغزالى كتاباً فى بعض ذلك سماه علوم القرآن وذكر نحو ٧٠٠ آية فى تهذيب الأخلاق ومثلها فى النظر فى ملكوت السموات والأرض

ولقد علمت أن أهل أوربا نهجوا هذا المنهج فذكروا آيات من كل نوع من هذا على حدته ليقف كل قوم على ما هم بصدده .

ولقد سمعت ممن اثق به أن أحد مدرسى مدرسة الطب بمصر قال له عند ذكر أمراض العيون أن أهل مصر لا يلزم لهم قانون صحة قانونهم كتابهم . أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) حكيم باشا إذ الوضوء فى الأوقات الخمس والمحافظة على النظافة فى هذا الدين تنبذ جميع الأمراض بالكلية وتستأصلها منهم ولكن عدم المحافظة على ذلك هو الذى أوجب الأمراض

ومن العجيب ان الله يأمر بالنظافة لأجل الصلاة وقد أراد أن تكون صحة لنا جهلناها وعرفها الغربيون ولا يتم ذلك إلا إذا عرف كل قوم الآيات الدالة على ما هم بصدده وهكذا قال بنتام الانكليزى أن المحافظة على نظام الدين الاسلامى توجب

عدم ارتكاب الذنوب بالكلية وهذا أيضا لاطلاعه على الآيات الدالة على النظافة كما هو مقرر أن النظافة سبب للصحة الجسمية ولقلة الذنوب والرذائل فلله شريعة سمحاء جهلها الأقربون وعرفها الأبعدون

ومع هذا فيجب على كل طائفة أن تتعلم القدر الضروري المشترك بين الجميع. كآيات العبادات بأنواعها ويكون ذلك بفهم وعلم وبعقل لا كالقراءات الآن ويمنع الحكام قراءة القرآن فى الأماكن التى لا تليق وعلى المقابر ويعظمونه ويجلونه ثم يلقى فى أذهان القارئين وجوب فهم المعنى ويعرفون قوله عليه الصلاة والسلام اقرأ القرآن ما نهاك فان لم ينهك فلست تقرأه وهكذا حتى تشب الأمة على مبادىء الدين

خاتمة

وحينئذ قام فاضل من فضلاء الجمع وقال يا قوم انى تأملت ما دار بينكم فألفيته جمع شتات المسائل وخلاصة الأسباب ونموذج الرقى وظواهر الاصلاح و بهجة السعادات ونظام الحكومات فلتدرسوا العلوم وتنشئوا الصناعات ولتبشروا بالنجاح ولا تفرطوا فى صغير أو كبير مما أفضتم فى شرحه اليوم واصبروا على الأعمال صبر أولى العزم يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ؟

(تم الجزء الثانى من كتاب نظام العالم والأمم وهو نهاية الكتاب)

تقريظ

وردت للمؤلف قصيدتان غراوان مرتبتان على مقتضى رويهما وأول اسمى منشئيهما الفاضلين

الأولى مدبجة بقلم الأديب الفاضل العلامة الشيخ حسين والى من أجلاء علماء الأزهر الشريف ووكيل الأزهر سابقا فاستحسنا نشرها لاشتمالها على أقسام الكتاب التسعة ولصدورها من صديق للمؤلف حميم قال حفظه الله :

اذا قيل من أذكى فؤادا وأدرى بالحقائق فى الرجال
وأصفى جوهراً وأعز نفساً أقوم الجوهرى ولا آبالى
تزكت نفسه فعلت علوا فجاءتها الحقائق بامتثال
على جثمانها غلبت فكانت لها أحكامها لا للخيال
رأى بالجسم مبدأ كل شىء و بالنفس اجتلى غيب المآل
وحظ النفس عند الجسم نزر وعند تغلب حظ الكمال
وان الله برهن للبرايا بآيات تدوم على التوالى
ولكن عميت زمنا لأمر وصار قريبها صعب المنال
وغشى وجهها مركوم سحب فصاروا فى ظلام أو ضلال
وظنوا الشمس اذ زالت أتاها من الرحمن تكوير الزوال
وما علموا بأن الشأو ناء وأن الشمس صاحبة انتقال
فان هى لم تكن طلعت بشرق تكن طلعت بغرب غير آل
لها الطوران فى الدنيا جميعا كما الخصمين كانا فى سجال
بدت بالغرب دهرا فاستبانو أعاديهم ففازوا فى القتال
فلما أثروا فينا انتبهنا وأودى الضعف بالاسل الطوال

وليس لنا من الضوء المزجى سوى سم الخياط لدى النضال
أصاب الجوهرى به فأنمى كما ينمى المصيد لدى الحبال
هو النظارة الكبرى تريه الـ أمور بعينها لا بالمثال

ولولا آية فيه لشرق لدام مجهلا فى شر حال
كأن الله آثره فأضحى وما وافت بمشبهه الليالى
درى سر الكتاب وكان غيبا فباح بسره قبل السؤال
وبوح السر أقبح ما تراه اذا لم يلف فى شرف الخصال
فسوق نفس كل نحو علم فكان مقاله فوق المقال
وقد أبدى بحسبان كمثلا يزال سافلا منها لعال
وفكر فى السموات افتكارا وجلوز شمسهن مع الهلال
تبين ما حوى الافلاك مما جرى جهة اتصال وانفصال
وبعد تبين الأرضين حتى تبدت فى عوالمها الثقال
أرته جمادها فرآه حيا يسبح ربه بفصيح قال
أرته نباتها نضرا بهيجاً تزين بالنظام وبالجمال
أرته أعجم الحيوان يزرى بذى نطق عن العرب العوالى
أرته حقيقة الانسان فيها عجائب فوق أعداد الرمال
أرته النفس فى شرف خطير وأمراً آتياً من ذى الجلال
أرته سياسة الأمم الأوالى وراء سياسة الأمم الخوالى
أرته عجائب العمران طراً وشرعة ربها بين الموالى
فهذى تسع آيات كموسى ولكن نعمها بادى اقتبال
تكفلها كتاب منه سام منظمة كوعد منه خال
ألا يا جوهرى رعاك مولى أرادك للمعارف والمعالى
فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

القصيدة الثانية لسعادة الفاضل المرحوم يحيى بك قدرى مأمور إدارة أوقاف الحلمية من بحر المتدارك (الخبب) وأهداها للمؤلف فشكرنا له وآثرنا نشرها لعذوبة ألفاظها ورونق أسلوبها ولصلة المودة بينهما قال حفظه الله

ان رمت الفلسفة العليا لبنى الإسلام والأمم
أو شئت الحكمة مستقيا من غيث العلم المنسجم
بادر لجواهر قد نسقت فى شعر يزهو بالحكم
يهدى الحيران ويرشده لنظام الكون المنبهم
فيه التطبيق على حكم من محكم تنزيل الحكم
فيه الآيات بعلم ما فى الملكوت من العظم
فيه التفصيل يشوقنا لجمال الصنع المنتظم
صنع الافلاك وأنجمها كنظام الشمس المبتسم
وثلاث مواليد وجدت فى الارض بخلق من سدم
وسياسات وتدابير جاءت كالنور على علم
قرنت بمسائله تحف عن أهل العلم ذوى القلم
زانته براهين سطعت كشفت عن سر مكتتم
قد صيغ الرشد بأسطره كنجوم ضاءت فى الظلم
فالفضل لمنشئ عنونه بنظام العالم والأمم

فهرست الجزء الثانى

من نظام [illegible]

صفحة

الباب السادس

٣ بيان ما فى الباب السادس من الفصول والمباحث والطوائف

٤ الطائفة الأولى — الشعراء

٥ الطائفة الثانية — الناظرون فى الرياضيات

٧ الطائفة الثالثة — علماء التشريح

١٢ معنى قول القدماء الصفراء والدم والبلغم والسوداء

١٢ أقوال القدماء وحكماء العصر فى الكبد وظهور حكمة الله فيه

١٣ موازنة حيرة علماء الفلك بحيرة علماء التشريح

١٤ ترتيب الأعضاء الباطنة فى جسم الإنسان

١٥ الرئة

١٦ الدورة الدموية

٢٥ أعضاء التوليد

٣٠ ابداع غريب وحسن وضع وترتيب فى الكبد والرئة والحواس

٣٥ فيما يهم من حقائق علم التشريح

٣٧ الفصل الأول — فى أن جسم الانسان كالآلة البخارية الطاحنة

٣٩ تركيب جسم الانسان

obeikandi.com

صفحة

٤٠ وظائف جسم الانسان
٤٣ جهاز الحركة
٤٤ الفصل الثانى — فى الكلام على مايوافق من الأغذية ومالا يوافق
٥٠ الفصل الثالث — فى بيان أن هذه الأغذية مقسمات على مافى الجهاز الهضمى من الآلات المعدة للهضم بالفطرة
٥٦ الفصل الرابع — فى بيان الجهاز التنفسى
٦٠ الفصل الخامس — فى الدورة الدموية
٦٢ القلب قصر يباهى إيوان كسرى
٦٨ جمال الوضع و بهجة الصنع وجمال الحكمة
٧٢ الفصل السادس — الجهاز العصبى
٧٩ شرح رؤية العين
٨٧ عجائب العيون
٩٠ الباب السابع
فى الطائفة الرابعة وهم علماء الفلسفة العالية الذين درسوا علم النفس
٩٤ المحسوسات
٩٥ المذوقات — المشمومات — المسموعات
٩٧ المبصرات
١٠١ الحس المشترك
١٠٢ المخيلة أو المصورة
١٠٧ القوة العاقلة
١٠١ أقسام العلماء — أقسام العلوم
١١٢ التقسيم الحديث

obeikandl.com

صفحة

١٢٢ مسامرة فى علم الحكماء والفلاسفة
١٢٧ الارادة والاختيار
١٢٧ السعادة والاختيار
١٢٨ حكمة تامة ونظام عجيب
١٣٠ ابداع العقل والمنطق والخط
١٣٢ ضرب مثل لحال النفس مع الجسم
١٣٤ قوى الأنسان كلها ترجع إلى نفس واحدة
١٣٥ برهان أن النفس وقواها واحدة
١٣٦ المادة والنفس
١٣٦ المادة والنفس والعقل والملائكة
١٤٠ لطيفة
١٤١ آراء الناس فى النفس
١٤٥ عموم الوحدة فى الموجودات
١٤٧ الباب الثامن
بيان مافيه من المواضيع
١٤٨ (١) الوحدة فى الأمم ترجع إلى قوتي العلم والعمل
١٥٠ (٢) كيف تصير الأمة كلها جسما واحدا وكيف تقارن بجسم الانسان
١٥٢ (٣) تأثير الاعتقاد فى الأمم
١٥٣ (٤) مابه نظام الدنيا والدين
١٥٥ (٥) مآل أهل المدينة الفاضلة بعد الموت
١٦٠ (٦) الأمة تصارع العالم كله فى نظامه

obeikandi.com

صفحة

١٦٣ (٧) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا
١٦٤ (٨) الترقى سنة العالم شرحها القرآن قبل دار و بين بأنى عشر قرنا
١٦٧ (٩) أقسام أهل المدينة الجاهلة وأعمالهم
١٧٠ (١٠) اهل المدن الجامعية
١٧١ (١١) فى انماء الثروة
١٧٢ (١٢) فى الخشوع
١٧٣ (١٣) اعتقادهم فى العدل
١٧٤ (١٤) المدن ذات الروح أو الجسد والروح ثم الضالة والفاسقة
١٧٩ الباب التاسع
فى أمة الاسلام ونظامها وما يجب على أهلها أن يتخذوه فى هذه الأيام
١٨٢ الفصل الأول — فى ذكر أحوال المسلمين من القوة فى عصر النبوة ومن الضعف الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الآن
المبحث الأول — فى قوة أمة الاسلام فى عصر النبوة وصدر الاسلام
١٨٤ ثروة الخلفاء وعمالهم
١٨٦ المبحث الثانى — فيما طرأ عليها بعد ذلك فى أيام بنى أمية وأيام بنى العباس وكيف أزالها التتار وفى الدولة الأندلسية وكيف أزالها فرديناند و إيزابلا
١٨٦ شيوع التبذير فى الدولة
١٨٩ الاسراف أيام بنى أمية
١٩٣ دولة بنى العباس والاسراف فيها
١٩٤ ثروة نساء الخلفاء
١٩٦ الجوارى والغلمان
١٩٧ الوزراء
٢٠٢ كثرة الأسرى أو الأرقاء

صفحة

٢٠٣ الخصيان
٢٠٤ مقاومة الخلفاء للغناء
٢٠٥ دارالشجرة
٢٠٧ قصر الحمراء وأمثاله
٢٠٨ البذخ فى الألبسة
٢١٠ الفرش والأثاث عندالفاطميين
٢١٠ أثمان الجوارى
٢١١ سخاء البرامكة
٢١٣ التهتك
٢١٥ يأجوج ومأجوج
٢٢٥ قسيس يخص شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة
٢٢٧ مصير براق ابن عمار
٢٣٧ قصيدة للسيد يحيى القرطبى
٢٤٠ الأمم الاسلامية جميعها متشابهة
٢٤١ سرمكنون
٢٤٢ المبحث الثالث — فى حال المسلمين فى عصرنا الحاضر
٢٥٩ الفصل الثانى — فى السعادة والاختيار والعمل والتوكل
٢٦١ الكلام على العمل والتوكل
٢٦٦ الفصل الثالث — توزيع الأعمال على الأفراد وماحكم الشرع فى فروض الكفايات
٢٦٧ باب العلم
٢٧٢ الفصل الرابع — العلوم التى يجب تحصيلها والصنائع

obeikandl.com

صفحة

٢٧٩ تتمة هذا الباب
٢٨٠ الفصل الخامس — طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه فى هذا الأيام
٢٩٠ الفصل السادس والسابع — فى وجوب استعمال العقول وترك الفضول
٣٠٥ الفصل الثامن فيما يجب على علماء الاسلام وأمرائهم من التعاون والمحبة
٣٠٦ الفصل التاسع — فى الكلام على سياسة أوربا واستطلاع علومها
٣٠٦ الفصل العاشر — قصص القرآن وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه السلام وبعض المشاهد الطبيعية
٣٠٦ المقالة الأولى
٣٠٨ المقالة الثانية
٣١١ المقالة الثالثة — فى انشاء الأمم
٣١٥ المقالة الرابعة
٣١٧ المقالة الخامسة — فى عجائب الوجود من بحر وشمس وغيرها
٣٢١ ثمرة هذا النظر
٣٢٢ الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر — فى ذكر علو همة الافراد وتشويقهم وفى ذكر كيفية التوصل بالقرآن إلى هذه الطريقة وفى ذكر ما اقتصر عليه المسلمون من علم الفقه
٣٢٢ الاقتصار على علم الفقه
٣٢٣ الفصل الرابع عشر — فى ذكر حكمة التكليف بالايمان بما غاب عنا مما ليس يحرم وفى توحيد العلوم وأن الوحدة فيها نظام كل شىء
٣٢٤ الفصل الخامس عشر — فى ذكر السياحات وفوائدها شرقاً وغرباً
٣٢٥ الفصل السادس عشر — المقالات الأصمعية . المقالة الأولى الترقى فى الأزهر
٣٢٧ الفصل السابع عشر — المقالة الثانية كليات الاسلام وطريقة التعليم فى الأزهر

obeikandl.com

صفحة

٣٢٩ الفصل الثامن عشر – المقاله الثالثة نظام الأزهر
٣٢٩ رأى الكاتب الأصمعى
٣٣٢ الفصل التاسع عشر – المقالة الرابعة الغزالى والعلم الازهرى
٣٣٥ الفصل العشرون – المقالة الخامسة الكليات والترقى
٣٣٧ الفصل الحادى والعشرون – المقالة السادسة الأزهر وابن رشد
٣٤٩ الفصل الثانى والعشرون – المقالة السابعة كليات الاسلام وناموس الترقى
٣٥٣ الفصل الثالث والعشرون – المقالة الثامنة الواقفون والعلماء
٣٥٦ الفصل الرابع والعشرون – فى المقالة التاسعة خطاب لوجهاء الأمة
٣٥٨ الفصل الخامس والعشرون – المقالة العاشرة الى مدرسة كبرى والله سيدها والناس الطالبون
٣٦٠ دعوة عامة للناشئين إلى جمال العالم والعلوم
٣٦١ العالم السفلى
٣٦٤ الفصل السادس والعشرون ـ المقاله الأولى الرازية هذه العلوم فأين الترقى
٣٦٥ الفصل السابع والعشرون – المقالة الثانية
٣٦٧ ميزان و برهان
٣٦٨ الفصل الثامن والعشرون فى حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى
٣٧٣ الفصل التاسع والعسرون — محاورات لطيفة فى الاسلام ونظامه وأسباب انحطاطه وسبيل ارتفاعه
٤٠١ مقاصد علم التاريخ
٤٠٣ البرهان والتقليد
٤٠٤ العلوم الرياضية والطبيعية

صفحة

٤٠٥ إيضاح فى العلوم الطبيعية
٤١٣ تنازع البقاء
٤١٥ غلبة الرجال
٤١٥ غلبة الآلات والصنائع
٤١٨ الاجتماعات
٤٢٩ خاتمة
٤٣٠ تقريظ
٤٣٣ الفهرست

obeikandl.com

الخطا والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣	١٣	الجهر	الجهاز
٧	١	الطائفة الثانية	(١) ظواهر علم التشريح (٢) وما يهم من الحقائق (١) أما ظواهر علم التشريح
١٣	١٥	يقرون على	يقرون
٢٣	١١	يحسبون	يحسَبُو
٢٤	٢	الكواكب	الكوكب
٢٤	٢	من حرمان	مع حرمان
٢٩	١٦	المختف بهم	المختص بهم
٣٥	١١	المهمله	المهمة
٤١	٥	العقد	الفقد
٤١	٢٢	يخلصه	تخلصه
٤٥	٨	الكرنب والقنبيط	
٤٥	١١	والبطاطس	
٥٢	٢٢	يعوذه	يعوزه
٥٥	١٩	الجذر	الجزر
٥٦	١٩	فيها	فيهما
٥٩	٦	من القلب	من الرئة
٧٩	٢	اليجيب	العجيب
٨٢	١١	كورتى	كورتى

obeikandi.com

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨٩	٣	بالقبيح	القبيح
٩٨	١٤	تسعى	تسمى
١٠٢	١٦	فلو	فاذا
١٠٢	٢١	ما دامت	وما دامت
١٠٥	١١	العلم	العالم
١١٢	٣	العلوء	العلوم
١١٢	١٠	تكلف	تكفلت
١١٦	٧	متساويان	متساويين
١٢٩	١٠	احيل	حيل
١٣٤	٢٠	ثلاثة أمور	امرين
١٣٥	١٣	من درس العلوم	بدل درس العلوم
١٣٦	١٩	قبلها	مثلها
١٣٨	٢١	ادحضه	دحضه
١٣٩	١٦	ويُفعلون	ويَفعلون
١٤٠	٤	او الصورة	والصورة
١٤٠	٨	اوسع	ادمع
١٥٠	٣	واضلّ	وأضلُّ
١٦٢	١٩	دفع الله	دفعُ اللهِ
١٦٤	٤	البائل	القبائل
١٦٤	٤	قلائل	قلاقل
١٦٧	٩	المدنية	المدينة
١٦٧	١٣	ما يرى	ما ترى
١٧٥	١٢	واليوم الآخرفهم فى	فى اليوم الآخرفهم

obeikandl.com

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٨٢	٨	الالفاظ	الألفاظ
٢٨٢	١٤	الاندلس اذ لم	والانطلس لم
٢٨٣	١٣	متصرفة	منصرفة
٢٨٣	١٥	يسيلهم	بسيلهم
٢٨٦	١٩	يهديني	يكفى
٢٨٨	١٨	يستوفى	يوفى
٢٨٨	٢٣	العقل	الفعل
٢٨٩	١	العقل	الفعل
٢٩١	١٧	و بسرعة	بسرعة
٢٩٤	٤	مسطر	مسطور
٢٩٩	١٢	وثمود	عاد وثمود
٣٠٠	٥	وماهى نظام	وما نظام
٣٠٢	٨	ان يقرأ	انه يقرأ
٣٠٣	٥	منى	متى
٣٠٣	٦	يتخيل	يخيل
٣٠٤	١٢	ساجدون	سامدون
٣٢٢	١٢	أحاديث	وأحاديث
٣٢٢	١٧	علماءها	علماؤها
٣٢٣	٣	غفلتها	من غفلتها
٣٢٤	٢٠	اشاره اى	اشارة الى
٣٤٠	٢	توجد	نوجد
٣٤٢	٥	عنده	عندهم
٣٤٥	٥	يطاق	يطلق
٣٤٥	١٦	ذرات	ذوات

obeikandl.com

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٤٦	٢	وإن كان ليس له مثال فى الشاهد	
٣٤٧	١٤	فكانوا ممن إلى قوله أهل اليقين	
٣٥٠	١	على	عليه
٣٥٢	٢٠	احتلال	اختلال
٣٥٧	١٠	لم تغنى	لم تغن
٣٥٨	١٩	الجلية	الجلبة
٣٥٨	٢١	اذ	اذا
٣٥٩	٣	وترضع	وتغذى
٣٥٩	٢	لا بالمدارس	إلا بالمدارس
٣٦٠	٥	كاسبانيا	كالاندلس
٣٦٢	٧	التربيه فآخر فاصل	التربية فآخر فاضل
٣٦٣	٢١	مع الآخرة	. . . .
٣٧٤	١	والذين	الذين
٣٧٦	٢٠	جر	أجر
٣٧٦	٢٣	ناداهم	ناوأهم
٣٧٧	٢	الآيه	الأمة
٣٧٧	٧	لفرق	لفرق
٣٧٨	٥	ينقص	بنقص
٣٨٠	٢٢	فلو	فاذا
٣٨٠	٢٣	تسربوا	تربوا
١٨٢	٤	فى أحوالها	فى أحوالهم
١٨٦	١٠	ومزود	ومذود
٢٠٧	٧	فخيما	فخما
٢٢٤	١٦	بن بى	بن

obeikandl.com

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٢٥	٢	فاقبل	أقبل
٢٢٧	١٤	قبلوا	قتلوا
٢٣٤	٢٣	فتم ل	فمُثِّل
٢٣٨	٨	يملُك	يملِكُ
٢٣٩	١٧	حسران	حيران
٢٤٣	٢١	الاية	الأمّة
٢٤٣	٣	يكونوا	يكونون
٢٤٤	١٣	صار	جاء
٢٤٨	٩	يه دل	يدل
٢٤٩	٤	ينضرم	تتضرم
٢٥٣	٢٢	لانفاذ	لانقاد
٢٥٥	١٣	الشرق للغرب	الغرب للشرق
٢٦٠	١٣	لأنفسها	لا نفسها
٢٦٠	١	وأى	وأية
٢٧٣	٢	ممتزجتان	ممتزجان
٢٧٣	٨	اتبعا	اتبعها
٢٧٦	٧	كالذى يكون مريضا	كالطبيب
٢٧٩	١	فاى	فأية
٢٧٩	٨	أو خسروا	وخسروا
٢٨٣	٦	عل	على

obeikandl.com